



أخبار ناس وصحف وسياسات وأحزاب

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد

Dar al Jadeed





أخبار ناس وصحف وسياسات وأحزاب

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَارالجَـديْد
Dar al Jadeed

الطَّبْـعَـــــة الأولـــــــى ٢٠٢٢

دارة محســـن سليـــم، جبل لبنان
بيـــــــــروت ـ لبنـــــــان
www.dar-al-jadeed.com
www.LokmanSlim.org
daraljadeedbeirut@gmail.com

الغــلاف: إليســـار الرشــعينـــــي
التحريـــر: قلـــم دار الجديـــــد

الترقيـم دولـي: 978-9953-11-220-6

مؤسسة دَارالجَـديْد
Dar al Jadeed

إلى أكرم صاغيّة

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

فِهْرِس

مـا هـبّ ودبّ

أفكار مكروهة

يوم كانت صحف...

ممّا عِشْتُهُ أو عَرَفْتُهُ

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لم «يَحْـدثْ» في لبنـان كلّ مـا حـدثَ في هـذا الكتـاب، لكـنّ لبنــان كان يتّسـع لـكلّ تلـك الأحـداث، يتّسـع لمعرفتهـا، لمناقشـتها، وإلى حـدّ بعيـد لعيشـها. الأمـر اختلـف اليـوم.

يضـمّ هـذا الكتـاب مقـالاتٍ نُشِـرتْ فـي جريدتـي «الحيـاة» و «الشـرق الأوسـط»، وفـي موقـع «درج».

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَارالجديد
Dar al Jadeed

مـــــــــا هـــــــــبّ ودبّ

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

«الله والوطن والعائلة» و... فايزة أحمد!

في ١٩٦٥، غنّت المطربةُ المصريّة فايزة أحمد أغنية ذاعت وانتشرت في مصر والعالم العربيّ. الكلمات كتبها مرسي جميل عزيز، والألحان لمحمّد الموجي. اسم الأغنية: بيت العزّ يا بيتنا.

الكلمات والألحان تتبارى في إبداء السعادة بالعائلة وبحياة يُفترض أنّها مثلى: فالمنزل العائليّ هو «بيت العزّ» و«بيت السعد» و«بيت الفرح» في آن. وفي ذلك المنزل المحاط بالخضرة والأشجار المثمرة، تقيم «أجمل أيّامنا وأحلامنا وحكايات ليالينا»، حيث «اللقمة الحلوة تجمعنا وتشبّعنا وتكفّينا» و«الكلمة الحلوة تفرّحنا وتصبّحنا وتمسّينا».

أمّا مَن ظنّ أنّ الستّينيّات كانت عقدَ الثورة على الأب وبيته، فعليه أن ينسى هذا المعنى الغربيّ البحت. فمطربتنا المصريّة آثرت الوفاء لتقليد في الغناء العربيّ يدور حول العائلة وأفرادها، تقليدٍ شاركت فيه هي نفسُها حين غنّت لأمّها «ستّ الحبايب»، كما شارك فيه مطربون عرب آخرون.

لكنّ السعادة التي تتحقّق هنا، في ربوع العائلة والبيت، لا يربِطُها إلّا العداء المستحكم باللذّة التي تؤتى من كسر العائلة والبيت، ومن الاعتداء على المُحرّم العائليّ والتحايُل على دمه الجامع المانع.

ولئن كانت تلك اللذّة شيطانيّةً تُخلّ بأنظمة الأشياء وتراتُبها، فإنّ

هـذه السـعادة مصدرهـا ربّانـيّ. إنّهـا تناهـض الشـيطان، ولا تكتُـمُ صلتها، ولـو مـداوَرةً والتفافًـا، بالإيمـان الصافـي. والحـال أنّ كلمـة «اللـه» تتكـرّرُ مـرّات فـي كلّ مقطـع مـن أغنيـة السـعادة العائليّـة هـذه، بـل «اللـه» هـو الـذي يفتتـح كلّ مقطَـعٍ ويقـود خطـاه، فــ «اللـه اللـه اللـه اللـه على عِشـرتنا وعلـى لَمِّتْنـا حواليـن بعضينـا».

وسـعادةٌ ربّانيّـة كهـذه لا تطمئـنّ إلـى ذاتهـا وإلـى دوامهـا إن لـم تَطْـرُد الشـيطان طـردًا مطلقًـا ونهائيًّـا يسـدّ عليـه كلّ الأبـواب والحيطـان:

«ابعـدْ يـا شـيطان، ابعـدْ يـا شـيطان، ابعـدْ يـا شـيطانْ | إن جيـتْ مـن البـاب هانـردّ البـاب ونعيـش فـي أمـانْ | وان جيـت مـن الحيـط هانسـدّ الحيـط بحجـر صـوّان | ابعـد يـا شـيطان، ابعـد يـا شـيطان، ابعـد يـا شـيطان».

واسـتحضار الشـيطان سـلبًا، بقـدر مسـاوٍ لاسـتحضار اللـه إيجابًـا، إنّمـا هـو بهـدف إحـكام طـرده، تمامًـا كمـا أنّ اسـتحضار اللـه مقصـود منـه تحكيـم إملاءاتـه الضامنـة للسـعادة واسـتمرارها. فالشـيطان هـو صاحـب الإغـراء باللـذّة التـي تُهَـدّدُ السـعادة، بـل هـو رائـد هـذه النزعـة الخبيثـة والشـرّيرة، يتسـلّل إلينـا مـن تحـت الأرض ليخـرّب إرادَةَ اللـه التـي تقيـم فـي السـماء، ومـن السـماء تَهْبِـطُ علينـا. إنّـه، بعـد كلّ حسـاب، مركـز العتـم الـذي يقابـل مركـز النـور والوضـوح. إنّـه «السـيّد المُعتِـم»، وفـي العتـم تحـدث الرذيلـة وتُنحَـر الفضائـل.

وتقليـد طـرد الأرواح الشـريرة، شـياطينَ كانـت أم جِنًّـا، مـن الجسـد ومـن المنـزل، تقليـد عريـق. وفـي حديـثٍ منسـوب إلـى الرسـول أن «لا تجعلـوا بيوتَكُـم مقابـر إنّ الشـيطان ينفـر مـن البيـت الـذي تُقـرأ فيـه سـورة البقـرة». فـإذا صـحّ هـذا الحديـث، بـدت السـورة المذكـورة علاجًـا مُقْتَرَحًـا لطـرد الشـيطان. ولئـن عُرفـت بعـض الفـرق البروتسـتانتيّة فـي الولايـات المتّحـدة بنزاعهـا المُـرّ مـع الشـيطان، والـذي لا يُحسـم بغيـر

الحـرق والاسـتئصال الجـذريّ، ففـي «البوتقـة» خلّـد آرثـر ميلـر هـذه الممارسـة اسـتنادًا إلـى محاكمـة «السـاحرات» فـي بلـدة سـالم، فـي ماساتشوسـتس، أواخـر القـرن السـابع عشـر.

لكـنّ السـعادة (الربّانيّـة) تَعْلَـمُ فـي سـرّها أنّهـا ضعيفـة حيـال إغـراء اللـذّة (الشـيطانيّة). فـ «النفـس أمّـارة بالسـوء» إسـلاميًّا، أمّـا مسـيحيًّا فـلا بـدّ مـن معانـاة الألـم لتخليـص البشـريّة مـن براثـن الشـيطان. أوليـس صَلْـبُ المسـيح النُّصـب الأعلـى والأكمـل فـي تخليـد هـذه المعانـاة؟

ولأنّ السـعادة ضعيفـة حيـال اللـذّة، فمـا إن تَحْضُـرُ الأولـى حتـى يصيـر محتّمًـا إحضـار الثانيـة بقصـد طردهـا وتبديـد خطرهـا. وفـي المقابـل، فحيـن تحضـر اللـذّة، يحضـر معهـا العقـاب، ابتـداءً مـن تنـاول التفّاحـة الشـهيرة وحتـى الضحـك الكثيـر الـذي نتسـاءل عـن الضـرر الـذي سـيصيبنا بعـده!

هكـذا، مـا إن انتصـرت الثـورة الإيرانيّـة فـي ١٩٧٩، وبـدأت المسـيرة السـعيدة نحـو «مـلء الأرض عـدلًا» (وهـو مـا تُتَوِّجُـهُ عـودة الإمـام الغائـب)، حتـى اسـتُحضر شـيطانان، لا واحِـدٌ، أوّلهمـا كبيـر أميركـيّ وثانيهمـا صغيـر إسـرائيليّ، شـيطانان لا يُضمَـن إلّا بطردهمـا، وبقتلهمـا إن أمكـن، النّصْـرُ النهائـيّ للثـورة السـعيدة.

لكـنّ «بيـت العـزّ» الـذي وصفتـه فايـزة أحمـد لا ينهـض فحسـب علـى سـعادة اللـه والعائلـة الطـاردة للشـيطان ولذّتـه. فهـي حيـن غنّـت أغنيتهـا هـذه فـي احتفـالٍ امتـلأت صفوفـه الأولـى ببعـض رمـوز العهـد الناصـريّ، أضيـف إلـى الأغنيـة الأصليّـة سـطر يقـول: «اللـه اللـه علـى عروبتنـا وعلـى ريّسـنا مُجَمِّـعِ شَـملِنا».

هنـا، ضجّـت القاعـة مرّتيـن بتصفيـق لـم تحـظ باقـي الأغنيـة بمثلـه.

فـ «الوطـن» (ممثّـلًا بــ «عروبتنـا» و«ريّسـنا») ضُـمّ إلـى ثنائـيّ «اللـه» و«العائلـة»، فبتنـا أمـام ثالـوث مـن «اللـه والوطـن والعائلـة». و«الوطـن» حينـذاك كان يطلـب طـرد الشـيطان بإلحـاح لا يَقِـلُّ عـن الإلحـاح الإلهـيّ والعائلـيّ علـى طـرده. ففـي أواسـط السـتّينيّات، كان عبدالناصـر قـد أتـمّ إرسـال سـبعين ألـف جنـديّ إلـى اليمـن، حيـث يَقتُلـون ويُقتَلـون. وكانت سياسـة «عـدم الانحيـاز» قـد انتهـت عمليًّـا إلـى معادلـة تقـول: نأتـي بالسـلاح مـن الاتّحـاد السـوفياتيّ وبالقمـح مـن أميـركا. وإلـى مخابـرات زكريّـا محيـي الديـن وصـلاح نصـر التـي كانـت ثقيلـة جـدًّا علـى الصـدور، كانـت قـد انقضـت سـنوات قليلـة علـى «هزيمـة الانفصـال» السـوريّ التـي شـكّلت الضربَـةَ القاصمـة الأولـى لعبدالناصـر، وذلـك قبـل سـنتين فحسـب علـى هزيمـة حزيـران (يونيـو) ١٩٦٧ التـي عُـدّت الضربـة القاصمـة الثانيـة، وربّمـا القاضيـة.

هكـذا، كانـت تتكاثـرُ الشـياطين التـي تحلّـق فـوق رؤوس المصريّيـن، وأكثـر منهـا كانـت الشـياطين التـي «توسـوس» فـي صدورهـم وتدعوهـم إلـى اللـذّة بعيـدًا مـن السـعادة الأبويّـة البائسـة.

فـكأنّ أغنيـة فايـزة أحمـد، والحـال هـذه، حفـرت «اللـه والوطـن والعائلـة» فـي قلـب الأيديولوجيـا العربيّـة العريضـة، وفـي متـن جناحهـا «التقدّمـيّ» تحديـدًا. وهـي لئـن تأخّـرت ثلاثـة عقـود عـن ولادة «حـزب الكتائـب اللبنانيّـة» الـذي رفـع عاليًـا ثالـوث «اللـه والوطـن والعائلـة»، بقـدر مـن تزميـن «الأب والابـن والـروح القـدس»، فإنّهـا منحـت هـذا الثالـوث قـوّةً لا يملـك مثلهـا حـزبٌ لبنانـيّ متواضـع القـدرات. يكفـي أنّ إذاعـة «صـوت العـرب» كانـت تُكثـر بـثّ أغنيـة فايـزة أحمـد مثلمـا غُنّيـت فـي الاحتفـال الـذي كـرّم «عروبتنـا» و«ريّسـنا». أمّـا عنـد جراميـز «الكتائـب اللبنانيّـة»، فبقـي الأمـر كتابـة علـى الحيطـان بحبـر ضعيـف.

بأسمائنا نقاتل...

في أواخر الخمسينيّات وأوائل الستينيّات، كانت أسماء رفاقي في الصفّ الابتدائيّ هي التالية: حسّان وأكرم وعادل وبسّام ونوفل وندى ورابحة وهند.

تلامذة تلك المدرسة كانوا كلّهم من الروم الأرثوذكس. آباؤهم لم يراودهم أيّ شكّ في أنّهم عرب. النسبة إلى فينيقيا أثارت سخريتهم. ومع أنّ أكثر أولئك الآباء كانوا يمقتون العروبة السياسيّة، ممثّلةً في الناصريّة، تباهى بعضهم بأصول عربيّة يرجح الخرافيّ فيها على الفعليّ.

الصفوف الأخرى لم يختلف تلاميذها كثيرًا، ذاك أنّ الغلبة الكاسحة كانت لأسماء عربيّة مُعَلمَنة، أسماءَ لا تنكمش مسيحيًّا إلى بطرس أو بولس، ولا تنفلش عربيًّا بما يقود إلى أحمد ومحمّد. الأمر لم يخلُ بالطبع من ميشال هنا وطنّوس هناك، لكنّه ظلّ استثناء على قاعدة تتعالى على الجهر بالهويّة الدينيّة أو الطائفيّة.

آباؤهم الذين سمّوهم على هذا النحو لم يكونوا هم أنفسهم هكذا. ففي جيل الآباء، لم تظهر غلبة كاسحة لأسماء بعينها. ما ساد عهدذاك كان أقرب إلى تعادل بين قائمتين: واحدة تضمّ جرجي وحنّا ونقولا، وأخرى تَشْمُلُ راغب وراشد ونجيب وهاني وخليل.

أغلب الظنّ أنّ مناخًا جديدًا كان يَلْفَحُهم، مناخًا ولّده الاستقرار النسبيّ للدولة والوطنيّة اللبنانيّتين بعد الاستقلال، مصحوبًا بحدّ من العروبة، ثقافيّ لا سياسيّ. ومع بدايات التبلور الذي أصاب «طريقة الحياة» ووسّع مساحات الاشتراك، جعل التوازن الذي عرفته الأسماء ينقلب. كتبُ القراءة والمحفوظات، حيث رياض يلعب في الكرة وسمير يشتري من الدكّان، كانت زاخرة بأسماء تصلح للتقليد.

كذلك، رفد التحوّلَ هذا ما يفدنا من مصر: فالآباء المتعلّمون نسبيًّا، فضلًا عن تعلّقهم بكتابات اللبنانيّ جرجي زيدان في تاريخ العرب، اهتمّوا بالمنفلوطي والعقّاد، وبدرجة أقلّ بطه حسين «الصعب». وكانت المجلّات والأفلام والأغاني المصريّة تزوّدهم أسماءَ لم تكن غريبة بالكامل، لكنّها لم تكن شائعة جدًّا: فباسل وإيهاب وشريف ونبيل وأكرم، وكذلك زكيّة وسنيّة وفاتن وشادية وبهيّة، صارت، في القاهرة نفسها، تنافس بكفاءة محمود وأحمد ومصطفى، كما تهدّد فاطمة وخديجة وعائشة.

ما مثّله تغيّر الأسماء في صفّي، كان يعكس مزاجًا أعرض لا بدّ أنّه استوقف آباءنا. فقبل الاستقلال، توزّعت أسماء رؤساء الجمهوريّة على حبيب (السعد) وأيّوب (ثابت) في مقابل شارل (دبّاس) وإميل (إدّه) وألفرد (نقّاش) وبترو (طراد). أمّا ما بين الاستقلال والحرب الأهليّة، فظهر شارل (حلو) وحيدًا في مواجهة بشارة (الخوري) وكميل (شمعون) وفؤاد (شهاب) وسليمان (فرنجيّة).

وما دمنا نستخدم السياسيّين للقياس، فإنّ ساسة المدن ذات الأغلبيّات السنّيّة في سوريا ولبنان، كانوا في أكثريّتهم الساحقة يحملون أسماء عربيّة مُعلمَنة استهوت مُبَكّرًا عائلات الأعيان المدينيّين. هنا، لا مكان أصلًا لإغراء الأسماء الأجنبيّة التي انجذب إليها بعض المسيحيّين. ولربّما وجدت هذه الوجهة تعزيزها في مناهضة «التتريك» بعدما أطلق انقلاب ١٩٠٨ الدستوريّ رغبات في التغيير والتجدّد. فما هو دينيّ من الأسماء تتبدّى دينيّته مخفّفة جدًّا أو منفكّة عن أصولها في الدين. يصحّ ذلك في عبدالرحمن (الشهبندر) وهاشم (الأتاسي) وسعدالله (الجابري) و[المفتي] عبدالحميد (كرامي). عمومًا، يبقى هذا الميل واضحًا في أسماء رضا ورياض وسامي (الصلح) وصائب (سلام) ورشيد (كرامي) وجميل (مردم) وإبراهيم (هنانو) وإحسان

(الجابـري) وشـكري (القوّتلـي) وناظـم (القدسـي) ورشـدي (الكيخيـا) وصبـري (العسـلي) وأكـرم (الحورانـي). أمّـا اسـم خالـد (العظـم) فاسـتحوذت عليـه العروبيّـة السـوريّة المسـحورة بفاتحهـا خالـد بـن الوليـد، وإن بقيـت تخبّـئ فيـه إسلامًا كثيـرًا. هكـذا، أضحـى اسـمٌ كٱسـم تـاج الديـن (الحسـني)، الرئيـس السـوريّ فـي أوائـل الأربعينيّـات، غريبًـا وأقلّيًّـا. وبالمثـل، تراجـع اسـتخدام الأسـماء العربيّـة المكيَّفـة تركيًّـا، أكانـت مـن فئـة مدحـت وشـوكت وعصمـت أو مـن فئـة فخـري وصدقـي وعزمـي.

ولئـن كان زعيـم المسـيحيّين السـوريّين الأوّل فـارس (الخـوري)، فقـد تشـارك المسـلمون والمسـيحيّون، فـي سـوريا ولبنـان، فـي الأسـماء ذات المنبـت الدينـيّ، كإبراهيـم وأيّـوب وسـليمان وداوود وعبداللـه وموسـى وعيسـى ويوسـف والياس، فيمـا تعـدّت الشـراكة ذلـك النطـاق الدينـيّ فـي أسـماء النسـاء التـي تصدّرتهـا أسـمى وهـدى وليلـى وثريّـا ومـي وسـلمى ونجـاة وعليـا، وبالطبـع مريـم.

ويجـوز الظـنّ بـأنّ المناطـق الصافيـة طائفيًّـا فـي الأريـاف بقيـت علـى درجـة أعلـى مـن نقـاء الأسـماء المذهبيّـة، فعلـي وحسـن وحسـين وجعفـر وعبـد الحسـن وعبـد الحسـين، وكذلـك فاطمـة وزينـب، بـدت فـي الجنـوب اللبنانـيّ الشـيعيّ أشـدّ تحصينًـا ومتانـة. وأمتـن منهـا كانـت أسـماء أجـود وشـكيب وفنـدي التـي تسـمّى بهـا الـدروز حصـرًا. بيـد أنّ الاختراقـات الجزئيّـة كانـت تحصـل علـى جبهـات متفاوتـة عـدّة: فالناصريّـة نشـرت علـى نطـاق واسـع نسـبيًّا اسـمَي جمـال وناصـر تيمّنًـا بالزعيـم الـذي سـيم بطـلًا للعـرب، كمـا وسّـعت اسـتخدام اسـم خالـد الـذي يجعـل أبـاه أبـا خالـد، وهـي كُنْيَـةُ عبدالناصـر. كذلـك، طرحـت الأحـزاب العقائديّـة، القوميّـة والشـيوعيّة، أسـماءها التـي تـدور حـول النضـال والجهـاد والكفـاح والفـداء والبسـالة والمجـد. وإذ بـدأ العروبيّون،

البعثيّون منهم والناصريّون، يستلهمون بضعة أسماء تعود إلى الجاهليّة والإسلام الأوّل، كعروة وأوس، أو رلى ولبنى، توغّل القوميّون السوريّون في تواريخ أبعد عادوا منها بسرجون وهنيبعل وأدونيس وتمّوز وأليسار، وربّما ارتكب الأكثر تشدّدًا بينهم اسم نبوخذ نصّر.

في المقابل، وهذا ما كان أوسع تأثيرًا، تأدّى عن التعلّم والتمديُن نوع من تجديد وإغناء للأسماء العربيّة الأكثر تقليديّة. وفي بيئة المتعلّمين والمحامين وأساتذة المدارس بصورة أعمّ، ومدرّسي العربيّة منهم خصوصًا، توسّعت التسمية لتضمّ أسماء أقلّ أُلْفَةً، وإن استعاد معظمها وجوهًا تراثيّة، كوضّاح وبشّار وحاتم وحازم ونزار. لقد كان استعراض المعرفة باللغة وبالتاريخ حاسمًا هنا. ثمّ في موجات تالية، وعلى مراحل، شاعت أسماء رشا ولمى وشذا ونادين ودارين للفتيات، وجاد ورامي للصبيان. وممّا كانت له دلالته أنّ واحدًا من أبرز الاعتبارات التي حكمت اختيار الأسماء الأخيرة جمعُ أكثرها بين عروبتها اللغويّة وسهولة لفظها بلغات أوروبيّة. وإلى ذلك، أطلق مسيحيّون على شيء من الليبراليّة أسماء موصوفة بالإسلاميّة على أبنائهم. هنا، احتلّ اسم عمر الصدارة تبعًا لإجماع على كونه «جميلًا» وسهلًا على النطق الأجنبيّ بشهادة تجربة عمر الشريف.

وتقصُّدُ الجمال في الاسم، أو تقصُّدُ إيصال معنًى مرغوب أو امتلاك إيقاع معيّن، نقلةٌ وانعطاف عن التزام المعطى الخام، لكنّ في ذلك أيضًا جرعة من الفرديّة التي باتت تتدخّل في التسمية: فالمُسمّي غدا يفكّر ويقارن وينحاز ويوسّع بيكار خياراته من دون أن يكتفي بالتعامل مع التسمية كمجرّد «واجب» أو «اضطرار» آليّ.

في تلك الغضون، ولدت، أواخر الستّينيّات، زعامة الزعيم الفلسطينيّ ياسر عرفات الذي كنّى نفسه بـ «أبو عمّار»، مستعيدًا، في صيغة

عكسـيّة، اسـم الصحابـيّ عمّـار بـن ياسـر. وفـي ١٩٧٠، ظهـر الرئيـس المصريّ أنـور السـادات علـى العالـم بوصفـه «محمّـد أنـور السـادات». مثـل هذيـن التعـرّف إلـى النفـس والتعريـف بهـا، كانـا جديديـن. لكنّهمـا، إلـى ذلـك، شـكّلا مقدّمَـةً لمعرفـةٍ كمـا كانـا تتمّـةً لواقـع: أمّـا المعرفـة، التـي لـم تكـن متحصّلـة للكافّـة مـن قبـل، فمفادهـا أنّ كلّ مسـلم اسـمه محمّـد. وأمّـا الواقـع، فـأنّ نُـذر الحـرب الأهليّـة تتجمّـع فـي سـماء المنطقـة.

والحـال أنّ هـذه الحـرب التـي اندلعـت فـي لبنـان ثـمّ لحقتها ثـورة إيران، ومـن بعدهمـا انفجـرت الأسـلمة التـي تعـدّدت مصادرهـا، مـدّت يدهـا إلـى الأسـماء فأعملـت فيهـا الفـرز والتنقيـح. فـي لبنـان، غـدا التواصـل بيـن المناطـق والجماعـات أصعـب ممّـا كان، فيمـا راح يتفـرّع كلّ مـا هـو مركـزيّ وجامـع، مـن العاصمـة إلـى الأسـواق إلـى الجامعـة الوطنيّـة. فـي سـوريا، تعاظـم بنـاء المعـازل الفاصلـة بيـن السـكّان، وحـلّ مزيـد مـن التديّـن والأسـلمة بمـا يواكـب قتـل الإخـوان المسـلمين ويغطّيـه.

وظـلّ ملحوظًـا أنّ صـدّام حسـين، الـذي ركـب موجـات «الكرامـة العربيّة» كلّهـا، احتـلّ رقعـة ضخمـة مـن أسـماء العراقيّيـن، وأيضًـا مـن أسـماء السـوريّين المقيميـن فـي مناطـق تحـاذي العـراق. أمّـا حافـظ الأسـد، متسـوّل الكاريزمـا، فلـم يغـدُ اسـمًا لسـوريّين كثيريـن، وطبعًـا لـم يُسـمِّه غيـر السـوريّين. ابنـه باسـل غلبـه علـى هـذا الصعيـد، وكان قـد رحـل.

وبيـن أواسـط السـبعينيّات وأواسـط الثمانينيّـات، هاجـر الكثيـرون مـن رفـاق صفّـي القديـم، لكنّهـم أضافـوا إلـى هجـرة أجسـادهم هجـرةً عبـر الأسـماء التـي أطلقوهـا علـى أبنائهـم وبناتهـم. ففـي هـؤلاء، راح يغلـب جـون ومايـكل وكارول الأسـماءَ الأخـرى، وإن تخلّلهـا اسـم الأب العربـيّ بعـد تغريبـه. فـإذا كان رشـيد، صـار حفيـده المخلِّـد لذكـراه ريتشـي، وإذا كان حنّـا أو جرجـس فـإنّ جـون وجـورج همـا الوريثـان الواقفـان، ولـو

كانا طفلين، بالمرصاد. القليلون من أبناء رفاق الصفّ الذين تزوّجوا وأنجبوا تطرّفوا أكثر، فسمّوا أنجي ولوليتّا وبوليتّا، واتّسعت بيوتهم للتركيب فازدهرت فيها أسماء جان بيار وجان فرانسوا، فضلًا عن أنتوني وجو. أنا سمّيت ابنتي ندى. هي سمّت ولديها ريمِي ولِيْلا.

وهذا ما عنى في البيئة المسيحيّة الأعرض تحوّلًا بارزًا. فتقليديًّا، كانت العائلات الأغنى والمالكة للأرض والوجاهة تجنح إلى الأسماء العربيّة، وتفاخر بأنسابها المزعومة، فيما تسمّى بالأسماء المسيحيّة التقليديّة أولئك الأفقر والأوثق اتّصالًا بالكنيسة وتعليمها ورعايتها، لا سيّما بين الموارنة الحاضنين تقليدًا فلّاحيًّا مناوئًا للإسلام ومناهضًا للعثمانيّة ولملّاكي الأراضي المسيحيّين. وفي موازاة المصالحة هذه، جرت مصالحة أخرى بين الموارنة والروم الأرثوذكس، فالتقى الجميع، طبقاتٍ ومذاهب، عند قوائم مشتركة من الأسماء معظمها غربيّ المصدر وبعضها مسيحيّ ومحلّيّ بحت.

وفي ظلّ الحكم المديد للبعث السوريّ، وتمدّده إلى لبنان، خصوصًا إلى طرابلس الأشدّ معاناة لوطأته، جعلت تتكاثرُ بين السنّة السوريّين والطرابلسيّين أسماء موغلة في التاريخ الإسلاميّ لا تقف عند حذيفة وصُهيب. كذلك، يبدو، بحسب ملاحظة لأحد الأصدقاء السوريّين، أنّ العلويّين بدأوا قبل سنوات، في بحثهم عن تمايزٍ ما، يُكثرون من تسبيق الاسم بال التعريف التي تُكتب من دون أن تُلفظ. هكذا، تزايدت أسماء المثنّى والليث والكميت والمهلّب والمرتضى. وليس ثمّة ما يوحي، لا سيّما في ظلّ حزب الله، أنّ أسماء عليّ وأبنائه وأنساله في تراجع بين الشيعة. الراجح أنّ العكس صحيح.

في حالة المسيحيّين، بدا أنّ الإسلام يعاود الاستحواذ على العربيّة التي اشتغل مثقّفوهم منذ منتصف القرن التاسع عشر على تحريرها

مـن اسـتحواذه. العربيّـة «لغـة القـرآن» إذًا. الباقـي تفاصيـل والباقـون ضيـوف ثقـلاء. لقـد اسـتنتجوا أنّ لا مـكان لهـم فيهـا، فإمّـا الانكفـاء والاحتمـاء بشـربل وجرجـس، أو الهجـرة إلـى إيلـي أو بيـار واسـتكمال التطابـق مـع «رَبْعـه».

فـي حالـة المسـلمين، علـى تعـدّد مذاهبهـم، بـدا الأمـر مختلفًـا. فـإذا صـحّ أنّ الإسـلام الأوّل طـوّع القبيلـة وصالحهـا بشـروطه، فقـد آن أوان اسـتحواذ القبيلـة عليـه مـن جديـد. لقـد أعيـد اكتشـاف عمـر وعثمـان وعلـيّ، لا بوصفهـم خلفـاء راشـدين ومسـلمين أوائـل، بـل كقـادة ألويـة ومحـاور فـي حـرب تخيّلوهـا مذهبيّـةً طاحنـة.

كلّ أشـكال المكبـوت تعـود بقـوّة وثقـة. بعضهـا يمسـك بالسـيف وبعضها بجـواز السـفر، لكنّهـا جميعًـا تهمـس فـي آذاننـا مـا تهمسـه السـاحرات الشـرّيرات، أو مـا يقولـه شـبح الوالـد لهاملـت: «بأسـمائكم قاتلـوا. بأسـمائكم انقتلـوا». ونحـن، الذيـن نفـدي «بالـروح، بالـدم»، هـل نبخـل بالاسـم؟

في مديح السندويش...

فـي سـنةٍ مـا مـن سـنوات المراهقـة، ينعطـف واحدنـا، غالبًـا مـع شـلّة مـن أصحابـه، إلـى محـلّ يبيـع السـندويش: «واحـد فلافـل مـن فضلـك» أو «واحـد شـاورما».

طالـب السـندويش لا يكـون يعـرف، فـي تلـك اللحظـة، أيّـة فعلـة يفعـل. لا يكـون يعـرف أنّـه يتمـرّد، وأنّـه، فـي حـدودٍ مـا، يمـارس تحـرّره الأوّل مـن سـلطة العائلـة ونظامهـا الأبـويّ. هنـاك، فـي هـذه السُـلطة البيتيّـة، يضيـق الخيـار: الوجبـة المطبوخـة معروفـة وجاهـزة،

ومـا عليـك سـوى أن تـأكل. وهـي مطبوخـة بالطريقـة المألوفـة فـي بيـتٍ بعينـه، بحيـث تقتصـر الحرّيّـة علـى رشّـة ملـح إضافيّـة أو رشّـة بهـار.

هنـا، فـي حضـرة السـندويش، سندويشِـنا المشـرقيّ مـا قبـل الصناعـيّ علـى الأقـلّ، أنـت السـيّد المطـاع. الصحـون عديـدة بقـدر مـا هـي مختلفـة. فـوق هـذا، يسـتطيع طالبـه أن يُحـدِث فيـه تحويـلات نوعيّـة تُنقـص بعـض المـوادّ أو تزيـد مـوادّ أخـرى: «بـلا مَايونيـز مـن فضلـك» أو «زدْ لـي البنـدورة والزيتـون إذا سـمحت».

وزبائـن المحـلّ لا يعـرف بعضهـم بعضًـا بالضـرورة، كمـا أنّ لقاءهـم هناك لـم يـأتِ نتيجـة موعـد. فالمؤاكلـة التـي يتشـاركون فيهـا لا تفتـرض صلـة قربـى، ولا حتـى صلـة معرفـة، وإن كانـت هـي نفسـها قابلـة لأن تتسـبّب فـي تعـارُف عابـر بيـن الزبائـن. وهـذا عكـس حـال البيـت تمامًـا، حيـث «زبائـن» الطاولـة معروفـون سـلفًا. إنّهـم أفـراد العائلـة الذيـن ينضـمّ إليهـم أحيانًـا ضيـوفٌ هـم، بدورهـم، معروفـون. وفـي ذلـك، رابطـة وولاء «حزبيّـان» عبّـر عنهمـا قـول قديـم: «مَـن أكل علـى مائدتيـن اختنـق»، إذ «الخبـز والملـح» علـى الطاولـة يجمعـان ويوحّـدان، وقـد يفـرزان آخريـن «منشـقّين» عـن جماعـة صغـرى مؤتلفـة القلـوب.

فمـن دون الطاولـة لا توجـد العائلـة ولا يكـون الاجتمـاع العائلـيّ الـذي حظـي ويحظـى بنعـوت ورديّـة ومتعاليـة لا حصـر لهـا، ذاك أنّ الطاولـة البيتيّـة إنّمـا تشـدّنا، بيـن مـا تشـدّ، إلـى المشـترك بيننـا، وهـو روح الماضـي الـذي يُصـوَّر واحـدًا مشـبعًا بالذكريـات الجامعـة، فيمـا يشـدّنا السـندويش إلـى الانتقـال والتحـوّل والجديـد، وإلـى التخفّـف مـن كلّ إرث معطًـى أو مُتوهّـم. هكـذا، يسـتطيع واحدنـا، فـي مقابـل حصريّـة البيـت، أن يحمـل سندويشـه إلـى العمـل أو النزهـة أو أيّ مـكان آخـر، تـاركًا وراءه الصحـن والملعقـة والشـوكة والسـكّين. فلـم يكـن مـن

المصادفات بالتالي أنّ إنكلترا الثورة الصناعيّة، في القرن الثامن عشر، هي التي أنجبت السندويش في شكله الحديث، وقد أنجبته كائنًا سهلَ الحمل ورخيص الثمن، يلبّي احتياجات مجتمع بدأت الصناعة تفصله عن أمكنة السكن والقرابة الأصليّين.

ثمّ إنّ طالبي السندويش يأكلون واقفين، وأحيانًا ينقّلون أقدامهم في خطًى صغيرة داخل المحلّ فيما هم ينتظرون سندويشهم، أو يتفقّدون بأعين فضوليّة تلك الصحون الصغيرة للكبيس والحَرّ ويضيفون منها إليه. وهم، في مرّات، يفعلون هذا بقدر من التفنّن أو التراقص المضغوط أو التأمّل والتفكّر. بهذا، تراهم يعاكسون مبدأ الجلوس المُلزِم حول المائدة، بما لها من هيبةٍ ونفوذ وبما تستدعيه من نظام لا بدّ من الإذعان له. وربّما للسبب هذا، نرى النساء، وهنّ الأكثر امتثالًا في المجتمعات الذكريّة، أقلّ ارتيادًا لمحالّ السندويش وأشدّ رضوخًا لمعايير المائدة، علمًا أنّهنّ هنّ ضحاياها.

والنظام والتراتُب تحصيلٌ حاصلٌ في هذا كلّه: فالمائدة، التي كرّمها القرآن بأن أطلقها اسمًا لإحدى سُوَره، هي الطاولة وما عليها من طعام. ونعرف، في المفاوضات بين الدول المتنازعة، أيّ جهد يُبذل للاتّفاق على شكل الطاولة بوصفه من تعابير توازن القوى القائم. أمّا المأدبة، وهي أعلى مراتب المائدة وأغزرها مادّةً وأوسعها مَدعوّين، فتجمعها بـ «الأدب» و«التأدّب»، وهما نظامان، قَرَابَةٌ لغويّة لا لبس فيها.

وإذ يجافي الأكلُ السندويشيّ النظامَ والطقس، فإنّ الطقس الأبرز الذي يتحدّاه هو المائدةُ نفسها، تلك التي تملك، أقلّه في اليهوديّة والمسيحيّة، رمزيّة دينيّة معروفة. وأعياد الفصح والقيامة وأوّل قربانة، وكذلك العشاء الأخير، شواهد على ذلك. لقد رأى أستاذ

«العهد الجديد» إن. تي. رايت مثلًا أنّ «المسيح حين أراد أن يشرح لتلاميذه ما يعنيه موتُه الوشيك لم يقدّم لهم نظريّة، بل قدّم وجبة طعام». ويزخر إنجيل لوقا خصوصًا بأخبار الطاولات والموائد، بحيث لا يكادُ المسيح يظهر إلّا ذاهبًا إلى وجبة طعام أو عائدًا من وجبة أو يتناول وجبة.

وبالفعل، ثمّة عائلات مؤمنة لا تباشر الأكل إلى المائدة إلّا بعد صلاة، وعائلاتٌ محافظة لا تباشره إلّا بعد أن يفعل البطريرك، ربُّ الأسرة، الذي غالبًا ما يجلس إلى رأس الطاولة تقابله الأمّ إلى الرأس الآخر. بل هناك عائلات أشدّ محافظة، وإن قلّ عددها اليوم، تتوقّف عن الأكل حين يتوقّف البطريرك وإن لم تفرغ منه، أو تطيل الجلوس إلى المائدة، وإن امتلأت بطونها، إلى أن يُنهي هو أكلَه. وفي ثقافات الإسلام، تقول العبارة الشائعة، التي يُظَنّ خطأً أنّها حديث نبويّ، «لا سلام على طعام»، فتفترض نوعًا من الانكباب، بل التفرّغ، لتلك المهمّة.

ثمّ إنّ الوجبة البيتيّة محكومة بمواعيد تناول الطعام التي تسود النهار وتؤطّرُه. فالفطور يسبق بدء العمل، والغداء يسبق القيلولة، والعشاء يسبق النوم. أمّا السندويش الذي لا يسبق شيئًا ولا يلي شيئًا، فالجوع وحده ما يقود إليه. لكنّه، مع هذا، بل رغم هذا، يكسر مبدأ «الأكل للأكل»، فلا يزعم لنفسه أيّة مركزيّة وأيّ تقديس تُمليهما أولويّة الجوع على سائر الاعتبارات. ففي محالّ السندويش، يتكرّر مشهد الخبز وهو يُنقل ملفوفًا بالأكياس والأوراق والنايلون، من الخارج إلى داخل المحلّ، ثمّ يُكوَّم بكمّيّات هائلة على الأرض، تمامًا كما تُنقل أيّة سلعة «عاديّة» أخرى وتُكوّم. وكثيرًا ما يُسمع بعض طالبي السندويش وهم يطلبون «نصف رغيف فقط»، غير عابئين بالإهمال والنبذ اللذين قد يعانيهما النصف الآخر. فهنا، إذًا، تنكسر

عُلويّة الخبز الذي «هو جسدي»، بحسب المسيح، والذي طويلًا ما تعاون الدين والفقر والعائلة على رفعه إلى سويّة «العيش»، على ما يسمّيه المصريّون، أو الصلاة عليه، أو تقبيله إذا سقط أرضًا ورفعه إلى الجبين.

والنظام إيّاه يداخل الوجبة البيتيّة بأشكال عدة أخرى، فيبوّب الطعام وينظّم تناوله، كأنْ يثبّت السَلَطة «الحتميّة»، قبل الصحن الرئيسيّ أو بعده، أو أن يختم الوجبة بالحلوى أو الفاكهة أو الأجبان، قبل تناول القهوة. وهذا لا يعني، في المقابل، أنّ السندويش أحاديٌّ يُخلّ بالتعدّد، فهو شديد الحرص على تمثيل البندورة والخيار والكبيس، إلّا أنّه أشبه بقِرص أكلٍ مُدْمج يتعدّى العناصر المبعثرة إلى تركيبها، ويختصر العمليّات الكثيرة والتفصيليّة في خلاصتها العمليّة. وذلك فضلًا عن أنّ الوجبة عمومًا موزّعة على أطباق فيها الرئيسيّ وفيها الثانويّ، حيث ترفع اللغة الإنكليزيّة كلّ طبق إلى سويّة الـ course ـ تلك المفردة التي تنضح بحمولة مهيبة. لكنْ، رغم هذا التنظيم الدقيق، فهي وجبة مجّانيّة لا يُدفع ثمنها. إنّها علامة حبّ عائليّ، أو علامة كرم حيال صديق أو ضيف، وهي بالتالي تتعالى على التسعير والتثمين. هذا مع أنّ طبخ النساء، كما تقول النسويّات بحقّ، إنّما يُستَهلك من دون أن يُسوَّق، بحيث تدفع النساء ـ الأمّهات، اللواتي لا يتقاضين ما يقابل جهدهنّ، ثمن هذا الحبّ وتلك الضيافة!

أمّا السندويش فيُعفي صاحبه من ذلك الحبّ، إذ هو تعريفًا سلعة يُدفَع ثمنها قبيل تناولها أو بُعيده. وفي هذا المعنى، فإنّ الأكل في البيت يطفّل الآكلَ، فيُشعره بـ «دفء العائلة» ويعرّضه لمبالغات الأمّ وتعويضها الكلاميّ عن قهرها عبر استعراضها التضحيات التي تكبّدتها كي تطبخ هذه الطبخة بعينها «لأنّكم

تحبّونها». لكنّ السندويش، في المقابل، ينضّج آكله إذ يُحلّه من هذه الالتزامات والتبعات جميعًا ولا يقيّده بشيء.

وهذه معانٍ ودلالات تَطاوَلَ على بعضها السندويش الجديد الذي تبيعه «السوبرماركت» والمقاهي الأميركيّة كـ «ستاربكس»، والتي تقدّمه جاهزًا وملفوفًا لا يقبل التعديل وإعادة النظر. مع ذلك، فالتبادل لا يسلك خطًّا واحدًا بل خطّين، إذ نجد بعض المآكل كـ «الهمبرغر» وقد كيّفت نفسها مبكرًا مع السندويش، فيما تزعم سَلَطات موسّعة كـ «الكلوب سندويش» أنّها تنتسب إليه اسمًا ومضمونًا. وممّا لا شكّ فيه أنّ النسَب الجامع بين «البيتزا» والسندويش سبب قويّ وراء ذيوعها وانتشارها الكونيّين، إن لم يكن هو السبب الأقوى.

وهذا جميعًا لا يلغي أنّ ثورة السندويش إصلاحيّة وليست راديكاليّة. فهو، حتى لو تحوّل إلى صناعة كبرى، لا يستطيع، لألف سبب وسبب، الحلول محلّ العائلة وبيتها. أمّا نصير السندويش، إذا كان معتدلًا في حماسته، فيعرف أنّ طرحه بديلًا كاملًا عن الطاولة انقلابٌ سخيف على واحد من نتاجات التمدّن، انقلابٌ كفيل بأن يجعل المعلّم نوربرت الياس يتململ في قبره. لكنّ انكماش البيت وضمور العائلة وتعاظم التَمَدْيُن والانسلاخ لا بدّ أن توسّع ذلك الهامش الذي يقيم فيه السندويش، والذي يوفّر للمراهقة فرصتها كي تنجز ثورة لا يخالطها الدم.

الفنّانون والفنّانات أيضًا... يموتون!

كنت أظنّ أنّ فريدريك نيتشه سهّل علينا الأمر حين قال إنّ الله مات. فما دام الله يموت فكلّنا إذًا نموت. لن يبقى زعماء خالدون ولا رسالات خالدة. وهذا ليس رجاء ولا إبداء رغبة، فضلًا عن أنّ الفيلسوف الألمانيّ لم يقصد أصلًا الموت بالمعنى البيولوجيّ.

ما عناه نيتشه أنّ فكرة الحقّ المقدّس باشرت موتها منذ عصر التنوير: موتها كناظمٍ للعالم وكمرجعيّة للأخلاقيّة والقيم والفلسفة والعلوم وكلّ شيء آخر. لقد انتهى ذاك المقدّس بوصفه بوصلةً لوجود الأوروبيّين. فنيتشه، وهو بالطبع ملحد، لم يقصد أنّ هناك إلهًا عاش في هذه الفانية، ثمّ غادرها وغادرنا. وهو، على رغم إلحاده، لم تُسْعِدْه النتيجة التي أعلنها، إذ رأى أنّ انحسار الدين والإيمان وغياب مرجعيّة أخلاقيّة عُليا سوف يزجّان العالم في فوضى لا تُحمد عقباها، وأنّ «ثقافتنا الأوروبيّة برمّتها إنّما تنحو مَنْحًى كارثيًّا».

ومهتديًا بالمعلّم نيتشه، وكنت يومذاك ناشطًا فيسبوكيًّا، جازفتُ بقول مفاده أنّ فيروز «راحلة»، أو أنّني أحسّ بأنّ وصف «راحلة» يصفها. وقد أكون مخطئًا أو مصيبًا في حدود التوقّع والتقدير، لكنّ لي الحقّ في أن «أحسّ» ما أحسّه، ذاك أنّني لا أرى اليوم شابًّا يحبّ صبيّة «عالطاحونة» أو «بأيّا نبع، بأيّا عين»، هذا إن أمكن أصلًا أن نعثر على طاحونة ونبع وعين حتى في أريافنا. أمّا «مرسال المراسيل» فلم يمت في زمن الإيميل والواتسآب فحسب، بل مات في الذاكرات أيضًا قبل هذا الزمن. ومن غير أن أكون متفائلًا بمن قد يحلّون محلّ فيروز أو يرثونها، يجوز لي أن «أحسّ» أنّ موتًا ما يحيط بعالم أغنيتها، موتًا لم ينجح النجل زياد في بعث الحياة فيه إلّا جزئيًّا. وإن كان أمر ذلك العالم مجرّد نوستالجيا إلى الريف،

فإنّهـا باتـت نوسـتالجيا بـاردة ومبالِغـةً فـي انفصالها عـن مصدرهـا الأصلـيّ. لقـد باتـت نوسـتالجيا بـلا نوسـتالجيّين.

يومـذاك، حيـن ارتكبـتُ تلـك العبـارة الفيسـبوكيّة العابـرة، هنـاك مَـن استهجن وهنـاك مَـن اسـتنكر أن تُعامَـل فيـروز بمـا عومـل بـه اللـه. وأخيـرًا، وفـي مقالـة ثاقبـة، أعلمنـا الكاتـب السـوريّ فـارس البحـرة بـأنّ «جبهـة النصـرة» تسـامحت مـع بـثّ أغانـي فيـروز مـن دون غيرهـا، إذ إنّ أغانيهـا عديمـة الصلـة «بعوالـم اللهـو والعربـدة». لكـنّ البحـرة ذهـب خطـوة أبعـد، فقـارن، فـي حقـل العظمـة والتعالـي، «السـتّ» فيـروز بــ «السـيّد» حسـن نصراللـه. ومـا دامـت إحـدى البيئـات اللبنانيّة عُرفـت بشـعارها «فـدا صرمايـة السـيّد»، فقـد وُجـدت صحافيّـة تكتـب: «فـدا صرمايـة السـتّ».

وأن نكـون، نحـن البشـر الأحـرار مبدئيًـا، «فـدا صرمايـةٍ» مـا، فهـذا يبقـى مفهومًـا فـي عالـم السياسـة المنحطّـة، سياسـتنا الناهضـة علـى العصبيّـة والتبعيّـة والتزلّـم، حيـث «بالـروح، بالـدم، نفديـك يـا...». أمّـا أن يُطبّـق المبـدأ المذكـور علـى فنّـان أو فنّانـة، وإن كانـت «السـتّ» الأصليّـة أمّ كلثـوم نفسـها، فهـذا يقـول الشـيء الكثيـر عنّـا، قبـل أن يكـون عنهـا، ذاك أنّنـا فـي اسـتعدادنا الخصـب لأن نقايـض كراماتنـا الشـخصيّة بــ «كرامـةٍ» عليـا، نفـدي بحياتنـا «صرمايـة» صاحبهـا وصاحبتهـا، نكـون نعلـن أنّ معيارنـا الوحيـد للـولاء هـو ذاك الـذي يربطنـا بــ «الزعيـم» ـ زعيـم الجماعـة وصاحـب «القضيّـة»، وأنّنـا لا نملـك فـي تكريـم فنّـان أو فنّانـة مـن وسـيلة إلّا وسـيلة تزعيمـه أو تزعيمهـا علينـا. فالفنّـان والفنّانـة، إذًا، مثـل الزعيـم، ليـس مـن زمـن تنتهـي معـه صلاحيّتهمـا. همـا «خالـدان»، وإن لـم يبلغـا فـي مراتـب الخلـود مـا بلغـه زعيـم سـوريّ ابتُلـي بـه الزمـن فسـاوى نفسـه بــ «الأبـد». حتـى فنّانـة فـي رقّـة شـادية، التـي توفيـت قبـل أيّـام، ظهـر مـن يبـلّ يـده فـي بشـريّتها، فيربـط موتهـا

بعيشنا «في زمن الهزائم»، علمًا أنّ سنواتها الـ٨٦ ترشّحها للوفاة حتى لو كنّا نحصد أوسترليتز بعد أخرى.

وفي ثقافة من الأيْقَنَة كهذه، ليس الموت فيها موتًا عاديًّا ولا الحياة حياة عاديّة، كثيرًا ما تساعدنا (أو تردعنا) الصفات المنسوبة إلى الفنّان، خصوصًا الفنّانة، في مجتمع ذكوريّ. فهي كلّما انسحبت من واقعها كامرأة، وكلّما عبّرت عن حالة منزوعة الجنس، أو مضادّة للجنس، كانت أكثر قابليّة لتلك الأيْقَنة. وليس من دون دلالة أنّ معظم الكلام الذي يتناول أمّ كلثوم أو فيروز يميل إلى تنزيههما عمّا هو أرضيّ وإنسانيّ وحسيّ. وهذا، مثلًا، ما تردع عنه فنّانة كصباح التي مثّلت، في مظهرها كما في حياتها نفسها وفي تعدّد زيجاتها، حالة مضادّة هي أقرب كثيرًا إلى ما يفترضه الفنّ والنجوميّة في الفنّان النجم. هكذا، نفهم كيف أنّ «جبهة النصرة» يمكن أن تتسامح مع بثّ أغاني فيروز، إلّا أنّها وبالمطلق لا تتسامح مع بثّ أغاني صباح.

وليس من دون دلالة، في رفع الفنّانة إلى الذروة الإلهيّة، تطهيرها من التاريخ. فالحياة الشخصيّة، حياتها، تبقى محاطة بالغموض والألغاز، فيما يُدان من يتجرّأ على اختراقها أو أنسنَتها مثلما يُدان المتجرّئ على محرّم. ووفقًا للزميل أحمد شوقي علي، ظهر في ملحق جريدة «النهار» في ١٩٧٠/٢/١٥، ملفّ عن فيروز شارك فيه الشاعر الراحل أنسي الحاج، فماذا حصل بنتيجة الملفّ المذكور؟ «قابلته فيروز بانزعاج شديد، وهددت باعتزال الغناء بسببه (...) مدة ثلاث سنوات، إذا لم يتوقّف «حَمَلة الأقلام» عن تصويب سهامهم ضدّها، دون أن تسمّيهم»، ذاك أنّ مقال الحاج «أغضب زوجها عاصي، حيث كان الشاعر اللبنانيّ الراحل يتغزّل (...) بفيروز كامرأة وليس كمغنية، معلنًا عن ولعه الشديد بها».

والتطهير من التاريخ جهد لا يتوقّف عند حدّ. فلئن عثرنا في أغاني إديث بياف مثلًا على أسماء أمكنة باريسيّة، وفي أغاني بيلي هاليداي على ما يشير إلى العنصريّة في أميركا، فإنّ كلمات الأغاني الكلثوميّة، وإلى حدّ ما الفيروزيّة، لا تنطوي على أيّة دلالة، أي على أيّ مكان وزمان وعلاقة واجتماع. إنّها كلمات عن «الحبّ» كما يُفترض أنّه كان قبل مليون سنة، وكما يُفترض أنّه سيبقى بعد مليون سنة. وهذا الكلام المترفّع عن كلّ دلالة هو بالضبط الكلام الدينيّ العابر للأزمنة والأمكنة، والذي به تكتمل أيْقَنة الأيقونة. ولئن سمّت الأغنية الفيروزيّة أمكنة، فهي عواصم للمجد وللسيف وللغضب الساطع، إن لم تكن من صنف اليوتوبيّات المختَرعة كميس الريم وكفر حالا. والأمكنة، والحال هذه، ليست مسارح لتجارب أبنائها، بل مفاهيم مقدّسة تثقل على صدور الأبناء وأرواحهم، خصوصًا حين تكون دمشق «ذا السيف» و«بستان هشام» فيما هي جاثمة على من يئنّون في زنازين حكّامها.

وهذا ليس، في حال من الأحوال، دعوة إلى ألّا نحبّ أغاني أمّ كلثوم أو فيروز. فأنا، من جهتي، أحبّ الكثير من تلك الأغاني، بل أغنّي بعضها حين أفيق صباحًا، كما يفعل كثيرون، وإن كنت أفعل ذلك بصوت أشكّ في أن تنحطّ أصوات الآخرين إلى مستواه، ذاك أنّ الأغنية، والصلة بها، لا تُحاكَمان بمعايير عقلانيّة محض، وإلّا كيف نفسّر الاستماع إلى سميرة توفيق وإلهام المدفعي وهما يناشدان الرجل بلسان المرأة المعنّفة: «لا تضربني، لا تضرب | كسّرتْ الخيزراني»؟

لكنّ هذا لا يقود، في المقابل، إلى رفع الفنّان أو الفنّانة، أو رفع غيرهما أيًّا كان، إلى سويّة الآلهة والقادة ـ الآلهة. فلدينا فائض من هؤلاء الأخيرين، وهم موجودون كيفما التفتنا، من كيم جونغ إيل الكوريّ إلى بشّار حافظ الأسد السوريّ. فكيف حين نندفع في

العبـادة والتأليـه إلـى حـدّ الإقـرار بمـوت اللـه ورفـض الإقـرار بمـوت واحـد أو واحـدة مـن هـؤلاء؟

هل نحن شعب من الزجّالين؟

حيـن كنـت فـي العاشـرة، أو نحوهـا، سـمعت باسـم رشـيد نخلـة: إنّـه الشـاعر الـذي كتـب النشـيد الوطنـيّ اللبنانـيّ. بعـد سـنة أو سـنتين، عرفـت عنـه أنّـه والـد الشـاعر والكاتـب أميـن نخلـة. لكـنّ المعلومـة اللاحقـة التـي وقعـتْ علـيّ وقـع المفاجـأة فأنّـه كان زجّـالًا أيضًـا، بـل أحـد أبـرز زجّالَيـن عَرَفَهُمـا جبـل لبنـان فـي النصـف الأوّل مـن القـرن العشـرين. فهـو وأسـعد الخـوري الفغالـي الملقّـب بـ «شـحرور الـوادي»، وجـدّ المطربـة صبـاح، مؤسّسـا الزجـل كمـا نعرفـه.

إذًا، صاحب نشيدنا الوطنيّ ومُعلِن نشأتنا كبلد كان زجّالًا.

هذه حقيقة مُقلقة بذاتها.

لكـنّ المتفاجـئ الـذي كنتُـه مـا لبـث أن تنبّـه إلـى مـا يخفّـف المفاجـأة، ذاك أنّ النشـيد الوطنـيّ جـاء زجـلًا مكتوبًـا بالفصحـى: «سـيفنا والقلـم»، «فـي سـبيل الكمـال»، «أُسـد غـاب متـى سـاورتْنا الفِتـن»...

والنشـيد الوطنـيّ، مـن حيـث المبـدأ، ينـدرج فـي أدب المناسـبات، وإن كانـت مناسـبته كبيـرة وعامّـة بقيـاس الأعـراس والوفيّـات. لكـنّ الشـاعر والصديـق عبّـاس بيضـون كانـت لـه، فـي مـا خـصّ نشـيدنا، ملاحظـة وجيهـة تسـاعد علـى فهـم العلاقـة بيـن هـذا النشـيد وزجلنـا: «إنّ مـا كتبـه رشـيد نخلـة يخلـو كلّيًّـا مـن الأفعـال». وهـذا يعنـي بالتالـي خلـوّه مـن كلّ مـا يتحـرّك ويحـدث. إنّـه، إذًا، جوهـرٌ جوهـريّ. إنّـه جوهـرٌ فينـا.

هـذا مـا يُضعفـه كـ «مناسـبة»، إذ إنّ المناسـبة ترتبـط تعريفًـا بحـدث وفعـل مهمـا حـاول الفولكلـور مصـادرة الخـاصّ فيهمـا وإدراجهمـا فـي العـامّ.

نسـتنتج بالتالـي أنّ الزجّـال رشـيد نخلـة إنّمـا كتـب نشـيدًا زجليّـاً، وإن بالعربيّـة الفصحـى، مـن حيـث تغليـب الثابـت المفتـرض علـى السـائل المتحـرّك والمتغيّـر. فالزجـل، حتـى مـا يُتلـى منـه فـي المناسـبات، يسـتخدم المناسـبة (العـرس، المأتـم، الـولادة...) ذريعـةً كـي يؤكّـد أنّ المعنيّيـن بالأمـر، مثلهـم مثـل كلّ معنيّيـن بـكلّ أمـر، هـم أهـل الشـجاعة والكـرم وباقـي الصفـات الحميـدة، بمـا فيهـا، خصوصًـا، مـا انقـرض منهـا.

وتأتـي الثنائيّـات القاطعـة التـي ينهـض عليهـا السـجال الزجلـيّ (العقـل والقلـب، الماضـي والمسـتقبل...) لتمـارس مزيـدًا مـن التضييـق علـى الواقـع الـذي يغـدو مجـرّد فسـحة لاسـتعراض هاتيـن القيمتيـن المدفوعتيـن إلـى مـدى مطلـق، بـل خرافـيّ. هكـذا، يُختـزَل الواقـع ذاك إلـى تبسـيط بحـت. إلـى ثنائيّـة لا ثالـث وراء ضفّتيهـا.

لكـنّ سـمة أخـرى تعـزّز العمـق الزجلـيّ فـي نشـيدنا الوطنـيّ. صحيـح أنّ الأناشـيد العربيّـة حملـت معانـي مشـابهة فـي تأكيـد البسـالة والمـروءة والتضحيـة والفخـر وأسـطَرَة الماضـي وسـواها مـن المعانـي، غيـر أنّ نشـيدًا كالجزائـريّ، المثقـل بـ «مليـون شـهيد»، لا يكتفـي بهـذا، بـل يمضـي ليهـدّد بالثـأر، وبالاسـم الصريـح:

«يـا فرنسـا قـد مضـى وقـت العتـابْ وطوينـاه كمـا يُطـوى الكتـاب / يـا فرنسـا إنّ ذا يـوم الحسـاب فاسـتعدّي وخـذي منّـا الجـواب».

إلّا أنّ الأناشـيد العربيّـة، فـي تأثّراتهـا القوميّـة العريضـة، أدلجـت تلـك المعانـي وأدرجتهـا فـي خطـاب أوسـع مـن أبنـاء البلـد المعنـيّ أنفسـهم. بهـذا، عملـت تلـك الأناشـيد علـى إضعـاف الأهلـيّ المحـض الـذي

يُفترض أن تعكسه: العراقيّون ظلّوا سنوات مديدة، سبقت وصول صدّام حسين إلى السلطة، يعتمدون النشيد المصريّ «والله زمن يا سلاحي» نشيدًا لهم. السوريّون في نشيدهم تغنّوا بـ [خالد ابن] «الوليد» و[هرون] «الرشيد»، والاثنان لا ينتميان إلى البقعة الجغرافيّة التي صارت لاحقًا وطن السوريّين. قصيدة الشاعر الفلسطينيّ إبراهيم طوقان «موطني» صارت نشيدًا لفلسطين ولعراق ما بعد صدّام. الشاعر المصريّ محمّد صادق الرافعيّ كتب كلمات النشيد التونسيّ التي طُعّمت بأبيات لشاعر تونس أبي القاسم الشابّيّ. النشيد الحماسيّ المصريّ «الله أكبر فوق كيد المعتدي» اعتُمد طوال عهد معمّر القذّافي المديد (١٩٦٩-٢٠١١)، نشيدًا وطنيًّا لليبيا.

هكذا، كانت الأناشيد «الوطنيّة» تشبه فرق كرة القدم غير الوطنيّة بالمرّة، حيث يشتري كلّ «وطن» بعض لاعبي فريقه من «أوطان» أخرى.

أمّا في لبنان، فإلى الشاعر والزجّال الجبليّ والمسيحيّ رشيد نخلة، لحّنَ النشيدَ الوطنيّ موسيقارٌ مسيحيّ هو الآخر من جبل لبنان، اسمه وديع صبرا.

أهليّة الزجل الحصريّة هذه، التي أقامت في نشيدنا الوطنيّ، أقامت أيضًا في المحطّات الأساسيّة لتاريخ الطوائف الجبليّة، ومن ثمّ اللبنانيّة. مثلًا، إبّان العهد القصير لفيصل الأوّل في سوريا (١٩١٨-١٩٢٠)، وانقسام مَن صاروا لبنانيّين بين راغب في «الاستقلال» عن دمشق وراغب في «الوحدة» معها، تظاهر مسيحيّون «استقلاليّون» ردّدوا الزجليّة التالية:

«عيشي بذِلّي ما منْحبّا | منتظاهرْ ما منتخبّا | يا مِنّال الاستقلال | يا منرحل ع أوروبا».

صاحب الزجليّة هو من عاصر رشيد نخلة وشاركه الطور التأسيسيّ للزجل. إنّه أسعد الخوري الفغالي الذي صاغ عبر الزجل، ومن غير فصحى هذه المرّة، نشيدًا وطنيًّا موازيًا:

«لبنان ما عندي وطن بمعزّتو | محلى التظلّل تحت فَيّة أرزتو | ولسبدّ [لا بدّ] يا لبنانْ ما نرجع نقول | نيّال مَن لُو فيك مرقد عنزتو».

بيد أن زجليّة الفغالي التي هدّد فيها بالرحيل لم يُسلّم بها الدروز الذين كان لهم رأي آخر. فإذا كان الموارنة «حلفاء» فرنسا، فهم «حلفاء» بريطانيا التي رعت دولة فيصل السوريّة. هكذا، ظهر زجّال درزيّ (ظلّ غامض الاسم) ذكّر بأنّ الحكم في بلادنا صار «إنكليزي»، ومضى يردّ على تهديد الفغالي:

«إن بقيتو أهلا وسهلا | وإن رحلتو لطيزي».

وقبل سنوات على هذه المساجلة، كان للرغبة الشيعيّة في المساواة تعبيرها المبكر الذي وجد أداته في الزجل. فإلى عرسٍ في شمال فلسطين دُعِي زجّالان لبنانيّان مغموران، أحدهما مسيحيّ من البقيعة اسمه داوود كرم، والآخر شيعيّ من حاريص يُدعى محمود حداثا. ووفقًا لمحسن الأمين في «خطط جبل عامل»، بدا كرم استفزازيًّا كأنّه يطرد زميله بعنجهيّة غالبًا ما وُصفت بها لاحقًا «المارونيّة السياسيّة»، وغالبًا ما اشتكى منها، لاحقًا أيضًا، «الحرمان الشيعيّ».

قال كرم: «شو حدّك يا متوالي | حتّى تتعدّى عالكارْ | امشِ وروح من قبالي | أحسنْ ما دبّك بالنار».

لكنّ حداثا وقع على الردّ الذي ذاع لاحقًا، وصار يُردّد في مساحة يشتبك جِدّها بمزاحها:

«متوالي ومش متخبّي | والله أخبر فيي وفيك | مش متلك جاحد ربّي | وعاملّو حرمي وشريك».

والحال أنّ الزجّال الشيعيّ الذي قدّم مرافعة تتعدّى الطعن بزميله كرم إلى الطعن بالمسيحيّة نفسها، التزم «الجنس الأدبيّ» المسيحيّ والجبليّ حتى ذلك الحين، أي الزجل، فكأنّه يُقرّ بـ «هيمنة أيديولوجيّة» يطمح إلى تحسين موقعه حيالها، ولو بالذهاب بعيدًا في تصديع مقدّساتها.

لقد بلغ السجال عبر الزجل ذروة احتدامه مع «حرب الجبل» المسيحيّة ـ الدرزيّة في الثمانينيّات، وكان الزجّالون، منذ حرب السبعينيّات، قد باشروا الانضواء في طوائفهم والنطق بلسان أطول من ألسنتها التي تهذّبها الفصحى قليلًا. يومذاك، كانت الطوائف قد قويت على الدولة وعلى إذاعتها وتلفزيونها.

فالشاعر الزجّال طليع حمدان، وعبر «ملحمة» شهيرة، استعرض أحداث «حرب الجبل» قريةً قريةً تقريبًا من وجهة نظر درزيّة. وهو أوصى سامعيه من أبناء طائفته بأنّ

«اللي تحمّموا بدمّاتكمْ | بدمّاتهنْ تحمّموا».

بل مدّ توصيته إلى موقف من حياة الدرزيّ وموته بوصفه آلة قتال:

«الـ بيعيش يهجم ع العدى | الـ بيموت ألله يرحمو».

ويستطيع مَن يرغب في رصد العنف الذي تمارسه الطوائف، أو تتمنّى ممارسته، أن يستعيد ما سبق لعارف ويوسف أبو شقرا أن كتباه في «الحركات في لبنان إلى عهد المتصرّفيّة». لقد جاء في مقدّمة هذا الكتاب، من قبيل التعريف به، أنّه «حكايات

العصبيّات في لبنان في عهود اشتدادها واحتدامها، وحكاية الغرضيّة في نزاعها وخصوماتها وكيدها ومنافساتها». لكنْ، على مدى تلك الفسحة الزمنيّة التي تزيد على قرن، والفاصلة بين الكتاب الصغير والزجليّة الطويلة، يتبدّى كم كان خطّ العنف هذا صاعدًا وتراكميًّا.

لقد ذكّرنا الزميل محمّد حجيري، في مقال له في موقع «المدن»، بتلازم الزجل، في مساره، مع محطّات بناء الدولة ومؤسّساتها، ومع تطوّر التقنيّة والأدوات الثقافيّة الرائجة في أزمنة السلم. فبعد الاستقلال بسنة واحدة، تأسّست «جوقة زغلول الدامور» مثلًا، هي التي كانت أُمًّا لعديد الجوقات التي تفرّعت عنها. ولم ينفصل شيوع الزجل عن نموّ الإذاعة، ثمّ صعود التلفزيون في الستّينيّات. وحتى في تاريخ النشر والإعلام، أسّس زغلول الدامور ورفيقه زين شعيب مجلّة زجليّة سمّياها «المسرح»، بعد الحرب الأهليّة الصغرى في ١٩٥٨ التي أوحت ببدايات جديدة وباحتمال إقلاع جديد.

ولمّا كان الاغتراب («الانتشار» أخيرًا) من مقوّمات الوطن والرواية الرائجة عنه، فقد ذُكر أنّ زغلول الدامور (واسمه جوزيف الهاشم) أحيا حفلات في ١٢٠ بلدًا!

لكنّ الريفيّ والطبيعيّ ظلّا دين الزجل وديدنه، تلحّ على إعادة إنتاجهما موجات متلاحقة من القرويّين الهابطين على المدن والمتمسّكين فيها بثقافة الآباء الريفيّين. فمن «شحرور الوادي» إلى «زغلول الدامور»، وهما ربّما كانا الأهمّ بين زجّالي القرن العشرين، بقي الطلب حادًّا على أصوات العصافير بأنواعها. وظلّ التوقيع باسم القرية أو المنطقة أو الطير ممّا يلازم

تأسيس الجوقات، فأسّس موسى زغيب «جوقة القلعة» وطليع حمدان «جوقة الربيع» وطانيوس الحملاوي «فرقة الكنار» وجريس البستاني «جوقة حسّون الوادي». ولأنّ «التحدّي» بين زجّالي الجوقة الواحدة، أو بين زجّالي جوقتين، عنصر راسخ في الزجل، فيما كثير منه لم يُسجّل أو يُكتب، وجدنا حزبًا سياسيًّا كالسوريّ القوميّ الاجتماعيّ، هو أشدّ أحزابنا ريفيّة وتوكيدًا للقوّة ونهوضًا على الثقافة الشفويّة، بالغ الحرص على أن يكون له زجّاله، وهو ما كانه فعلًا عجاج المهتار ومن بعده خالد زهر. وبدوره، استحقّ زين شعيب، الوجه الأبرز لـ «الصعود الشيعيّ» في الزجل، وسام «فخر الجنوب» الذي أسبغه عليه نبيه برّي في ١٩٩٦ قبل أن يقلّده رفيق الحريري، في ٢٠٠٢، «درع عمالقة الشرق».

أمّا طليع حمدان، صاحب «الملحمة» الدمويّة، فاستطاع هو نفسه، في مناسبة أخرى من مناسبات «الوفاق الوطنيّ»، أن يفخر بأنّه

«لو عطيوا كلّ التيجانْ | ورايات اللي معلّايه | عليكِ يا راية لبنان | ما منحبّ ولا رايه».

ودارت الأيّام دورتها وانتهت بنا إلى محطّة تلفزيونيّة توصف بأنّها لسان «العهد» وسيّده وتيّاره. لكنْ، ما إن نصوّب الريموت كونترول إلى «أو تي في» تلك حتى تدهمنا جوقة زجليّة تصدح بلبنان «الحضارة» التي يصنعها «أُسُود».

حين كانوا يصارعون...

لـم يتسـنّ لـي أن أشـاهد إدمـون الزعنّـي علـى الحلبـة، إذ تقاعـد واعتـزل المهنـة حيـن كنـت صغيـرًا جـدًّا. لكـنّ الزعنّـي، الـذي لُقّـب بـ «أسـد لبنـان»، وقيـل أنّـه اختيـر مـرّةً بطـلًا للعالـم فـي المصارعـة، خلّـفَ قصصًـا كثيـرة مـن ذاك الصنـف الـذي تنسـجه مُخيّـلات سـخيّة. فقـد رُوِيَ مثـلًا أنّ أحـد المصارعيـن الذيـن صارعهـم قـال لـه، فيمـا همـا يتواجهـان: أحـبّ مضـغ الآذان، ثـمّ عـضّ أذنـه وظـلّ يعضّهـا حتـى اسـتقرّت كلّهـا في فمـه. لكـنّ الزعنّـي، الـذي لا يتألّـم ولا يسـتوقفه فَقْـدُ عضـو مـن أعضائـه، ردّ عليـه: وأنـا أحـبّ مضـغ المصاريـن، ثـمّ أنشـب أصابعـه فـي بطـن خصمـه واسـتخرج مصارينـه.

هكـذا، تولّـت الألسـنة البريئـة التفنّـنَ فـي رسـم بطـولات لـم يعـد السـيف أداتهـا. فهنـا، بِتنـا أمـام الجسـد نفسـه كمصـدر للفعـل الخـارق، إمّـا صنعًـا لـه أو تلقّيًـا لآثـاره. ولبنـان، فـي الخمسـينيّات، كان يؤثّـث نفسـه كأيّ بلـد حديـث الاسـتقلال، يعـوزه المُصـارع والبطولـة مثلمـا يعـوزه النشـيد والعَلـم وسـوى ذلـك ممّـا تُسـتكمَل بـه الـدول.

وفـي الأحـوال كافّـة، حُفـظ للزعنّـي أنّـه لبّـى هـذا المطلـب. صحيـح أنّـه فقـدَ أذنـه غيـر أنّـه «رفـع رأس لبنـان عاليًـا» كمـا كان يقـال، ورفـع خصوصًـا رؤوس أبنـاء قريتـه تـولا فـي قضـاء البتـرون. هكـذا، أقامـوا لـه، بعـد رحيلـه فـي ١٩٧٢، تمثـالًا يُظهـر قوّتـه وعضلاتـه المتحجّـرة والمتورّمـة.

لكـنْ، مـع التلفزيـون فـي السـتّينيّات، و«القنـاة ٧» تحديـدًا، حلّـت المصارعـة فـي البيـوت، فباتـت مبارياتهـا تُبـثّ مـن «المدينـة الرياضيّـة»، حيـث تتجمّـع الحشـود المتحمّسـة مشـارِكةً فـي الهيجـان

والمبايعـة وفـي لعـن الأعـداء الشـياطين. وأغلـب الظـنّ أنّ المصارعـة استقطبت جمهـورًا يشـبه الجمهـور الـذي اسـتقطبه الزجـل ووجـد هـو الآخـر مضافتـه فـي التلفزيـون، ذاك أنّهـا أقـرب إلـى أن تكـون الممارسـة التطبيقيّـة للزجـل، أو أنّهـا زجـلٌ يُخـاض بالأجسـام. وهـو مـا اسـتهوى ذُكـورًا بالضـرورة، تحيطهـم قلّـة قليلـة مـن النسـاء، أمّـا أكثر هـؤلاء فكانوا ريفيّيـن هاجـروا حديثًـا إلـى المدينـة، وعربًـا وكـردًا بحثـوا عـن اللقمـة فـي بيـروت، ومعهـم فقـراء مـن المـدن وضواحيهـا تعـدّدت أعمارهـم وتشـابهت سـويّاتهم التعليميّـة المتواضعـة. وبيـن هـؤلاء، احتـلّ سـائقو السـرفيس وشـغّيلة الأفـران والحمّالـون الذيـن سـمّتهم العامّيّـة عتّاليـن وأصحـاب المهـن المياوِمـة، موقعًـا مميّـزًا.

وقـد انقسـمت عواطـف الجمهـور بيـن نجـوم المصارعـة يومـذاك، وكلٌّ منهـم نـال أوسـمة وجوائـز، مسـاهمًا فـي «رفـع رأس لبنـان عاليًـا». وكان أبـرز هـؤلاء الأخويـن جـان وأندريـه سـعادة، اللذيـن درّبهمـا الزعنّـي، وأسـعد سـرور، و«بطـل المهجـر» وديـع أيّـوب، وإيلـي بجّانـي، وجـورج ديرانـي، ونجيـب نهـرا... وكانـت تـلازم واحدَهـم صفـةٌ أو صفتـان تتّصـلان بشـخصه أو بطريقتـه فـي المصارعـة. فالأخـوان سـعادة، وكانـا المعادليـن الرياضيّيـن للأخويـن رحبانـي فـي الفـنّ وللأخويـن فليفـل فـي الأناشـيد الملحّنَـة، كانـا «يُجسّـران» إلـى الخلـف، فيسـتطيعان بمرونـة التحكّـم فـي الظهـر أن يقلبـا الخصـم الـذي يعلـو عليهمـا. ولسـببٍ مـا عُرفـا بــ «الشـيخ المنصـور أندريـه» و«الأميـر المنصـور جـان»، كمـا لُقّـب وديـع أيّـوب أيضًـا بــ «الشـيخ»، وسُـمّي أحيانًـا «لبنـان أيّـوب» للإيحـاء بأنّـه يمثّـل بلـده فـي المغتربـات، فلـم يكـن يتقـدّم مـن الحلبـة إلّا معتمـرًا الكوفيّـة والعقـال اللذيـن يُفتـرض أنّهمـا دلالـة علـى لبنـان فـي العالـم. أمّـا بجّانـي فـكان يُنعَـت بالشـهامة والجنتلمانيّـة لمـدى تقيّـده بقوانيـن اللعـب وتحمّلـه الضـرب الـذي لا يـردّ عليـه إلّا علـى نحـو مـدروس ومحسـوب. وبـدوره، بقـي نجيـب نهـرا محبـوب الـروم الأرثوذكـس لأنّـه

أرثوذكسيّ، تمامًا كما بقي جورج ديراني محبوب الفلسطينيّين المسيحيّين لأنّه من أبناء مخيّم مار الياس.

و«الكيتش» كان حاضرًا بقوّة، خصوصًا في استعراض ذلك الخليط المزركش من الأجسام العضليّة والأزياء والأوسمة ممّا كانت تنقله الملصقات الدعائيّة. فهنا أريدَ إيصال إيحائين متضاربين: القوّة، من جهة، وهي من لوازم المهنة، ومن جهة أخرى، العاطفة الحنون التي تخاطب قلوب الجماهير مثلما كانت تفعل الأفلام الهنديّة عهدذاك. فـ «جبّار الحلبة» و«قاهر الأبطال» و«ملك الموت» الذي كانه المصارع، هو من صنف «الوحش» الذي يحبّ «الجميلة» وتحبّه. ولبنان يومذاك كان مكانًا نموذجيًّا لاجتماع البدائيّ والجميل «الحضاريّ»، فكان أبناؤه يحملون بكثرة أسماء سبع ونمر وأسد وذيب، كما يتحدّثون بشيء من العاديّة عن مباراة أنزلت الشلل بالمصارع أو تأدّى عنها شجّ رأسه. لكنّهم، إلى هذا، كانوا يذوبون رقّةً وهم يغنّون مع شارل أزنافور وميراي ماتيو.

وهذه الكيتشيّة غنمت أكبر فرصها مع الأخوين سعادة. فهما الأكثر سفرًا إلى الخارج وتعريفًا بالعالم على نحو سياحيّ لا يُعرّف كثيرًا. وهما غنّيا أغاني شرقيّة وغربيّة، ومثّلا في أفلام سينمائيّة حمل أحدها عنوان «قفزة من على نهر السين». وكانا، فوق هذا، الأكثر تنظيمًا لمباريات توصف بالعالميّة، يستقبلان فيها مصارعين من بلدان نائية وغريبة. هكذا، كانت تُستثار وطنيّة اللبنانيّين حين ينهزم ابن بلدهم أمام مصارع أجنبيّ، أو يتلقّى منه ضربات يتأخّر في ردّها إليه، وما إن يأتي الردّ حتى تهبّ عاصفة الوطنيّة صياحًا وتصفيقًا.

وكان الإكزوتيكيّ هناك أيضًا، فبعض ملابس المصارعين وأقنعتهم

ربّما استوحت منحوتات نحتها جياكوميتّي وبيكاسو لبدائيّين بتنا نعلم لاحقًا أنّهم لم يكونوا بدائيّين جدًّا. وكثيراً ما كانت الأزياء والأقنعة تلك تستدعي نوعًا من هوس الجمهور العُصابيّ وذعره من اللمس أو الاقتراب، ذاك أنّ الغابة أضحت، هي الأخرى، واحدًا من عناصر الديكور الذي يحفّ بالمصارعة.

ولئن مثّل الشرّيرَ مصارعون قساة ومكروهون كالهنغاريّ يوجي كوفاكش والألمانيّ إريك ميلر والأميركيّ دالي لانش، فإنّ الأفريقيّ برنس كومالي كان رمز النبل والوسامة في آن واحد، أحبّه جمهور المصارعة وتناقلوا أنّ صداقة ترقى إلى الأخوّة تجمع بينه وبين الأخوين سعادة. هكذا، استقام حبّهم للمصارع الغريب بأن جعلوه واحدًا منهم. ورغم أنّ اللبنانيّين غير منزّهين عن العنصريّة، فقد أنساهم هذا الحبّ لبرنس كومالي أنّ لونه أسود.

وككلّ شيء آخر، أعملت الطوائف مبضعها في المصارعة. فبينما غلب المسلمون في رفع الأثقال وكمال الأجسام، فكان منهم معظم الربّاعين، كان المصارعون في معظمهم مسيحيّين من جبل لبنان ومحيطه. هكذا، انتسب كثيرون منهم إلى أحزاب يُقبل عليها مسيحيّون، لا سيّما الكتائب والقوميّ السوريّ اللذين يبالغان في التعويل على الأجساد. ففي بيت الكتائب المركزيّ في منطقة الصيفي، درّب إدمون الزعنّي هواة المصارعة عليها. وبالفعل، انتمى إلى الحزب المذكور الأخوان سعادة وإيلي بجّاني كما انتسب جورج ديراني إلى القوميّ السوريّ.

وأغلب الظنّ أنّ المصارعة كان لها اقتصادها وتجارتها ممّا لم يُعرف عنه الكثير. لكنّ المرجّح أنّهما كانا اقتصادًا وتجارة صغيرين ومتواضعين. أمّا من يفكّر في أرباح الرهان على المصارع الرومانيّ

القديـم، الغلادياتـر، أو علـى الملاكـم الأميركـيّ بيـن الخمسـينيّات والسـبعينيّات، فعليـه أن ينسـى المقارنـات.

لكـنّ قريبـي زغلـول، الـذي يكبرنـي بعشـر سـنوات ويـدرس فـي الجامعة، أراد أن ينقذنـي مـن ضلالـي فقـال إنّ المصارعـة «صفقـات وترتيبـات تسـبق اللعـب». بهـذا، نجـح زغلـول فـي هـزّ اقتناعـي بمـا تـراه عينـاي وتصدّقانـه. وبعـد سـنوات طويلـة، كنـت خلالهـا قـد فقـدت كلّ اهتمـام بالمصارعـة، جـاء رولان بـارت يوجّـه ضربـة أخـرى. ففـي مسـتهلّ كتابـه «ميثولوجيّـات»، تحـدّث الناقـد الفرنسـيّ عـن «عالـم المصارعـة»، نافيًـا أن تكـون هـذه «الرياضـة» رياضـة وجازمًـا أنّهـا، علـى عكـس الملاكمـة، فُرجـة متوقَّعـة الحـركات ومتوقَّعـة النتائـج.

لكـنّ الضربـة الكبـرى جـاءت مـع حـرب السـنتين فـي ١٩٧٥. حينـذاك، صـارت الأجسـام لـزوم مـا لا يلـزم، إذ إنّ القـوّة لـم تعـد تخـرج «إلّا مـن فوهـة [فوهـات] البنـادق». لقـد حـال الجـدّ البالـغ دون الفرجـة، مثلمـا حـال العنـف المباشـر دون الحاجـة إلـى تمثيلـه.

وإذ هاجـر إيلـي بجّانـي إلـى هيوسـتن وغـاب ذكـره، توفّـي وديـع أيّـوب شـابًّا فـي ١٩٧٦. أمّـا أندريـه سـعادة فعـاش حتـى ١٩٩٩، لكنّـه عنـد وفاتـه كان فـي الواحـد والسـتين. قبلـه اغتيـل جـورج ديرانـي فـي ١٩٨٤ أمـام منزلـه فـي المخيّـم، وفـي الحقبـة الثمانينيّـة اللعينـة نفسـها، مـرّت سـيّارة مسـرعة أمـام دكّان نجيـب نهـرا فخـرج مـن شـبّاكها رشّـاش أودت رصاصاتـه بصاحـب الـدكّان. قاتِـلا ديرانـي ونهـرا لـم يُعرفـا، ولـم تُعـرف أسـباب مقتلهمـا.

حرب الأعلام... حرب الآلهة

فـي سـنواتهم الممتـدّة منـذ اسـتقلالهم فـي ١٩٤٣، أنتـج اللبنانيّـون علميـن يمكـن القـول إنّهمـا خطابـان علـى نطـاق وطنـيّ: العلـم اللبنانـيّ وعلـم حـزب اللـه.

الأوّل تتوسّـطه أرزة خضـراء، ولونـاه الأبيـض والأحمـر بسـيطان مقتصـدان فـي إيحائهمـا.

إبّـان سـنوات المدرسـة، كان تمجيـد ذلـك العلـم ينتسـب إلـى فصاحـة إنشـائيّة بريئـة ورديئـة فـي آن. كان يقـال: «الأبيـض فـي العلـم يرمـز إلـى السـلام والصفـاء وثلـج الجبـل، والأخضـر الـذي فـي الأرزة إلـى الطبيعـة الخالـدة والنضـرة، والأحمـر إلـى دمـاء الشـهداء». والعبـارة الأخيـرة هـذه كانـت كفيلـة برسـم بسـمة علـى الشـفاه يعجـز التلقيـن الأسـتاذيّ عـن لجمهـا: فثمّـة مـا كان يتـراءى لنـا مبالغـةً ربّمـا أملاهـا اسـتدراج الخطابـة، أو التنـازل لثقافـة رائجـة فـي المنطقـة، ثقافـةٍ تأبـى دقّ بـاب «الحرّيّـة الحمـراء» بغيـر «اليـد المضرّجـة».

مـع هـذا، وفـي يومنـا الراهـن المكتنـز بـكلّ مـا سـبقه مـن تجـارب، بتنـا نفضّـل المبالغـة فـي زعـم الـدم علـى الوجـود الفعلـيّ للـدم. فالكذبـة تبقـى خيـرًا مـن المـوت، علـى مـا علّمنـا فيلـم «وداعًـا لينيـن»، فكيـف وقـد تمتّعنـا فـي لبنـان بحرّيّـة تفـوق كثيـرًا الحرّيّـات التـي دُقّ بابهـا بالأيـدي المضرّجـة... أمّـا العلـم الثانـي فأصفـر، كُتـب عليـه بالأخضـر وبخـطّ كوفـيّ: «حـزب اللـه»، فيمـا كُتـب تحتـه: «المقاومـة الإسـلاميّة فـي لبنـان». وبـدوره، يرتفـع حـرف الألـف فـي كلمـة «اللـه» كزنـد لا تعـرّج فيهـا، تنتهـي بقبضـة مشـدودة حـول بندقيّـة اقتحـامٍ كُتبـت فوقهـا العبـارة القرآنيّـة فـي «سـورة المائـدة»: «فـإنّ حـزب اللـه هـم الغالبـون». ولئـن اسـتلهم رفـعُ البندقيّـة علـمَ «الحـرس الثـوريّ» الإيرانـيّ، حيـث

ينتصب السلاح بالطريقة نفسها، فالعلم الأوّل يتّسع لصورٍ على شيء من التمويه لعالِم دين وكتاب وسيف. إنّه كون شيعيّ محض.

لقد أنتج اللبنانيّون بالطبع أعلامًا أخرى كثيرة، من علم «حزب الكتائب اللبنانيّة» إلى أعلام «الحزب التقدّميّ الاشتراكيّ» و«حزب الوطنيّين الأحرار» و«حركة أمل» و«القوّات اللبنانيّة» و«التيّار الوطنيّ الحرّ» و«تيّار المستقبل» و«المردة»... فضلًا عن زوبعة القوميّين السوريّين. كذلك، استقبلوا أعلامًا وافدة من الخارج، كمنجل الشيوعيّين ومطرقتهم وخريطة «الوطن العربيّ» في علم البعث. لكنّ العلمين الأكثر خفقًا في سمائنا، والأوسع تمثيلًا وتعبيرًا عن المشاعر يبقيان العلم اللبنانيّ وعلم حزب الله: أوّلهما ارتبط بقيام دولة ونيل استقلال، والثاني ارتبط بتحرير أرض ومقاومة وحرب مع إسرائيل. إنّهما، إذًا، يملكان الطاقة التي تؤهّلهما أن يكونا علمين متناظرين، إن لم نقل نقيضين.

ومن جهتهم، كان للسنّة حضورهم ما بين قيام الدولة «المارونيّة» وعلمها وصعود «دولة» حزب الله الشيعيّة وعلمها. إلّا أنّ ذلك الحضور، إذا استثنينا أعلام تنظيمات صغرى كـ «المرابطون»، حصل من دون علَم. ففي المرّة الأولى، كانت الناصريّة، التي استولت على المخيّلة السنّيّة، فتجسّدت في صورة جمال عبدالناصر أكثر ممّا في علم مصر أو «الجمهوريّة العربيّة المتّحدة». وفي المرّة الثانية، حال تكاثر أعلام المنظّمات الفلسطينيّة دون الاستقرار على علم جامع كعلم منظّمة التحرير مثلًا. وفي الحالتين كانت لا ـ لبنانيّة الطرفين، المصريّ والفلسطينيّ، تجعل رفع العلم أمرًا مُحرِجًا للسنّة اللبنانيّين يعزّز اتّهامَ المسيحيّين التقليديّ لهم بـ «نقص اللبنانيّة».

وتجربة كهذه ربّما ساهمت في حمل «حزب الله» على الاتّعاظ

ومحاولـة تفـادي التهمـة: فبعـد طـوره الأوّل حيـن كان يدعـو إلـى «جمهوريّـة إسـلاميّة فـي لبنـان»، كـفّ الحـزب عـن دعوتـه، ثـمّ انخـرط فـي الحيـاة السياسـيّة ولعبتهـا البرلمانيّـة. وهـذا مـا كان كافيًـا، فـي نظـر كثيريـن، لأن «يلبنـن» الحـزب، علمًـا أنّ مشـاركته فـي الانتخابـات النيابيّـة أتـت مسـبوقة بفتـوى أصدرهـا السـيّد الخامنئـي أجـازت لـه تلـك المشـاركة.

لكـنّ مقارنـةً أبعـد بيـن علَمَـي لبنـان وحـزب اللـه تنبـئ بالخـلاف الأعـرض الـذي يشـقّ اللبنانيّيـن اليـوم: إنّـه بيـن وعـي ذي مصـدر مارونـيّ بـدأ يتراكـم قبـل عشـرات السـنوات علـى رسـم العلـم، وآخـر ذي مصـدر شـيعيّ اتّخـذ شـكلًا انفجاريًّـا بعـد الثـورة الإيرانيّـة فـي ١٩٧٩.

والحـال أنّ العلـم اللبنانـيّ بسـيط لا ينطـوي علـى تفاصيـل أو كلام، فـكأنّ رسـالته الضمنيّـة هـي أنّ هـؤلاء اللبنانييـن، مثلهـم مثـل باقـي أهـل الأرض، بحاجـة إلـى بلـد ورمـز وعضويّـة فـي المنظّمـات الدوليّـة. وغنـيّ عـن القـول أنّ الكتابـة علـى العلـم لـم تكـن رائجـة مـا خـلا فـي حـالات نـادرة، كالسـعوديّة التـي كتبـت «لا إلـه إلا اللـه محمّـد رسـول اللـه» وتحتهـا سـيف، قبـل أن يقلّدهـا الإيرانيّـون فـي ١٩٨٠، حيـث تصـدّرت علمَهـم كلمـة «اللـه»، ومـن بعدهـا صـدّام حسـين فـي العلـم الـذي اخترعـه للعـراق.

وعلـى عكـس أعـلام رفعتهـا بلـدان تعدّديّـة التركيـب، كالعـراق فـي عهـد عبدالكريـم قاسـم (١٩٥٨-١٩٦٣)، حيـث حُشـدت داخـل رقعـة القمـاش خصائـص الجماعـات والمجموعـات التـي تشـكّل تلـك البلـدان وتاريخهـا، تكاسـل العلـم اللبنانـيّ عـن نقـل تلـك الخصائـص (وإن أحيلـت، لا سـيّما منـذ الحـرب، إلـى العملـة الورقيّـة). فمـا هـو متوفّـر فـي الريبرتـوار المارونـيّ التقليـديّ بـدا كافيًـا لتأليـف «أسـطورة مؤسّسـة» يسـطع فيهـا مؤسّـس درزيّ هـو فخـر الديـن المعنـيّ، ومؤسّـس ثـانٍ سـنّيّ (وإن

تنصّـرت عائلتـه) هـو بشـير الشـهابيّ، وتلـوح للإمـام الأوزاعـيّ ظـلال تبشّـر بتسـامح المسـلمين الدينـيّ. وفـي مـا خـصّ العَلَـم تحديـدًا، كان مسـلمون كصائـب سـلام وسـعدي المنـلا وصبـري حمـادة ورشـيد بيضـون مسـاهمين فـي رسـمه بوصفـه تطويـرًا للعلـم الـذي اعتُمـد مـع إنشـاء «لبنـان الكبيـر».

هـذه الرايـة المقتصـدة فـي تعبيرهـا ليـس فيهـا الكثيـر الـذي يقـال. إنّهـا متواضعـة تواضـع البلـد الـذي أريـدَ إنشـاؤه: كثيـر الحيـاد وقليـل القضايـا، ومـا مـن داعٍ لإيضاحـات أكثـر. لقـد أُريـدَ لهـا أن تكـون علـم وطـن تحكمـه طائفـة بتفاهـم «ميثاقـيّ» مـع قيـادات باقـي الطوائـف. لكـنّ تحفّظـات الطوائـف الأخـرى عـن حكـم البلـد الطائفـيّ ردّ العلـم مجـرّد علـم لتلـك الطائفـة الحاكمـة، وفتـح البـاب واسـعًا للهـزء بـه، حيـث اتّخـذ أشـكالًا عـدّة: مـن سـخرية العامّـة التـي سـمّت الأرزة قرنبيطـة، إلـى مطالبـة نبيـه بـرّي ذات مـرّة بإحـلال شـتلة التبـغ محـلّ الأرزة (والتـي اسـتدعت تحفّـظ النائـب دوري شـمعون: شـرط أن يُكتـب تحـت الشـتلة أنّ التدخيـن يضـرّ بالصحّـة ويتسـبّب فـي الأمـراض).

مـع هـذا، هنـاك شـيء واحـد يمكـن قولـه، ذاك أنّ مركزيّـة الأرزة فـي العلـم تُغلّـب البُعـد الطبيعـيّ، ممثّـلًا في شـجرة، على سـواه مـن المعاني والأبعـاد. والطبيعـة تحـضّ علـى الاقتصـاد فـي التعبيـر لأنّهـا هـي هـي التعبيـر كلّـه. فالشـائع أنّ جمالهـا مُحَفّـزٌ علـى الصمـت و«جلالهـا» دافـع للانخـاذ والانبهـار. وهـذا مـا يشـقّ الطريـق إلـى صوفيّـةٍ رومنطيقيّـةٍ مـا، صوفيّـةٍ يغذّيهـا أنّ جـار الأرز هـو الكاتـب جبـران خليـل جبـران، وأنّ الأرز نفسـه إنّمـا هـو «أرز الـربّ» كمـا يقـال.

بيـد أنّ العلـم الآخـر لا يحضـر فيـه الـربّ (اللـه) حضـورًا ضمنيًّـا، ولا حضـورًا طبيعيًّـا. إنّـه يحضـر بصفتـه صاحـب حـزب سياسـيّ ومسـلّح.

فكأنّنا، والحال هذه، نعثر في التعاقب الزمنيّ للعلمين على ما أشار إليه وليم رايخ من انقلاب الصوفيّة الدينيّة، بما فيها من مازوشيّة، إلى صوفيّة قوميّة ساديّة ونرجسيّة. هكذا، يضجّ العلم الحزب اللهيّ بالكلام والصور والتعبير ممّا تتميّز به الدعوات النضاليّة. وإذ يُشرِف «أرز الربّ» على وادي قنّوبين، الذي قيل أنّه كان ملجأ الهاربين من بطش الرومان الوثنيّين، فإنّ إله «حزب الله» لا يطيق الهرب «الجبان» بل يعلن «انتهاء زمن الهزائم». فإذا تغنّى أهل العَلم الأوّل بأنّ اسم الأرز مذكور في التوراة، كاد أهل العلم الثاني يشكّون في أن يكون في الأمر «تطبيع» ما. وفي مقابل صمت علم الأرزة أمام الطبيعة، وهي «لوحات الله راسمها» بحسب أغنية وديع الصافي، يسود اقتحام الطبيعة بعضليّة البندقيّة التي تنتجها مصانع الأسلحة وتحتلّ في علم الحزب المركزيّة نفسها التي تحتلّها الأرزة في علم الدولة. وهي عضليّة تناولها أيضًا رايخ وسواه ممّن استوقفتهم القبضات النافرة العروق والأجسام المشدودة في الحركات النضاليّة، ذاك أنّ الذي تُظهره الملصقات شادًّا بأصابع وعروق نافرة على بندقيّة لا تقلّ عضليّةً، إنّما يمشي دائمًا «منتصب القامة» على ما أعلمنا سميح القاسم ومارسيل خليفة.

فوق هذا، فـ «حزب الله»، مرموزًا إليه بعلمه، غير معنيّ بتاتًا بتمثيل باقي الجماعات أو بمراعاة تمثيلاتها ورموزها. تمثيلاته ورموزه هو تحتلّ القماشة كلّها، ما يضعنا وجهًا لوجه أمام علم لجماعة، لا لكلّ الجماعات، جماعةٍ لا تزعم بتاتًا، من خلال رايتها، أنّها تريد أنّ تتّحد مع سواها في كيان أعلى أو في مفهوم مركّب.

فنحن بالتالي حيال إله جماعاتيّ مسلّح بما أنتجته مصانع حديثة، وإله شبه وطنيّ، أعزل إلّا من الطبيعة.

وبيـن رومنطيقيّـة الطبيعـة الوطنيّـة وحداثيّـة الأداة الجماعاتيّـة، يسـتقرّ إلــه القــوّة فــي قوّتــه، ويغفــو إلــه الطبيعــة فــي الطبيعــة. إنّهمــا ربّ غالــب وربّ مغلــوب.

الجامعة الأميركيّة في بيروت: أبعد من السياسة!

حيـن يقـام فـي الجامعـة الأميركيّـة ببيـروت معـرض عـن الشـيوعيّة، وعـن «الفـنّ والثـورة فـي الشـرق الأوسـط»، فهـذا خبـر يتنـاول الجامعـة أكثـر ممّـا يتنـاول الشـيوعيّة.

قـد يقـول قائـل إنّ تلـك الجامعـة مـا كانـت لتسـمح بهـذا النشـاط لـو كانـت الشـيوعيّة لا تـزال حيّـة تُـرزق وتهـدّد النفـوذ والمصلحـة الأميركيّيـن. ربّمـا. مـع هـذا، ليـس مألوفًـا أن يحتفـل الخصـم بخصمـه وإن مـات. ونحـن نعلـم، بالتجربـة الخبيثـة، أنّ معظـم الذيـن يقولـون: «لا تجـوز علـى الميّـت إلّا الرحمـة» يقصـدون أنّ الرحمـة لا تجـوز عليـه.

مـع حماقـة دونالـد ترامـب الأخيـرة فـي شـأن القـدس، كان موقـف رئيس الجامعـة فضلـو خـوري، ثـمّ بيـان «الهيئـة التدريسـيّة» فيهـا، فكأنّنـا لسـنا حيـال جامعـة «أميركيّـة» بالمعنـى الـذي غالبًـا مـا توصـف بـه وتُنتقـد عليه .

إذًا، فـي الأمـر مـا يتعـدّى السياسـة الضيّقـة ومـا يتجـاوز ربـط تلـك الجامعـة بــ «الإمبرياليّـة الأميركيّـة» الشـرّيرة. معيـار السياسـة الضيّقـة يصـحّ فـي جامعـة تابعـة لمصـر أو لروسـيا، لكـنْ ليـس فـي جامعـة «تابعـة» لأميـركا أو لبريطانيـا.

أبعـد مـن هـذا، يمكـن المغامـرة بافتـراض أنّ الجامعـة الأميركيّـة غالبًـا

مـا دفعـت ثمـن طغيـان التأريـخ السياسـيّ فـي منطقتنـا علـى تأريـخ الاجتمـاع والاقتصـاد والثقافـة والمؤسّسـات والمهـن وسـواها. فالسياسـة عندنـا، وكمـا هـو معـروف جيّـدًا، تبتلـع دائمًـا مـا عداهـا.

والتلخيـص لا يقـف عنـد هـذا الحـدّ، فحتـى فـي التأريـخ السياسـيّ نفسـه، طغـت نظـرة تُغلّـب الانقلابـات العسـكريّة والنزاعـات الأهليّـة علـى البرلمانـات والإدارات العامّـة والأحـزاب والنقابـات والصحافـة. إذًا، وفـي السياسـة ذاتهـا، سـاد مـا هـو قَطْـعٌ علـى حسـاب مـا هـو اسـتمرار، ومـا هـو عنـف علـى حسـاب مـا هـو سـلميّة وتـدرّج.

اليـد العليـا فـي هـذا التأريخ كانـت للناصريّة. للثـورة الجزائريّـة. للمقاومة الفلسـطينيّة. للحـروب الأهليّـة. وطبعًـا لــ «النكبـة» و«النكسـة». جميلـة بـو حيـرد لـم تكـن جَنـدارك العربيّـة فحسـب، بـل كانـت مـدام كـوري العربيّـة أيضًـا. بعـد ذلـك، جعلنـا معيارنـا هـذا معيـارًا لقيـاس ظاهـرات كالجامعـة الأميركيّـة لا يصحّ فـي قياسـها هـذا المعيـار.

لكـنْ، فـي نظـرة رحبـة إلـى هـذا التاريـخ، نظـرةٍ تُحِيـطُ بتحوّلاتـه التـي تتجـاوز السياسـة، يبـرز تأسـيس الجامعـة الأميركيّـة فـي بيـروت (أو «الكلّيّـة السـوريّة الإنجيليّـة» يومـذاك) كواحـد مـن حدثيـن اثنيـن ربطـا العالـم العربـيّ والشـرق الأوسـط بالعالـم. أمّـا الحـدث الثانـي فهـو شـقّ قنـاة السـويس التـي وَصَلَـتِ البحـر الأبيـض المتوسّـط بالبحـر الأحمـر. وليـس بـلا دلالـة أنّ هذيـن التطوّريـن، وهمـا الأهـمّ في تاريـخ منطقتنـا بعـد حملـة نابوليـون فـي ١٧٩٨-١٧٩٩، إنّمـا وِلـدا فـي حقبـة واحـدة: قنـاة السـويس بُـدِئَ العمـل فيهـا فـي ١٨٥٩ وانتهـى فـي ١٨٦٩، فيمـا نشـأت الجامعـة فـي ١٨٦٦، قبـل ٢٤ سـنة علـى أوّل جامعـة وطنيّـة حديثـة فـي العالـم الإسـلاميّ، هـي التـي أنشـئت فـي اسـطنبول.

تواكـب هـذان الحدثـان، القنـاة والجامعـة، مـع مـا كان يجـري فـي

النصـف الثانـي مـن القـرن التاسـع عشـر، مؤدّيًـا إلـى إطـلاق حركـة تطمـح إلـى توحيـد العالـم: فحينـذاك، وأوّل مـرّة فـي التاريـخ، بـدأ توسّـع أوروبـا بسـبب اقتصادهـا الصناعـيّ المندفـع إلـى خـارج حـدوده بحثًـا عـن الأسـواق. إندفـاعٌ كهـذا لـم يكـن عسـكريًّا وسياسـيًّا فحسـب، بـل كان أيضًـا ثقافيًّـا ومؤسّسـيًّا يرشّـح معمورتنـا لأن تكـون، وعلـى نحـو غيـر مسـبوق، كونًـا واحـدًا، متّصـلًا ومترابطًـا. مـع التطـوّر المذكـور، بـدأت عزلـة المناطـق النائيـة وانغلاقهـا يتعرّضـان لتحـدٍّ غيـر محسـوب.

هـذا الوافـد الجديـد جـاء بالسـلاح الـذي يضمـن بطبيعـة الحـال غلبـة الغالـب، لكنّـه جـاء أيضًـا بالمدرسـة وبالسـكّة الحديـد وبالمستشـفى. أول مـرّة، كان الغـازي يعلّـم المغـزوّ كيـف يقاومـه وكيـف يسـتقلّ عنـه: ذاك أنّ شـعوب المسـتعمَرات تعرّفـت، مـن خـلال مسـتعمِرها، إلـى الحـزب والصحافـة والنقابـة التـي مـا لبثـت أن اسـتخدمتها سـلاحًا ضـدّ... الاسـتعمار.

صحيـح أنّ العقـود اللاحقـة برهنـت أنّ ذلـك التفـاؤل بوحـدة العالـم كان متسـرّعًا ومبالَغًـا فيـه. فالهويّـات الدينيّـة والقوميّـة مـا لبثـت أن اسـتجمعت قواهـا وردّت بقـوّة، وكان للعنـف الكولونيالـيّ، الوحشـيّ أحيانًـا والعنصـريّ أحيانًـا أخـرى، دوره المؤكّـد فـي اسـتثارة ذلـك الـردّ. كمـا أنّ التفـاوت الـذي أبدتـه جماعاتنـا المحلّيّـة فـي اسـتقبال الوافـد الغربـيّ، وفـي الحماسـة لـه، عـزّز، وطـوّر، انقسـامات اتّصـف بهـا البنـاء اللاحـق للـدول والأنظمـة. وبعـد كلّ حسـاب، لـم يطـل بنـا العهـد حتـى رأينـا حركـة كـ «جماعـة الإخـوان المسـلمين» تنشـأ فـي ١٩٢٨.

مـع هـذا، رُسـمت وجهـة تقدّميّـة وأمميّـة للمسـتقبل، وكانـت الجامعـة الأميركيّـة بيـن أبـرز راسـميها. يكفـي القـول، بهـدف المقارنة، أنّ سـتّينيّات القـرن التاسـع عشـر هـي أيضًـا عقـد النـزاع الأهلـيّ والطائفـيّ فـي جبـل

لبنان، فأيّ الوجهتين التأسيسيّتين نختار من حيث المبدأ: تلك التي تجهد لربط منطقتنا بالعالم الأوسع، أم تلك التي لا تتحمّل عيش طائفة صغرى في جوار طائفة صغرى أخرى؟

بالطبع، هناك دائمًا محامو دفاع عن تاريخنا السابق للاستعمار بعجره وبجره، ممّن سيقولون إنّ الطوائف، بالشكل الذي نعرفه، ما هي إلّا نتاج من نتاجات الاستعمار والرأسماليّة. وهذا قد يكون صحيحًا شرط أن نضيف أنّ الطوائف المذكورة إعادة إنتاج لبنى عصبيّة سابقة عليها، لعالمٍ من الملل والنحل، لا تصله صلة بالاستعمار وبالرأسماليّة.

وفي مطلق الحالات، كانت الوجهة الجديدة قد وجدت صياغتها الأولى، الأكمل والأنبل، على لسان دانيال بلسّ، رئيس الجامعة الأميركيّة، لدى تدشينه «كوليدج هول» في ١٨٧١: «هذه الكلّيّة هي لكلّ شروط البشر وطبقاتهم، في معزل عن أيّ اعتبار للّون والقوميّة والعِرق أو الدين. المرء، أكان أبيض أو أسود أو أصفر، مسيحيًّا أو يهوديًّا أو محمّديًّا أو غير مؤمن بدين توحيديّ، يستطيع أن يدخل إلى هذه المؤسّسة ويستفيد من كلّ مزاياها، [يستطيع ذلك] لثلاث سنوات أو أربع أو ثمانٍ، ثمّ يمضي في طريقه مؤمنًا بإله واحد، أو بعدّة آلهة، أو بلا إله».

أمّا مفاعيل الوجهة الجديدة هذه، كما مثّلتها الجامعة الأميركيّة، فظهرت على غير صعيد. فضدًّا على التكوين التقليديّ للحيّ السكنيّ الشرقيّ، بوصفه امتدادًا للعلاقات القرابيّة وروابط الدم، أدّت الجامعة الأميركيّة إلى خلق حيّ من نوع آخر: إنّه «رأس بيروت»، حيث لا يقيم بالضرورة الإخوان أو أبناء العمّ في شقّتين متلاصقتين، ولا يتحوّل صاحب الدكّان في القرية إلى صاحب السوبرماركت في المدينة، يتزوّد بسلعه أبناء قريته الذين هبطوا

معه إلى بيروت. هنا، في رأس بيروت، صار السودانيّ جارًا للأميركيّ في البناية نفسها، كما بات النازل من جبله في الكورة أو ضهور الشوير جارًا للعراقيّ أو البريطانيّ الآتي من وراء البحار. مفهوم الجوار، إذًا، بات يكتسب معنًى حديثًا، حيث غدت الحرّيّة والخيار الفرديّ يؤدّيان الدور الذي كانت تؤدّيه القرابة الموروثة والمفروضة بقوّة الدم.

ومثلما تعارف البشر، وتزاوج «الغرباء» أو تصادقوا في ما بينهم، تداخلت اللغات والأزياء والمطابخ والعادات لتشكّل بيئة متعدّدة ومُلوّنة تقف في مقابل قيم العصبيّة الضيّقة وعلاقاتها.

وبالتأكيد، كان من الإنجازات الكبرى أنّ الجامعة الأميركيّة نشأت جامعةً للشرق الأوسط، لا للبنان فحسب. فيها تخرّج شبّان وشابّات من العالم العربيّ نقلوا إلى مجتمعاتهم وإلى نُخَبها بعض ما يجدّدها ويغنيها. حصل هذا فيما كانت الدول العربيّة المستقلّة حديثًا، أو التي كانت تستقلّ، في أمسّ الحاجة إلى أن تستغني عن كوادر أنظمة الانتداب والاستعمار، وأن تتمتّع بكوادرها الوطنيّة التي تسيّر إداراتها وتعليمها.

وفي الجامعة الأميركيّة، ومن خلال الحضور الفلسطينيّ المميّز، تطعّمت النخبة اللبنانيّة، وهي الفرانكوفونيّة تقليديًّا، بأنغلوفونيّين كان يحتاج إليهم الاقتصاد اللبنانيّ بإلحاح في حقبة ما بعد الاستقلال. لقد تواكب هذا التحوّل الكبير مع مستجدّات ما بعد الحرب العالميّة الثانية وانحسار النفوذ الفرنسيّ، السياسيّ كما الاقتصاديّ، لمصلحة النفوذ الأميركيّ، وجزئيًّا البريطانيّ.

لكنْ، ربّما كان أهمّ ما انتقل إلينا بقيام الجامعة الأميركيّة تعرُّفنا إلى قيمة النقد وإفادته لجسم المنقود. فلا نبالغ إطلاقًا حين نقول

إنّ هذه المؤسّسة تعرّضت، طوال تاريخها، لكمٍّ من هذا النقد الصادر عن أساتذة وطلّاب فيها، بل لكمٍّ من التشهير السياسيّ، لم تعرفه مؤسّسة أخرى في الشرق الأوسط. بيد أنّ ذلك كلّه لم يُضعفها، بل حصل العكس: فهي احتفلت في ٢٠١٦ بالذكرى الـ١٥٠ لتأسيسها، وهو عمر لا تطمح إلى رُبعه مؤسّساتنا المحلّيّة التي كثيرًا ما تذوي بعد سنوات قليلة على نشأتها، إمّا تحت وطأة النزاعات الأهليّة والانقلابات العسكريّة، وإمّا بسبب التركيبة العائليّة التي تحكمها وتتحوّل قيدًا على استمرارها.

وبالفعل، تعرّضت الجامعة خلال تلك السنوات الـ١٥٠ لما تعرّض له سواها من المؤسّسات في لبنان. فهي أيضًا تلقّت آثار النزاع الأهليّ في ١٩٥٨، ثمّ حرب السنتين في (١٩٧٥-١٩٧٦)، وبعدها المعارك والمجابهات التي عرفتها الثمانينيّات، وبعضها حصل في بيروت نفسها وفي أحياء لا تبعد كثيرًا من رأس بيروت. وممّا لا يُنسى أنّ ظاهرة خطف الأجانب التي ازدهرت في الثمانينيّات، استهدفتها كونها... أميركيّة. ولم يكن مالكولم كير الذي اغتيل في مطالع ١٩٨٤ الضحيّة الوحيدة لتلك الهمجيّة التي طغت يومذاك باسم إله متجهّم وعديم الرحمة.

لقد انتسبت الجامعة الأميركيّة فعلًا إلى مشاكل المنطقة، وإن اعتمدت التقوقع والانكفاء عن لحظات عصفها الأكثر جنونًا، إلّا أنّها اختلفت بتقديمها حلولًا لا تزال المنطقة بعيدة جدًّا من أن تأخذ بها.

آباء وأبناء، زوجات وأصهار

بعد ثورة إيران، ومع الانتخابات الأولى لاختيار رئيس للجمهوريّة، أشار آية الله الخميني بيده إلى أبو الحسن بني صدر، وقال: «هذا ابني». العبارة المقتضبة والمتشاوفة التي وصف بها شيخ الثورة أحد شبّانها، حوّلها الأخير إلى برنامج سياسيّ. فهو بالكاد تناول السياسة والاقتصاد، الذي هو موضوع تخصّصه، مركّزًا على ما قاله عنه آية الله. هكذا، حقّق فوزًا صارخًا بوّأه رئاسة الجمهوريّة الأولى في إيران الجمهوريّة.

بني صدر لم يكن أكثر من أستاذ جامعيّ عاديّ وواحد من معارضين كثيرين للشاه يعيش في فرنسا، فعندما نُفِيَ الخميني إليها، بعد سنوات نفيه إلى العراق، توثّقت علاقة «الابن» بـ «أبيه»، حتى صارت تنوب عن كلّ تعريف آخر.

وإذ انقضى نحو من أربعة عقود، علّق ميشال عون على استقالة سعد الحريري من الرياض، فقال إنّ رئيسَ حكومته «ابنُه»، وأنّهما دخلا معًا إلى الرئاسات ومعًا يخرجان منها. ومعروفٌ أنّ عون، بحسب لقبٍ بات شائعًا، هو «بيّ [أبو] الكلّ»، يستطيع أن يسمّي أيّ لبنانيّ «ابني». وفي ترسانتنا سوابق كبرى ذائعة الصيت في أبوّة السياسيّين: فمصطفى كمال عُرف بالاسم الذي فاقت شهرتُه شهرةَ الاسم الأصليّ: «أتاتورك»، أو «أبو الأتراك»، أمّا جوزيف ستالين، «الأمميّ»، فغدا «أبا الشعوب» قاطبة.

والأبوّة سلكت، في عصرنا، طرقًا شتّى، استند أحدها إلى خلفيّة كاثوليكيّة لا يخطئها البصر. فقد تغلّبت، في التقليد هذا، صورة الأب ـ الزوج على صوره الأخرى، فيما تُرك للأمّ الطاهرة، التي تستأنف النموذج المريميّ، أن تسلّط الضوء على القدرات الخارقة للزوج ـ الأب. ولم يكفّ الزعماء ـ الآباء، الفاشيّون منهم والشعبويّون

والعُظاميّون والبين بين، عن تقريب الدولة من عائلة كهذه. فبنيتّو موسوليني رفع زوجته راشيل إلى مصاف المثال الذي ينبغي أن تقلّده الإيطاليّات، مع أنّه لحظة القبض عليه وإعدامه في ١٩٤٥ كان مصحوبًا بعشيقته كلاريتّا بيتاتشي، لا بزوجته. وكان الزعيم الأرجنتينيّ خوان بيرون مبكّرًا في نوع من التوريث المضبوط انتخابيًّا: فبعد أن فشلت محاولة ترشيح زوجته «الأسطوريّة» الأولى إيفا، عام ١٩٥١، لتكون نائبته في رئاسة البلد، نجحت المحاولة في ١٩٧٤ مع زوجته الثانية إيزابيل، ما جعلها تتولّى الرئاسة سنتين بعد رحيله في ١٩٧٦. وبدرجة أدنى من الضبط الانتخابيّ للتمدّد العائليّ، تأثّر الحبيب بورقيبة، ذو الثقافة الفرنسيّة، بهذا المنحى، مسمّيًا زوجته وسيلة «الماجدة» بين التونسيّات ومفوّضًا إيّاها أدوارًا ومهمّات بارزة. أمّا في الفيليبيّين، فمن دون ضبط، منح فرديناند ماركوس زوجته إيميلدا «حقّ» التحكّم شبه المطلق في الفيليبّينيّين.

ما لا شكّ فيه أنّ في الأبوّة هذه، على تعدّد صيغها، إفراطًا في الفصاحة يراهن على سذاجة المتلقّي. فالخميني، بعد سنة ونصف السنة فحسب، غضب على «ابنه» بني صدر الذي هرب تحت جنح الظلام من جمهوريّة «يرأسها»، كي يحفظ رأسه في فرنسا. ونعرف أنّ أهمّ تحالفات عون السياسيّة تحالفُه مع الطرف الذي يتّهمه الحريري بقتل أبيه البيولوجيّ. ولئن صادرت أبوّةُ أتاتورك ألسنةَ البنين الأتراك وطرائقهم في الحياة واللباس والعبادة، فإنّ أبوّة ستالين قايضت حياة البنين السوفيات بأبخس الأثمان.

ومع كلّ زغل الأبوّة، يبقى إفراطها في الفصاحة إنسانيًّا جدًّا، وبالتالي صلبًا جدًّا، بعضه يقيم في ضعف البشر الأبناء وبعضه في جبروت الزعماء الآباء. فالأبوّة، عَرَضًا لها وطلبًا عليها، صورة مكرورة وشائعة على مستويات لا حصر لها، أعلاها علاقة الله بنا، هو الذي ترسمه الأديان عمومًا، والمسيحيّة خصوصًا، أبًا أعلى.

والحال أنّ النظام المَلَكيّ، قبل أن يغدو دستوريًّا، كان الأصدق والأدقّ في هذه الأبويّة، أي في المماثلة الصريحة بين الملك الأب، واستطرادًا الله وقد صُغّر حجمه، وبين الرعيّة الأبناء. فهذه الأبوّة المطلقة إذ تستضعف الأب البيولوجيّ تلبّي هواية الحكم المطلق في الاحتكار المطلق، ذاك أنّ الصلة البيولوجيّة إنّما تُزاح لتحلّ محلّها صلة مفادها التبعيّة «السياسيّة» التي يتحكّم فيها طرفها الأقوى. لكنْ، في المقابل، يُحتَفَظ في العلاقة السياسيّة المذكورة بثوابت التركيبة العائليّة وهندستها، كما يُحتفَظ بدلالات بسيكولوجيّة باتت معروفة جدًّا. فالأب القويّ يستطيع ما لا يستطيعه الأب البيولوجيّ الضعيف من توسيع العازل بين الأمّ والابن الذي ينافس الأب عليها، وفقًا للمقولة الفرويديّة التي صارت كليشيه. وما الأمّ، والحال هذه، إلّا الأمّة والشعب. هكذا، لا يعود الفرد ـ المواطن يتّصل بشعبه وأمّته، أو يتواصل معهما، إلّا عبر وساطة الأب الكلّيّ القدرة.

على أنّنا في العقود الأخيرة، بدأنا نشهد الآباء يرتدّون عن المعنى الأتاتوركيّ ـ الستالينيّ إلى المعنى الذي قصدتْه المَلكيّات المطلقة البائدة، كما إلى صورة العائلة التي حافظ عليها التقليد ذو الخلفيّة الكاثوليكيّة. فالأبناء، أي «الشعب»، لم يعودوا مجازيّين بأيّ معنى من المعاني. لقد صاروا الأبناء البيولوجيّين إيّاهم: فمن جهة، تقلّص ذلك «الشعب» إلى فئات وشرائح أضيق وأشدّ منظوريّة يعود عليها وحدها الانتفاع بالبنوّة، ومن جهة أخرى، لم يعد رفاق درب عقائديّون كعصمت إينونو ونيكيتا خروتشيف يرثون أتاتورك وستالين، إذ ورّث كيم إيل سونغ، في ١٩٩٤، ابنه الذي هو من لحمه ودمه، كيم جونغ إيل. وكيم الأوّل، كما نعرف، سبق أن خصّ كلّ واحد من أقاربه بوظيفة في صنع التاريخ. أمّا نجله كيم الثاني فبدوره ورّث نجلَه كيم جونغ أون ليصير كيم الثالث. وإذ فعل حافظ الأسد الشيء نفسه بتوريثه ابنه بشّار، فقد حاول ذلك صدّام

حسين بتوريث عُدَيّ، ومعمّر القذّافي بتوريث سيف، وحسني مبارك بتوريث جمال، وعلي عبدالله صالح بتوريث أحمد، غير أنّ الموت أو سقوط النظام أو الحدثين معًا حالا دون ذلك.

وإلى هذا، تصاحب الارتداد مع تحوّل آخر، فلم يعد مطلوبًا من الأب أن يكون حائزًا على انتصار كالذي حقّقه أتاتورك وستالين. صارت الهزيمة تكفي، شرط نجاح المهزوم في تعليبها انتصارًا. لقد غدا التوريث البيولوجيّ المطلق يتعايش مع عدمٍ مطلق في الإنجاز، عدمٍ لا يملأ فراغه إلّا الترويج الإعلاميّ للمنتفعين. وبالطبع، بدت الصحافة والتلفزيون المؤمّمان، وكذلك المؤتمرات الحزبيّة، على أتمّ الاستعداد لذلك.

بهذا، زادت الفصاحة ركاكةً. فالارتداد من التوريث الحزبيّ ـ الجهازيّ إلى التوريث العائليّ المحض نمّ عن تراجع التعويل على «القضيّة» التي يُفترض بها الجمع بين الأب وأبنائه، أي شعبه. هكذا، بات من السهل استبدال حصر الثروة والسلطة بالحزب والجهاز الحاكمين، «الممثّلين» للشعب والقضيّة، بحصرهما بالعائلة القرابيّة. فوق هذا، تراجعت الحاجة، لدى أنظمة العسف، إلى التظاهر باحترام الشعب والوقوف على رأيه، فطوال سنوات السحق والاستهانة بالمحكومين، بات يُنظر إلى هؤلاء كما لو أنّهم حشرات لا تملك في الأصل رأيًا ولا حاجة بالتالي لافتعال الوقوف على رأيها.

بيد أنّ الارتداد إيّاه شابَهُ فساد ثقافة الدم وإفسادها، ولن تكون إلّا الرثاثة، وهي غالبًا عنيفة، حصيلة استعادة المَلكيّة المطلقة في زمن الدمقرطة والحداثة. في جوّ موبوء كهذا ناجم عن عقود من تحطيم السياسة والاجتماع، والتعامل مع المواطنين كحشرات، لم يعد ثمّة خجل يُذكر في إتيان ما كان سببًا للخجل، فإذا القوميّ والاشتراكيّ السابقان محاميا قبيلتيهما بالمعنى الذي قصده الجاهليّون

في الشاعر. وفي كونٍ راحت تنسجه ثقافة القرابة، ومع تعديل هنا وتكييف هناك، بات جائزًا لأفراد آخرين في الأسرة أن يطمحوا، هم أيضًا، إلى الكعكة، وإلّا فبشطر كبير منها، إن لم يكن بالتساوي مع الابن البيولوجيّ ففي مرتبة تلي مرتبته.

وتدلّنا أواسط السبعينيّات إلى محطّة على هذا الطريق: ففي ١٩٧٦، حاولت جيانغ كوينغ، زوجة ماو تسي تونغ الدمويّة والمهووسة، الاستيلاء على نظام زوجها الراحل توًّا، متعاونةً على هذا مع رفاقها الثلاثة في «عصابة الأربعة». وفي العام نفسه، سُمِّي راؤول كاسترو نائبًا أوّل لشقيقه حاكم كوبا فيديل (ثمّ لاحقًا، في ٢٠٠٦، بدأ إعداده ليحلّ محلّ شقيقه المتداعي).

وهذان كانا نظامَي حدّ أقصى في الأدلجة والحزبيّة يُعيَّر السوفيات بعجزهم عن اللحاق بهما. إلّا أنّ ذلك بات نهجًا للراديكاليّين وأنصاف الراديكاليّين من كلّ صنف ونوع. فالزعيم النيكاراغويّ والساندينيّ دانيال أورتيغا ما لبث أن أحلّ زوجته روزاريو موريّو على لائحته الانتخابيّة نائبةً له. وكان النصف الأوّل من الثمانينيّات زمن الانشغال السوريّ بمحاولة رفعت الأسد وراثة شقيقه حافظ، المريض يومذاك. ثمّ مع الثورات التي عصفت بأوروبا الوسطى والشرقيّة، سُلّط ضوء كثير على إلينا تشاوتشيسكو التي كانت نائبة رئيس حكومة رومانيا في ظلّ رئاسة زوجها نيقولا. أمّا مع الثورات العربيّة، فاستعيدت على نطاق واسع سيرة ليلى طرابلسي بن عليّ ومناوراتها للحصول على تزكية زوجها زين العابدين بوصفها وريثة له. وهي صورٌ لنساء استحضرتهنّ، قبل أسابيع قليلة، غرايس موغابي التي طمحت لوراثة زوجها المسنّ روبرت، قبل أن يطيح الاثنين انقلابٌ نفّذه ضبّاط زيمبابوي.

في هذه الخانة، لا يندرج «التقليد الآسيويّ» الذي يتمثّل في قائمة

طويلة من السيّدات اللواتي ورثن آباء أو أزواجًا، كأنديرا غاندي (وابنها رجيف) في الهند، وحسينة واجد وخالدة ضياء في بنغلاديش، وسيريمافو باندرانيكه (وابنتها شاندريغا كوماراتونغا) في سريلانكا، وبنازير بوتو (وزوجها آصف زرداري وابنها بيلاوال) في باكستان، وإلى حدّ ما كورازون أكينو (وابنها بنينو) في الفيليبّين، وأونغ سان سو كيي في بورما. فهؤلاء، وإن استندن إلى ميراث عائليّ راسخ ووطيد، ونهلن من ثقافة تقليديّة تحتلّ العائلة صدارتها، خُضن انتخابات جدّيّة خسرن بعضها وكسبن بعضها الآخر. والاستثناء نفسه يسري، وإن اختلفت الأسباب والتعابير، على عائلتَي بوش وكلينتون في الولايات المتّحدة، أو بيار وجوستين ترودو في كندا، وما قد يماثل هذه العيّنات في البلدان الديمقراطيّة الغربيّة.

لكنّ أغلبيّة التجارب تُظهر أنّ إثقال السياسة بالرابط العائليّ، وصولًا إلى التوريث، يلازم الأنظمة المغلقة والاستبداديّة، من غير أن يختفي في الأنظمة الديمقراطيّة وشبه الديمقراطيّة حين تفتك بها شعبويّة تنمو على حساب الرقابة والشفافيّة. وليس بلا دلالة أنّ التراكيب الناشئة عن عمل نضاليّ، على اختلاف أيديولوجيّاتها، غنيّة بتعابير كهذه. فنحن نراها اليوم في التركيبتين الكرديّتين، الطالبانيّة والبارزانيّة، وهما عائليّتان أصلًا، إذ خلّفت الأولى الزوجة هيرو والابنين بافل وقباد، كما خلّفت الثانية ابن الأخ نيجيرفان والابن مسرور. أمّا في التجربة الفلسطينيّة، وإن لم يُترجم الأمر حتى الآن إلى موقع سياسيّ واضح، فالمؤكّد أنّ ثروة ياسر وطارق، ابني الرئيس محمود عبّاس، ليست خارج السياق هذا. ولا تزال حركة طالبان تكيّف هيئاتها القياديّة بما يوفّر للملّا يعقوب، نجل المؤسّس الملّا عمر، موقعًا قياديًّا ملائمًا. أمّا مريم رجوي فتبقى علامة فارقة، هي التي جعلها الزواج بـ «المناضل» مسعود رجوي زعيمة لـ «مجاهدي خلق» و«رئيسة مقبلة لإيران»، إذ «انتخبها»

لهـذا المنصـب «مجلـس المقاومـة الوطنيّـة الإيرانيّـة». وهـو عالـم لا تسـتطيع ديمقراطيّـة ضعيفـة كتلـك الباكسـتانيّة أن تطـوّع دمويّتـه ونزوعـه العنفـيّ، بدليـل المصيـر الـذي انتهـى إليـه مرتضـى بوتـو، شـقيق بنازيـر الـذي اغتيـل فـي ١٩٩٦. وهـذا، بالطبـع، فـارق آخـر عـن التنافـس داخـل العائلـة الواحـدة فـي بلـد ديمقراطـيّ وطيـد، وإن كانـت المعنيّـة بالأمـر عائلـة كعائلـة لوبـن الفرنسـيّة.

فـي الأحـوال كافّـة، لـم يقتصـر الانتقـال مـن الحزبـيّ ـ الجهـازيّ إلـى العائلـيّ علـى ترفيـع الزوجـات والإخـوة إلـى ذروة السـلطة ودوائـر النـزاع عليهـا. فالأصهـار مـا لبثـوا، بدورهـم، أن دلفـوا. وإذا كان أشـرف مـروان، صهـر جمـال عبدالناصـر، تمثيـلًا مبكـرًا فـي منطقتنـا علـى هـذه العلاقـة، فنظامـا صـدّام حسـين وحافـظ الأسـد قدّمـا للعالـم أصهـارًا بارزيـن، كحسـين كامـل وصـدّام كامـل فـي الحالـة الأولـى، وآصـف شـوكت فـي الحالـة الثانيـة. وبعـد تجربـة بائسـة فـي عهـد بوريـس يلتسـن، رمـزت إليهـا الابنـة تاتيانـا دياشـنكو وزوجهـا، الصهـر، فالنتيـن يوماشـيف، مـا لبـث الكرمليـن أن زهـا بصهـر فلاديميـر بوتيـن، رجـل الأعمـال كيريـل شـامالوف، ابـن نيكـولاي شـامالوف، أحـد مالكـي بنـك روسـيا. وفـي الولايـات المتّحـدة، ومـع انتخـاب دونالـد ترامـب رئيسًـا، لمـع اسـم صهـره جـارِد كوشـنر، فتباهـى العونيّـون فـي لبنـان بـأنّ اللبنانيّيـن، هنـا أيضًـا، يجـارون العصـر مـن خـلال جبـران باسـيل، صهـر ميشـال عـون الـذي ينازعـه صهـر آخـر لعـون هـو شـامل روكـز. فبعـد تمرينيـن أوّليّيـن لليـاس الهـراوي مـع صهـره فـارس بويـز، ولإميـل لحّـود مـع نجلـه إميـل الصغيـر، جـاءت الثالثـة ثابتـة ومتينـة.

غيـر أنّ طـرق الزوجـات والأصهـار ليسـت معبّدة كطـرق الأبنـاء. فبالقيـاس إلـى ثقافـة الـدم، مـع اسـتيلاء العالـم الصغيـر للقريـة والديـن علـى المخيّلـة السياسـيّة، تبقـى الزوجـة والصهـر غريبيـن. وإذا راجعنـا مصائـر

النساء الوارثات والطامحات وجدنا أنّ معظمها ينتهي بالفواجع، فهنّ قد يسبقن الزوج إلى الإبعاد والتبعيد، كما حلّ بوسيلة التي طلّقها بورقيبة ونزع عنها لقبها قبل عام على إزاحته. وقد تفضي محاولتهنّ بعد رحيل الأزواج إلى موتهنّ غير مأسوف عليهنّ، كما حلّ بأرملة ماو، وقد يهربن مع الأزواج كما حصل لليلى بن علي، أو يُقتلن معهم على النحو الذي اختُتمت به حياة إلينا تشاوتشيسكو. فهنّ، بالتالي، يعانين نقصين، واحدًا في «أصالة» الدم إبّان فورة الثقافة الدمويّة كمرجع وبوصلة، وآخر في أنّهنّ نساء يعشن ويمتن في فيء الأزواج، لا سيّما أنّ ثقافة الدم إيّاها تستحضر الذكورة والذكوريّة بقوّة وإلحاح.

أمّا الأصهار فوضعهم قد يكون أصعب. فهم، كالزوجات، «غرباء»، متّهمون سلفًا بانشطار الولاء بين العائلة التي جاؤوا منها والعائلة التي استقرّوا فيها. لهذا، قد يجهد الصهر كي يبدو منتميًا أصليًّا إلى العائلة الجديدة، مُزايدًا أحيانًا في إبداء هذا الانتماء وفي كونه «سند الظهر» لأهل الزوجة. بيد أنّ محاولاته قد لا يُكتب لها التوفيق لأسباب عدّة: فالعائلة الحاكمة والمالكة قد لا ترضى بأقلّ من تذويب الصهر على نحو يُمحَى معه كلّ ماضٍ له وكلّ هويّة سابقين، «وصهرَ الشيء فانصهر، أي أذابه»، بحسب «مختار الصحاح». وقد يشعر الأب الذي تنطبق عليه بعض ترسيمات علم النفس المدرسيّ بأنّ الصهر ينافسه على ابنته، فلا يتعاطف معه إلّا إذا كان يعاني تهديدًا أكبر من الابن الذي يريد «قتله». وقد تشعر الأمّ «الغريبة» بأنّها تحجب غربتها عن الأنظار بأن تذكّر بغربة صهرها الأحدث عهدًا والأكثر قابليّة للتذكّر والتذكير. أمّا النجل الأكبر فقد يشعر بأنّ الصهر منافس محتمل على السلطة التي يملكها الوالدان وقد يورّثانها، لا سيّما متى اندرج المتنافسان في خانة عمريّة واحدة، على ما هي حال جارِد كوشنر ونجلي

دونالـد ترامـب، دونالـد الابـن وإريـك. وكان ترامـب الأب نفسـه قـد أسـرّ لاسـتراتيجيّه السـابق سـتيف بانـون بـأنّ كوشـنر يـزوّده «نصائـح سياسـيّة سـيّئة»، كمـا لامـه علـى تسـريح مستشـاره السـابق للأمـن القومـيّ مايـك فلِـن والمديـر السـابق لــ أف بـي آي جيمـس كومـي.

وهـذه تبقـى صفحـة بيضـاء قياسًـا بالصفحـات السـود والحُمـر الكثـيرة في مـا خـصّ علاقـة الحاكـم وابنـه بصهرهـما. فالأخـير قـد لا يحتمـل قوّتهـما وفحولـة هـذه القـوّة التـي تتبـدّى لـه عدوانًـا عليـه وعـلى فحولتـه. وهـو مـا يُضعـف «ولاء الزوجـة» التـي لا تـرى زوجهـا، الصهـر، مصـدرًا للنجـاح، بـل تـرى في نجاحاتـه براهـين أخـرى عـلى قـوّة الأب المُعطـي. وفي غابـة الأحقـاد المخبّـأة هـذه تبـيّنَ، وإن في وقـت متأخّـر، أنّ أشرف مـروان كان يتجسّـس عـلى «عمّـه» عبدالنـاصر، وبعدمـا قتـل صـدّام حسـين صهريـه «المتآمريـن»، نسـجت الألسـنة والتقديـرات علاقـةً لبشّـار الأسـد بمقتـل آصـف شـوكت الـذي سـبق لأخيـه باسـل أن مقتـه. كذلـك، تبـيّن أنّ لعبدالفتّـاح السـيسي صهـرًا يُدعـى محمـود حجـازي، تسـلّم رئاسـة أركان القـوّات المسـلّحة قبـل أن يُعفـى منهـا. أمّـا زوج عمّـة كيـم جونـغ أون، جانغـا سـونغ ثايـك، وهـو صهـر عائلـة كيـم، فتضاربـت الأخبـار حـول مقتلـه وإنِ اتّفقـت عـلى وحشـيّة القتـل نفسـه.

وإذ تفـحّ رائحـة المافيـا مـن هـذا كلّـه، والمافيـا عائلـة بعـد كلّ حسـاب، فالخـوف الأكبـر هـو أن تسـتمرّ طويـلًا هـذه «الشـرعيّة» العائليّـة، وسـط هـذا الانحطـاط الطاغـي، وأن يصـدق أولئـك الذيـن يتهدّدوننـا اليـوم بحافـظ بشّـار الأسـد.

موت الجاسوس الساحر...

مـاذا سـيكون جوابهـم إذا سـئل ألـف شـخص مـن الجنسـين، مـن مختلف الفئـات العمريّـة والطبقـات الاجتماعيّـة والسـويّات التعليميّـة، وفـي عدادهـم عـدد مُعتبَـر مـن الممانعيـن («المناضليـن الوطنيّيـن الشـرفاء» إلـخ...)، السـؤال التالـي:

إذا أتيـح لأيٍّ منكـم أن يشـابه، هـو أو ابنـه، واحدًا من اثنين: «الجاسـوس» جيمـس بونـد أو أيّ «شـهيد» يخطـر فـي البـال قـدّم حياتـه نفسـها فـدى القضيّـة والوطـن، فـأيّ الاثنيـن يختار؟

أغلـب الظـنّ أنّ ٩٠ فـي المئـة منهـم علـى الأقـلّ سـيختارون جيمـس بونـد، كاشـفين عـن تضارب كبيـر بيـن مقدّماتهـم الفكريّـة والتصوّريّـة واختياراتهـم العمليّـة.

بونـد، فـي هـذا المعنـى، ذو وظيفـة محـدّدة: إنّـه ليـس «جاسوسـنا» وليـس «جاسوسـهم علينـا»، حيـث يتدخّـل فـي الحالتين الهـوى الوطنيّ والسياسـيّ بمـا يحـدّ مـن الموقـف «الحيـاديّ» حيـال الجاسـوس بوصفـه وظيفـةً وتعبيـرًا عـن طريقـة حيـاة.

هاتـان الوظيفـة والطريقـة تفضّلهمـا علـى وظيفـة الشـهيد الوطنـيّ وطريقـة حياتـه (وموتـه) أكثريّـةٌ سـاحقة مـن المُسـتَفتين المفترضيـن.

هـذا مـا لا ينبغـي اسـتغرابه فيمـا تكشـف تجاربنـا ويوميّاتنـا أنّ السـلوك الإنسـانيّ كثيـرًا مـا تتناقـض نتائجـه مـع مقدّماتـه، ذاك أنّ النتائـج قـد تصـدر عـن مسـتويات فـي النفـس غيـر تلـك التـي تصـدر عنهـا المقدّمـات.

فنحـن، مثـلًا، نقـول جازميـن أنّ المسـتقيم فـي مواقفـه الصالحـة، خيـرٌ مـن المتذبـذب والألعبـان والانتهـازيّ. هـذا مـا تُعلّمنـا إيّـاه البيـوت

والأديـان والأخـلاق والمـدارس والعقائـد. لكنّنـا حيـن نشـاهد فيلـم «كازبلانـكا» الشـهير لا ننجـذب كثيـرًا إلـى فيكتـور لازلـو، القيـاديّ الشـهم والصلـب فـي المقاومـة التشـيكيّة. ننجـذب، فـي المقابـل، إلـى ريـك بلايـن (همفـري بوغـارت)، صاحـب الحانـة الليليّـة. لقـد كان بلايـن فـي بداياتـه صاحـب مبـدأ يضحّـي فـي سـبيله: هـرّب سـلاحًا لإثيوبيـا ضـدّ الفاشـيّين الطليـان، وقاتـل مـع الجمهوريّيـن فـي الحـرب الأهليّـة الإسـبانيّة. لكنّـه، بعـد إحباطـه الغرامـيّ بإيلسـا لونـد (إنغريـد بيرغمـان)، تحـوّل كائنًـا سـينيكيًّا، لا ينحـاز إلـى قضيّـة مُحقّـة، ولا يضحّـي بشـيء في سـبيل شـيء، بمـا فيـه مكافحـة النازيّـة. إنّـه مَـن يقتـرف المسـاومات الملوّثـة علـى غيـر صعيـد.

ريـك بلايـن هـذا، لا فيكتـور لازلـو، هـو الـذي صـار أيقونـة للجاذبيّـة، لا فـي السـينما فحسـب، بـل فـي الحيـاة أيضًـا.

فـي خانـة مشـابهة، ينـدرج مـا بـات عناويـنَ شـائعةً لـلأدب والسـينما، كـ «النـوم مـع العـدوّ» و«عشـق العـدوّ». لقـد ضحّـت «ابنـة رايـان» الإيرلنديّـة بأهلهـا وصِيتهـا وأبيهـا ووطنهـا وزوجهـا، المـدرّس الطيّـب والمحتـرم، بسـبب حبّهـا لضابـط إنكليـزيّ محتـلّ لبلدهـا إبّـان الحـرب العالميّـة الأولـى، أي فـي منـاخ الاسـتقطاب الكبيـر الـذي أحدثتـه «انتفاضـة الفصـح» الإيرلنديّـة ضـدّ الإنكليـز عـام ١٩١٦.

هـذا التناقـض إيّـاه يواجهنـا فـي تصـرّف الأصدقـاء المقرّبيـن لعائلـة خانـت المـرأةُ فيهـا زوجهـا، أو خـان الـزوجُ زوجتـه.

أولئك الأصدقـاء يحرصـون علـى إبقـاء الخبـر سـرًّا عـن الطـرف الـذي تعـرّض للخيانـة. فـي الآن نفسـه، يحمـون الطـرف الـذي خـان. بفعلهـم الأوّل يؤكّـدون ولاءهـم للعائلـة. بفعلهـم الثانـي يؤكّـدون تعاطفهـم مـع انتهاكهـا. الفعـل الأوّل يخـدم الاجتماعـيّ الـذي صُنعـوا عليـه. الفعـل

الثاني يخدم الإنسان ـ الراغب فيهم قبل أن تقمعه الأعراف وتضبطه الأخلاق السائدة.

تناقضات كهذه إنّما نلقاها صارخة في موقفنا من الجاسوس. هو، في مستوى ما، كائن ضارّ وسيّئ وعديم الأخلاق والمبادئ، وقد يكون مرتشيًا وقد يكون قاتلًا. إنّه تهديد «لحياتنا» أو «لوطننا» أو «لديننا». وغالبًا ما يكون تهديدًا لهذه كلّها معًا. وهو ذو ملامح شيطانيّة غالبًا ما ربطها الوعي الذكوريّ بالأفعى التي هي المرأة: ينسلّ ويتسلّل ويتلوّى ويتخفّى... هكذا، اعتبر ساموراي اليابان الإقطاعيّة أنّ التجسّس وضيع لا يليق بالرجال. إنّه يليق بالنساء فحسب.

لكنّ الجاسوس، في مستوى آخر، هو الفاتن، أو الفاتنة، الذي يملك معرفة وثيقة بالعالم وبلدانه ولغاته، وسجلًّا حافلًا بالمغامرات وما تنطوي عليه من براعة وذكاء وقدرة على الإيقاع بخصوم مغفّلين. إنّه ما يُغري الكثيرين بأن يكونوه.

قياسًا بكوزموبوليتيّة الجاسوس، العابر للوطنيّات والثقافات والبلدان، يبدو الوطنيّ والشهيد والمناضل أسماء مختلفة لضيق الأفق والمراوحة بين لونين بسيطين أو فكرتين فقيرتين: انتماء لثقافة دون أخرى، أو لبلد دون آخر، وأحيانًا لجماعة بعينها أو حيّ أو قرية. الثقافة الأخرى عنده «غزوٌ ثقافيّ».

صحيح أنّ الجاسوس، ما لم يكن مزدوجًا، يعمل أيضًا لمصلحة طرف واحد، لكنّه يفعل ذلك عبر الانغماس في الأطراف جميعًا، عبر معرفتها ومخالطتها واستبطانها وتقليدها، لا مقاطعتها والقطيعة معها. إيلي كوهين (إلياهو بن شاول كوهين) عاش في الأرجنتين بوصفه المهاجر السوريّ كامل أمين ثابت. أغلب الظنّ أنّه طوّر صداقته بالملحق العسكريّ السوريّ في بوينس آيريس أمين الحافظ

الـذي جعلـه الانقـلاب البعثـيّ فـي ١٩٦٣ حاكـم سـوريا العسـكريّ. إحدى الروايـات تذهـب إلـى أنّ الحافـظ رشّـح «هـذا المهاجـر الطيّـب الـذي يحـبّ وطنـه» لتولّـي وزارة الدفـاع السـوريّة.

هـذا مـا يرسـم للجاسوسـيّة وجهًـا لا يملكـه باقـي المثالـب الكبـرى، وهـو مـا راعـاه القانـون الدولـيّ الملتبـس حـول هـذه المهنـة الثانيـة قِدَمًـا فـي التاريـخ. فالدولـة المحاربـة ترمـي الدولـة التـي تحاربهـا بـكلّ الارتكابـات والصغائـر: إنّهـا تقتـل الأطفـال وتحـرق الأمـلاك ويمـارس جنودهـا الاغتصـاب... أمّـا الدولـة التـي تُطلـق التهـم فتبـرّئ نفسـها كلّيًّـا منهـا. لكـنْ، حيـن يصـل الأمـر إلـى التجسّـس، وهـو المـرذول والمُـدان أخلاقيًّـا، تتباهـى تلـك الدولـة بأنّهـا لا تقـلّ قـوّةً وقـدرةً عـن الدولـة العـدوّ. إنّهـا لا تقـول عـن نفسـها: نحـن نقتـل أكثـر ممّـا تفعـل الدولـة العـدوّ، أو نسـرق أكثـر، أو نغتصـب أكثـر. لكنّهـا تقـول: نحـن نتجسّـس أحسـن. هـذا التباهـي لا يقلّـل امتـلاك الحـقّ وزعـم تمثيلـه.

ولأنّ الأمـر هكـذا، اهتمّـت مصـر، مثـلًا، بـأن تؤلّـف صـورةً لرأفـت الهجّان (رفعـت علـي سـليمان الجمّـال) تلائـم التخيـيـل الـذي يطـاول الجاسـوس. فهـو أجـاد اللغـات الأجنبيّـة، والدتـه تفرّعـت عـن «أسـرة عريقـة»، وأخوه علّـم الإنكليزيّـة لشـقيق الملكـة فريـدة. أحـبّ المسـرح والسـينما ومثّـل فـي ثلاثـة أفـلام، وطـاف مـدن العالـم علـى ظهـر سـفينة. لكـنّ الهجّـان أيضًـا، ودومًـا وفـق الروايـة المصريّـة، عانـى الإحبـاط واليـأس، ولـم يكـن مسـتقيمًا فـي حياتـه وعلاقاتـه الشـخصيّة والماليّـة، اتُّهـم بالاختـلاس وكان مزوّرًا.

الروايـة المصريّـة إذًا تؤكّـد عناصـر كوزموبوليتيّـة فيـه كما تقـدّم التنازلات التـي لا بـدّ منهـا لموقفنـا الأخلاقـيّ مـن الجاسـوس. لكنّهـا فـي النهايـة تسـتحوذ عليـه وتتباهـى بـه. صحيـحٌ أنّـه «ابـن عاهـرة» لكنّـه «ابـن

عاهرتنا»، كما قال بن غوريون في وصف مناحيم بيغن. فنحن بارعون أكثر منهم في الجاسوسيّة، أي في هذا السقوط الأخلاقيّ تحديدًا. إنّه السقوط الوحيد الذي نقبل المنافسة فيه ونسعى إلى التفوّق.

رأفت الهجّان هذا نُشرت قصّته مُسلسَلةً في مجلّة «المصوّر» المصريّة قبل أن تصبح مسلسلًا تلفزيونيًّا شهيرًا... وهذا علمًا بوجود رواية إسرائيليّة تقدّمه عميلًا مزدوجًا خدم إسرائيل أكثر ممّا خدم مصر، ووفّر للأخيرة معلومات مضلّلة عن الأولى. اسمه لدى الإسرائيليّين جاك بيتون.

والحال أنّ ميل الحكومات المصريّة المتعاقبة للاستحواذ على الجاسوسيّة والتباهي بها نابع من إدراك صحيح للشعبيّة التي يوفّرها استحواذ كهذا. فالبشر، لا سيّما متى كانوا مهزومين ومحبطين، يزداد افتتانهم بالغامض والغريب الذي يأتيهم بما لا يستطيعونه هم، بدليل أنّهم مهزومون. فهو لا «يشبهنا» ولا يشبه «قصورنا» و«محدوديّتنا» اللذين هما جزء من عاديّة «حياتنا» الوطنيّة. وهو، فوق هذا، لا يشبه نفسه. إنّه يزوّر حتى نفسه. هكذا، سُمّي بول ديوكس، الذي يُصنَّف أوّل جاسوس محترف في العصور الحديثة، «الرجل ذا المئة وجه». لقد هرّب الكثيرين من «البيض» من سجون البلاشفة، ونجح في التسلّل إلى أعلى مراتب الحزب والدولة السوفياتيّين.

هذا ما يقرّب الجاسوس من الساحر بالقياس إلى الوطنيّ المسحور بنفسه وبنفسنا الجماعيّة المفترضة. الوطنيّ مطابق لتلك النفس، يقول إنّه يفديها بالروح والدم.

الساحر يأخذنا بعيدًا. المسحور يُبقينا في مكاننا، يحفر في ذلك المكان، ويُضجرنا.

فوق هذا، لا تنقلب الوطنيّة على نفسها. لا تؤدّي إلى ما هو غير منتظَر منها. إنّها تقيم في البطولة والتفاني كما تلدهما. غالبًا هي وظيفة للرجال.

الجاسوسيّة ولّادة احتمالات. قد توفّر رقعةَ مساواة في المهنة بين الرجال والنساء. أحيانًا تتفوّق النساء. التنميط الذي يشوبها قد ينقلب إيجابًا.

يزيد في غموض الجاسوس غموض تحليله واستقصائه اللذين يُفتَرض بهما أن يوضحاه ويجلواه. فالوطنيّ واضح، يتراوح بين مديح أهله الذي يندفع إلى التعظيم وهجاء أعدائه الذين يطلبون له حبل المشنقة. أمّا المعرفة بالجاسوس، ففضلًا عن قلّتها، ملتوية ومتضاربة، يصعب تأكيدها أو التأكّد منها. ولئن كان الانقسام حول الوطنيّ بسيطًا يُصاغ في تعبير أو تعبيرين بلا ظلال، فالانقسام حول الجاسوس يستجرّ روايتين غنيّتين تصلح كلٌّ منهما لأن تستولد روايات شتّى.

الجاسوسة الإسرائيليّة شولا كوهين، في الرواية اللبنانيّة، كانت تقيم سهرات كيفٍ يرتادها بعض عليّة القوم، وكان الجنس والدعارة، إضافة إلى المال، من أهمّ الوسائل التي استخدمتها. في الرواية الإسرائيليّة، هي نفسها أنقذت يهودًا في البلدان العربيّة إبّان فورة العداء لليهود قبيل حرب ١٩٤٨ وبعدها. لقد هرّبت عشرات الأطفال المهدّدين بالموت إلى الدولة العبريّة.

الفارق بين الروايتين هائل: فالأولى تستند إلى نظام أخلاقيّ يدور حول الجنس والجنسيّ ويستسهل التجاوز على المرأة، فيما الثانية تشدّد على نظام أخلاقيّ مغاير زبدتُه إنقاذ البشر، لا سيّما الأطفال، من موت ظالم. المسافة إذًا مزدوجة: بين نظامين متضادّين للأخلاق، وتاليًا بين مفهومين للرذيلة مقابل الفضيلة في أوسع معاني الصفتين.

والحقّ أنّ هذين الغموض والغرابة المتعدّدَي المصادر أحد الأسباب التي جعلت الجاسوسيّة صناعة جماهيريّة في زمن الحداثة: جيمس بوند، العميل السرّيّ البريطانيّ اخترعه في ١٩٥٣ إيان فلمينغ، وهو نفسه ضابط سابق في المخابرات البحريّة. لكنْ، بعد رحيل فلمينغ في ١٩٦٤، تعاقب على كتابة مغامرات بوند ثمانية مؤلّفين آخرين. أفلام «العميل ٠٠٧» شكّلت أطول مسلسل سينمائيّ في التاريخ وحصدت أكثر من سبعة بلايين دولار. منذ «دكتور نو»، الذي مثّله شون كونري في ١٩٦٢، ظهر ٢٤ فيلمًا بونديًّا كان دانيال كريغ آخر ممثّليها.

فضلًا عن الرواية والسينما، صار بوند بطلًا للتلفزيون والراديو والصور المتحرّكة وألعاب الفيديو. مَن يمثّل دوره ممنوعٌ، حفاظًا على الحصريّة، من أن يمثّل أيّ دور آخر. في ١٩٦٦ وحده، وبسبب نجاح تجربة بوند، ظهر ٢٢ فيلمًا عن الجواسيس.

لقد استثار جيمس بوند كلّ أنواع النقد: نسويّاتٌ قلن إنّه ذكوريّ. مناهضون للإمبرياليّة اتّهموه بأنّه يعكس حنينًا إلى الإمبراطوريّة. محافظون اعتبروه مُتعَويًّا يهدِّد القيم العائليّة. باردون في واقعيّتهم رأوا عوالمه إيكزوتيكيّة. مكافحون للعنصريّة سمّوه عنصريًا حيال غير البيض.

لكنّ أحدًا لم يشكّ في التسلية التي ينطوي عليها هذا الجنس الكتابيّ والسينمائيّ، وبالطلب الجماهيريّ على هذه التسلية، بما فيها الإطلال على تقنيّات مستقبليّة تتعدّى السيّارات والأسلحة.

دونالد هاملتون اخترع شخصيّة مات هيلم، واسمه الحركيّ «إريك»، كجاسوس أميركيّ مضادّ في الحرب الباردة. بين ١٩٦٠ و١٩٩٣، صدر ٢٧ كتابًا عن هيلم الذي لا يكبر، وطبعًا لا يموت. إنّه جاسوس لا عمر له.

ثـمّ، إذا كانـت الجريمـة أيضًـا موضوعًـا لصناعـة ضخمـة فـي الكتابـة والسـينما، فـإنّ شـخص المجـرم ليـس مُحبّبًـا ولا هـو موضـوع تقليـد وتمـاهٍ. الجاسـوس أمـره مختلـف.

هكـذا نقـع، أقلّـه فـي الأنظمـة الديمقراطيّـة و«الرخـوة»، علـى ميـل عقابـيّ ملتبـس حيـال الجاسـوس، التباسُـه يشـبه التبـاس القانـون الدولـيّ: مـن جهـة تشـدّدٌ تسـتدعيه صيانـة أمـن الدولـة والمجتمـع، ومـن جهـة أخـرى، رخـاوة يسـكنها الإقـرار بسـيولة الحيـاة وغنـى تناقضاتهـا.

ماتـا هـاري (مارغريـت ماكلويـد)، الراقصـة الهولنديّـة الإيكزوتيكيّـة التـي اتُّهمـت بالتجسّـس لألمانيـا إبّـان الحـرب العالميّـة الأولـى، ونفّـذ فيهـا الفرنسـيّون حكـم المـوت رميًـا بالرصـاص، كُرّمـت لاحقًـا بمـا يشـبه التكفيـر عـن ذنـب. لـم تُبـرّأ مـن الجاسوسـيّة، ولـم تُطهَّـر صورتهـا مـن الاتّهامـات الأخلاقيّـة («عاهـرة»). لكـنْ، جـرى، فـي المقابـل، التركيـز على مأسـاتها العائليّـة: العائلـة مكسـورة. الـزواج فاشـل. الـزوج حرمهـا حضانـة ابنتهـا. الابـن مـات بالسـفلس. كذلـك رُكّـز علـى كوزموبوليتيّتهـا وعلـى فنّيتهـا: اسـم «ماتـا هـاري» يعنـي «الشـمس» فـي لغـة الملايـا. عاشـت فـي جـزر الهنـد الشـرقيّة. أدخلـت إلـى باريـس، فـي السـنوات الأولـى مـن القـرن العشـرين، الرقـص الإكزوتيكـيّ والشـعبيّ فـي آن. واكبـت الوجهـة الأوروبيّـة يومـذاك فـي البحـث عـن الموضـة فـي آسـيا ومصـر. عرّفـت الأوروبيّيـن بهويّـة جـزر الهنـد الشـرقيّة ورقصهـا. مثّلـت، بعلاقاتها وبأسـفارها، تجـاوزًا للحـدود القوميّـة إبّـان بلـوغ القوميّـة ذروتهـا التـي تسـبّبت فـي الحـرب العالميّـة الأولـى. أُعدمـت وهـي فـي الـ٤١، وكانـت شـجاعة رفضـت وضـع عُصْبَـةٍ علـى عينيهـا، كمـا أرسـلت بيدهـا قبلـة للضبّـاط المولجيـن بإطـلاق النـار. جثّتهـا لـم تطالـب بهـا عائلـة، واسـتُخدمت فـي الأبحـاث الطبّيّـة. قُطـع رأسـها وحُفـظ فـي متحـف التشـريح بباريـس، لكنّـه ضـاع فـي ١٩٥٤ مـع نقـل مبنـى المتحـف إلـى

مـكان آخـر. وفـي النهايـة، كُرّمـت هـذه الجاسوسـة «العاهـرة» بـأن أقيـم متحـف لهـا وعنهـا فـي هولنـدا، فـي ٢٠١٧، فـي الذكـرى المئويّـة لإعدامهـا. بعـد موتهـا، أوحـت بأفـلام سـينمائيّة عـدّة مثّلـت فـي أحدهـا غريتّـا غاربـو. غـدت أيقونـة لبعـض النسـويّات.

لقـد تدخّلـت سـيولة الحيـاة، وفـي عدادهـا الإقـرار بماتـا هـاري الراقصـة، لتخفّـف، بمفعـول رجعـيّ، الحكـم الأخلاقـيّ ـ السياسـيّ الصـارم عليهـا. أبعـدُ مـن هـذا، نشـأ مـا هـو اعتـذاريّ منهـا فـي تقديـم سـيرتها علـى نحـو يجعلهـا تشـبه سِـيَر الأنبيـاء والأوليـاء، حيـث يضمـر حضـور العائلـة، ولا يظهـر منـه إلّا السـلبيّ المعيـق للنجـاح، بـل يختفـي الجسـد نفسـه وينفصـل عنـه الـرأس. حتّـى الجثّـة تمضـي فـي إتحـاف العالـم بمـا هـو جميـل أو مفيـد. وإذا كان مـن عيـوب الجاسوسـيّة أنّهـا تتسـبّب فـي مـوت الأبريـاء، فـإنّ قوميّـة الحـرب العالميّـة الأولـى تسـبّبت فـي مـوت ٩ ملاييـن نسـمة، فيمـا ماتـا هـاري كانـت عابـرة مبكـرة للقوميّـات والحـدود، أي مناهضـة للحـرب القاتلـة.

شـيء مـوازٍ نلقـاه فـي أسـمهان (الأميـرة آمـال الأطـرش): مولـودة علـى متـن باخـرة كانـت تُقـلّ العائلـة مـن تركيّـا. ابنـة وحيـدة كُتبـت لهـا الحيـاة فـي أسـرتها. والدتهـا «اضطُـرّت»، بعـد نشـوب ثـورة ١٩٢٥ فـي جبـل الـدروز، إلـى الهجـرة إلـى مصـر. الأمّ ـ الأميـرة غنّـت فـي القاهـرة، فـي حفـلات خاصّـة، لإعالـة أبنائهـا. الإبنـة، أسـمهان، تزوّجـت قريبهـا الأميـر حسـن الأطـرش وانتقلـت معـه إلـى قريـة عـرى فـي جبـل الـدروز. اِختلفـت مـع زوجهـا وعافـت الإمـارة والقريـة ورَجَعَـتْ إلـى مصـر لممارسـة الفـنّ.

لقـد تحـدّت أسـمهان، وفقًـا لسـيرتها الشـائعة، مسـلّمات اجتماعيّـة وتقلّبـت بيـن حـالات قصـوى غالبًـا مـا تحكّـم فيهـا ضجـر بوفـاريٌّ مـن الـزوج الواحـد والمـكان الواحـد والحيـاة الواحـدة.

بسبب تعاونها مع المخابرات البريطانيّة في الحرب العالميّة الثانية، والتي أرسلتها «في مهمّة» من القاهرة إلى جبل الدروز، تزوّجت ثانيةً بطليقها حسن الأطرش، الأمر المرفوض كلّيًّا عند الدروز. أهمّ من ذلك أنّها أخضعت الزواج «المقدّس» في بيئة بالغة المحافَظَة، لمتطلّبات مهنة غير محترمة هي: الجاسوسيّة. حسن الأطرش، من جهته، وهو الأمير والزعيم، وافق على «التعاون مع البريطانيّين» شريطة أن تعود أسمهان زوجة له. تذهب روايات إلى أنّها فيما كانت تعمل لمصلحة البريطانيّين، عملت لمصلحة «فرنسا الحرّة»، والطرفان كانا عدوَّي الحركات القوميّة السائدة في المشرق، أي أنّها كانت «عدوّنا»، الخائنة للأهل والوطن. آنذاك، وضدًّا على هامشيّة المرأة ودونيّتها، عُرفت أسمهان بالإفراط في تناول الكحول وبكثرة الكلام، وهي تزوّجت بالمخرج أحمد بدرخان لمجرّد الحصول على الجنسيّة أو الإقامة في مصر، ثمّ بالممثّل أحمد سالم، وربطتها علاقات عدّة برجال كثيرين متعدّدي الجنسيّات والمهن. وحين قضتْ أثناء توجّهها إلى الريف، في ١٩٤٤، نتيجة غرقها في ترعة، حامت الشبهات حول: المخابرات البريطانيّة والمخابرات الألمانيّة وحسن الأطرش وأحمد سالم (زوجها إبّان وفاتها) وأمّ كلثوم وشقيقيها فريد وفؤاد الأطرش والملك فاروق وأمّه الملكة نازلي وأحمد حسنين باشا (وكيل الديوان الملكيّ الذي يقال إنّ نازلي عشقته بينما عشق هو أسمهان). إنّها قتيلةٌ تعدّد قاتلوها إلى الحدّ الذي أضاع الجريمة، من غير أن يقلّل الغنى الذي انطوت عليه شخصيّة القتيلة.

لكنّ جاسوسيّة أسمهان وما أنزلته من إساءات بالإمارة والعائلة والزواج والأعراف و«الأخلاق» والوطنيّة، وبأفكار الإخلاص والشرف

والاستقامة... لم تحتلّ من صورتها الشائعة إلّا هامشًا ضيّقًا مصحوبًا بقدر من التعاطف مع «شطارتها» و«ذكائها» و«كرمها» و«ألاعيبها». متن الصورة العريض احتلّته «الفنّانة الخالدة» أسمهان.

هذا الانتباه الضمنيّ لسيولة الحياة ومزيج الغامض ـ الغريب عكسته على مستويات عدّة حالة لبنان ما قبل الحرب، بوصفه البلد الموصوف بالرخاوة في منطقة متشدّدة. فشولا كوهين هي التي طلب القضاء العسكريّ إنزال عقوبة الإعدام بها، إلّا أنّ العقوبة خُفِّفت إلى السجن عشرين عامًا. هذا السلوك «اللبنانيّ» غالبًا ما استخدمه العقائديّون مستمسَكًا على لبنان: إنّه ليس وطنًا جدّيًّا. إنّه متواطئ مع الجاسوسيّة. يعجّ بالجواسيس، ذاك أنّ الوطن التعاقديّ الذي يخلو من أيديولوجيا رسميّة حاكمة، ليس الوطن الذي يتخيّله القوميّون وعموم العقائديّين.

لكنّ هذا ما يجعل اللبنانيّين، في معزل عن المحاكمة القوميّة التي قد ينطقون بها، يتذكّرون، بكثير من الحنين، «أوكار الجواسيس»: فندق «سان جورج» الذي أرّخ بارَه سعيد أبو الريش، مراسل إذاعة «أوروبا الحرّة» ومدير «تايم ـ لايف» يومذاك. هناك، في ذلك البار، كان سام بوب بروّر، مراسل «نيويورك تايمز»، يلتقي يوميًّا عميل السي آي إيه ويلبر كراين إيفلاند، كما كان كيم فيلبي، أشهر جواسيس الحرب الباردة، الذي يراسل «إيكونوميست» و«أوبزرفر». مايلز كوبلاند، عميل السي آي إيه الآخر، وصاحب الكتاب الشهير عن نشاطها الإقليميّ «لعبة الأمم»، كان يرابض في فندق «فينيسيا». فبيروت، التي نتغنّى بها وبحرّيّاتها، هي التي جعلتها المخابرات البريطانيّة، بعد حرب ١٩٥٦، مركزها الإقليميّ. هذا كان جزءًا ممّا نتغنّى به من غير أن نسمّيه.

المدهـش أنّ اللبنانـيّ الـذي يتحمّـس لمكافحـة الجاسوسـيّة واجتثاثهـا قـد يكـون هـو نفسـه مَـن يحـنّ إلـى فنـادق بيـروت وعالمهـا «الموبـوء بالجواسـيس».

لقد كان هذا جزءًا من الحرّيّة التي تتمتّع بها بيروت.

حـرب ١٩٧٥ بـدأت بـ «حـرب الفنـادق» ودمّـرت الفنـادق. لقـد كانـت البديـل «الوطنـيّ» الوحيـد الممكـن عـن مدينـة حـرّة فيهـا كلّ شـيء، بمـا فـي ذلـك الجواسـيس.

الحـرب إيّاهـا هـي التـي دمّـرت أيضًـا «مدرسـة شـملان» بحجّـة أنّهـا «وكـر جواسـيس» (التسـمية نفسـها التـي اسـتخدمها الخمينيّـون عـام ١٩٧٩ لوصـف السـفارة الأميركيّـة فـي طهـران). الخارجيّـة البريطانيّـة هي التـي أسّسـت «مركـز الشـرق الأوسـط للدراسـات العربيّـة» (ميـكاس)، فـي القـدس عـام ١٩٤٤، ونقلتهـا إلـى تلـك البلـدة الجبليّـة بعـد قيـام إسـرائيل. الهـدف كان تعليـم موظّفيهـا فـي الشـرق الأوسـط اللغـة العربيّـة. بالطبـع، كان هنـاك جواسـيس بيـن هـؤلاء الموظّفيـن، لكـنْ كان أيضًـا مَـن ليسـوا جواسـيس. لقـد درس فيهـا ديبلوماسـيّون يابانيّـون ورجـال أعمـال أميركيّـون وأبنـاء لمهاجريـن لبنانيّيـن. كان لبنـان السـلم يتّسـع لهـذا كلّـه.

هـذه الطريقـة الرخـوة تخالـف طريقـة الأنظمـة الأمنيّـة والعقائديّـة. الأخيـرة، كأنظمـة حـرب دائمـة، لا تملـك إلّا الأمـن ولا تقـدّم إلّا التعبئـة ضـدّ «العـدوّ». إنّهـا تنحـو نحـوًا حربيًّـا بالتعريـف: إيلـي كوهيـن الـذي تجسّـس فـي سـوريا وعليهـا بيـن ١٩٦١ و١٩٦٥، حُكـم بالإعـدام وشُـنق فـي سـاحة المرجـة. جثّتـه ظلّـت معلّقـة ثلاثـة أيّـام.

فـي العـراق، صـدّام حسـين ذهـب أبعـد: كان يختـرع الجواسـيس ليعدمهـم. فـي ١٩٦٩/١/٢٦، وبعـد أشـهر علـى وصـول البعـث إلـى

السلطة وإقامته نظامًا يفتقر إلى الشعبيّة، وُلدت «وجبات إعدام الجواسيس». في حضور رئيس الجمهوريّة أحمد حسن البكر ونائبه صدّام، ووسط زغردة النسوة وزحف الجموع لمشاهدة «جثث الخيانة والعمالة»، أُعدم ١٤ شخصًا بريئًا، ١٠ منهم يهود. أصحاب «المؤامرة الماسونيّة» هؤلاء عُلِّقوا في ساحة التحرير ببغداد وساحة أمّ البروم بالبصرة. ذلك اليوم أُعلِن «عطلة رسميّة» احتفالًا بـ «النصر العظيم».

هذه الجذريّة في مكافحة الجاسوسيّة هي إيّاها الجذريّة في مصادرة الحياة وتجفيف سيولتها. ستالين كان رائدًا في هذا. تهمة الجاسوسيّة في روسيا الستالينيّة لازمت الكثير من أعمال التصفية الفرديّة والجماعيّة.

في هذا المعنى، كان تلخيص «مدرسة شملان» بـ «وكر جواسيس» نوعًا من اختراع الجواسيس تمهيدًا للإلغاء والاستئصال الشاملين. الترميز الكاذب وُجد هنا أيضًا: مثلًا، كان أحد الأدلّة القاطعة على جاسوسيّة المدرسة وجود ملعب على سطحها اعتُبر مقرًّا للاتّصالات السرّيّة كونه يطلّ على مطار بيروت. الملعب كان في حقيقته ملعب سكواش.

ما من شكّ في أنّ الأنظمة الديمقراطيّة قد تعدم الجواسيس أيضًا، لا سيّما في أزمنة الحروب. لكنّها لا تُعْدِمُ معهم كلّ شيء. لا تُعْدِمُ قصّتهم أو قضيّتهم إذا كانت لديهم قضيّة. إعدام الزوجين جوليوس وإيثيل روزنبرغ في الولايات المتّحدة، عام ١٩٥٣، بعد ثبوت تجسّسهما للسوفيات، لا سيّما في مجال الذرّة، لم يمنع الإقرار بحماستهما للشيوعيّة وتفانيهما في خدمتها.

تجربة «حلقة كامبريدج» شكّلت مناسبة لدراسة السياسة البريطانيّة ودراسة إحدى الفئات الاجتماعيّة في ذلك البلد. أولئك الخمسة

(كيـم فيلبـي، دونالـد ماكليـن، غـاي برغـس، أنتونـي بلنـت، ولاحقًـا اكتُشـف خامسـهم جـون كايرنكـروس) كانـوا، باسـتثناء بلنـت، طلّابًـا فـي كامبريـدج فـي الثلاثينيّـات. بلنـت كان أسـتاذًا فـي تاريـخ الفـنّ. لـم يكـن بعيـدًا منهـم آخـرون فـي عدادهـم لودفيـغ فيتغنشـتاين، الشـابّ يومذاك والفيلسـوف اللاحـق. لقـد انشـدّوا إلـى الماركسـيّة، وإذ حالـت أصولهـم الاجتماعيّـة بينهـم وبيـن العمـل الحزبـيّ والنضالـيّ، فقـد وجـدوا سـبيلهم إلـى خدمـة الطبقـة العاملـة فـي التجسّـس للاتّحـاد السـوفياتيّ. بيـن الثلاثينيّـات وأوائـل الخمسـينيّات، تجسّـسوا، وكانـوا فـي تلـك الغضـون احتلّـوا مواقـع مؤثّـرة فـي ديبلوماسـيّة بريطانيـا ومخابراتهـا، الــ أم ١٦.

فـي ١٩٥١، انتقـل برغـس وماكليـن إلـى موسـكو. فـي ١٩٦٣، فـرّ فيلبـي مـن بيـروت، التـي خـاف أن يُخطـف فيها، إلـى موسـكو أيضًـا. كايرنكروس اعتـرف فـي ١٩٥١ بجاسوسـيّته. بلنـت تأخّـر اعترافـه حتـى ١٩٦٣، بعـد أن فضحـه أناتولـي غوليتسـين، السـوفياتيّ الـذي انشـقّ وهـرب فـي ١٩٦١ إلـى بريطانيـا. بلنـت اللامـع كمـؤرّخ للفـنّ، عَمِـلَ حافظًـا ومنسّـقًا للوحـات الملكـة فـي بكنغهـام، وفـي ١٩٥٦ مُنـح لقـب «فـارس». بعـد انكشـافه، عُـرض عليـه أن يشـي بزملائـه مقابـل عـدم اعتقالـه. وشـى. إنكشـافُ وحشـيّة السـتالينيّة فـي تلـك الغضـون كان يسـهّل ممارسـة الوشـاية.

المهـمّ أنّ تجربتهـم دفعـت إلـى تحـرّي المجتمـع والسياسـة والثقافـة فـي بريطانيـا. قيـل مثـلًا إنّهـم عبّـروا عـن تصـدّع العائـلات الأرِسـتُقرطيّة القديمـة. عـن ثـورة الأبنـاء الأرسـتقراطيين على آبائهـم. هناك مَـن تحدّث عنهـم بوصفهـم محطّـة فـي تاريـخ المثليّـة فـي ذلـك البلـد (معظمهـم كانـوا مثليّيـن). أُرّخ بهـم للتطـوّرات التـي تحكّمـت فـي المـزاج الثقافـيّ البريطانـيّ آنـذاك: معانـاة سـنوات الكسـاد، والاسـتياء الواسـع مـن ممـالأة النازيّـة فـي أوسـاط الأرسـطقراطيّة المتفسّـخة، ثـمّ تحالـف لنـدن مـع موسـكو فـي الحـرب عليهـا.

«حلقة كامبريدج» لا تزال حيّة وبقوّة حتى اليوم. المجتمع تعلّم بعض تاريخه منها، وهو تسلّى بها، تمامًا كما تسلّى بعلاقة جون بروفيومو، وزير الحرب المحافظ، بكريستين كيلر، «الموديل» ابنة الـ١٩. تلك العلاقة أسقطت حكومة هارولد ماكميلان وساهمت في فوز «حزب العمّال» في ١٩٦٤. كيلر كانت، إبّان علاقتها ببروفيومو، على علاقة بيفغيني إيفانوف، الملحق بسلاح البحريّة في السفارة السوفياتيّة بلندن.

«حلقة كامبريدج» لم تكن سوى واحدة من حلقات كثيرة مشابهة تعمل في الاتّجاهين: إحداها أدارها هاري دكستر وايت، نائب وزير الخزانة الأميركيّ، الذي كان كبير مفاوضي بلده في مؤتمر بِرتون وودز عام ١٩٤٤، والذي أرسى النظام الاقتصاديّ لما بعد الحرب العالميّة الثانية.

لكنّ الجواسيس في المجتمعات الديمقراطيّة، وعليها، هم وحدهم مَن يستمرّون في قيد حياةٍ ما، حياةٍ لا تقتصر على القصص والأفلام. الجواسيس على أنظمة الاستبداد يُجتَثّون ويُجتثّ ذكرهم.

المجتمع الديمقراطيّ والرخو يطلق ثلاثة حوافز على الأقلّ لا يعرفها مجتمع الاستبداد: حبّ الربح الذي يُديم الجاسوس على شكل صناعة في السينما والكتب والترفيه، وحبّ التلصّص، خصوصًا متى كان موضوع هذا التلصّص مجتمعًا مغلقًا كمجتمعات «الستار الحديد»، وأخيرًا، حبّ المراجعة والنقد.

حتى اللغة عكست هذا التباين: تعبير عميل agent، الذي غالبًا ما يتقاطع مع الجاسوس، لا تنقطع صلته بالأصول التجاريّة للكلمة إلّا في استخدام الأنظمة والقوى العقائديّة. هنا، الوصف نفسه لا يعني إلّا طريد القبيلة والعدوّ المحض والوضيع الذي يستحقّ الموت.

والموت كان مصير الجاسوس القديم، وإن لم يكن مصير الجاسوسيّة

نفسـها. فالمهنـة التـي بلغـت أعلـى ذُراهـا فـي الحـرب البـاردة، لتنحسـر مـع انتهائهـا، رَجَعَـتْ بقـوّة مـع صعـود «الجاسـوس» فلاديميـر بوتيـن فـي روسـيا، وتـردّي العلاقـات بيـن الأخيـرة والـدول الغربيّـة. لكـنّ التجسّـس غـدا فـي معظمـه إلكترونيًّـا، تتحكّـم فيـه شـبكة الإنترنـت؛ أشـكالُ اشـتغاله رخيصـة الكلفـة نسـبيًّا، وقابلـة للتنفيـذ بسـرّيّة، بعيـدًا مـن محوريّـة الفـرد ـ الجاسـوس، ومـن أهوائـه ومعارفـه وكوزموبوليتيّتـه وعلاقاتـه بالمـدن أو اللغـات. هنـاك غـاز الأعصـاب والمظـلّات السـامّة والمسـمّمة، وطبعًـا، ودائمًـا، الكومبيوتـر.

جاسوسـيّة الزمـن البوتينـيّ عالـم أورويلـيّ أكثـر منـه إنسـانيًّا. الواقـع افتراضـيّ. خصوصيّـة الأفـراد شـبه معدومـة. التقنيّـات الرفيعـة ومُجمّعات المعلومـات تعـرف كلّ شـيء تقريبًـا عـن الأفـراد، وصـولًا إلـى أذواقهـم فـي المـأكل أو الجنـس. هنـاك خوارزميّـات معقّـدة تحلّـل وتبـوّب مـا لا حصـر لـه مـن معلومـات عـن الأشـخاص، ثـمّ تتوقّـع، بنسـبة مرتفعـة جـدًّا مـن الدقّـة، تصرّفهـم وردود أفعالهـم.

الجاسوسـيّة صـارت، مـع بوتيـن، نظامًـا يقـوى ويتوسّـع. الجاسـوس غـدا لـزوم مـا لا يلـزم.

صنّفْه ثمّ اقتله

فـي النصـف الثانـي مـن الخمسـينيّات، مـع «مشـروع أيزنهـاور» و«حلـف بغـداد»، راج وصـف «شـيوعيٍّ» بوصفـه شـتيمة. فالقومـيّ العربـيّ شـيوعيّ، وكذلـك الوطنـيّ الفلسـطينيّ، ومثلهمـا المسـلم الـذي يظـنّ أنّ الغـرب ينـاوئ الإسـلام ويتآمـر عليـه.

كمال ناصر ـ الشاعر البعثيّ الأردنيّ الذي صار لاحقًا ناطقًا بلسان «منظّمة التحرير الفلسطينيّة»، ثمّ قتله إيهود باراك في فردان ببيروت عام ١٩٧٣ ـ كتب يومذاك قصيدة تسخر من هذا الاتّهام العشوائيّ بالشيوعيّة:

«يا صديقَ العمر هل أنت شيوعيّ؟ | هل تعمّدتَ رفيقًا في القطيع؟ | لا تخفْ واسخرْ من الجُرْمِ الفظيع | فأنا قدّمتُ قربان خشوعي | وأنا اليوم، على رغمي، شيوعيّ»...

القصيدة ليست تحفة شعريّة، إلّا أنّها تنقل واحدًا من أمزجة تلك المرحلة ومن احتجاجاتها: فالمرء يغدو شيوعيًّا، بهذا المعنى المرذول، لمجرّد ألّا يتّفق مع السياسات الأميركيّة في الشرق الأوسط، أو مع سياسات الحكومات المحلّيّة التي تصادق واشنطن.

الزمن كان زمن حرب باردة واستقطاب كونيّ حادّ، وفي أزمنة كهذه، لا يبقى مكان للتمايز والتمييز. الجملة تَغْلِبُ المفرّق. ولأنّ الصراع ضارٍ والناس مقسومة بحدّ السكّين، فأنت إمّا «معنا» أو «ضدّنا»، على ما قال لنا لاحقًا، كلٌّ بطريقته، جورج دبليو بوش وأسامة بن لادن.

آنذاك، كانت الولايات المتّحدة نَفْسُها تغادر المكارثيّة التي كثيرًا ما عوّلت على التصنيف القاطع وبنتْ عليه مقتضاه كما تجسّد في تعامل شهير مع المثقّفين والفنّانين الأميركيّين. لكنّ الحرب الباردة منحت اللغة المكارثيّة حياة أطول خارج الولايات المتّحدة، وبموجب تلك اللغة وُصفت الشيوعيّة «العالميّة» بما يشبه وصف اليهوديّة «العالميّة» في القاموس اللاساميّ: إنّها أمّ الرذائل وسبب الفوضى والتآمر والتهتّك ومصّ دماء البشر.

ونعرف أنّ أميركا المكارثيّة لم تكن سوى تلميذة عابرة وغير نجيبة لخصومها التوتاليتاريّين الذين برعوا في التصنيف وتفنّنوا فيه: عميل، جاسوس، خائن، صهيونيّ، إمبرياليّ... فضلًا عن استخدام معانٍ حياديّة بوصفها تهمًا شائنة: يهوديّ، بورجوازيّ، ليبراليّ، كوزموبوليتيّ...

وبدورها، طوّرت أحزابنا المحلّيّة قاموسها الموازي، فعُرف شيوعيّو العراق في الستّينيّات والسبعينيّات بإطلاقهم شتيمة «ليبراليّ حقير» يلصقونها ببعض خصومهم، وابتكر أنطون سعادة، المؤسّس اللاساميّ لـ «الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ»، شتيمة «يهود الداخل» يطلقها على الخصوم.

والحال أنّ التصنيف القاطع هو طريق السيطرة على وضع معقّد يعصى على التبسيط، أو بالأحرى، طريق توهّم السيطرة. إذًا: صنِّفْه تجعلْه مفهومًا وتُدخله في نطاق الإدراك والتعقّل، ومن ثمّ التعاطي. هكذا، يتماسك صاحب التصنيف ويتحجّر في المعتقد الذي يعتقده فيما يُجعَل الخطّ الحدوديّ الذي يفصله عن موضوع التصنيف كثيفًا وشاملًا، بل مطلقًا. وهذا إذا ما حال في حدّه الأدنى دون تسرّب عدوى الأخير إلى الأوّل، فإنّ حدّه الأقصى ليس إلّا القتل والاجتثاث.

فإذا كان الخصم مثقّفًا مثلًا، بات من الضروريّ وصفه بـ «المزعوم» أو «الزائف» أو «المرتشي»، إذ يستحيل أن يكون المختلِف غير مزعوم أو غير زائفٍ أو غير مرتشٍ في نظر المختَلَف عنه. هكذا، وللسبب هذا، يندر العثور في السجالات العربيّة، والسجالاتُ تُخرِج من صدور الناس أدنى ما فيهم، من يقول: فلان مثقّف جدّيّ لكنّني لا أوافقه الرأي، أو أنّني أرى الأمور على عكس ما يراه.

فحكمٌ كهذا يهدّد تماسك التصنيف ويُضعفه، حيث لا يمكن جمع

الصفات السلبيّة والإيجابيّة في تعريف واحد كالقول، مثلًا لا حصرًا، إنّ الشيوعيّة التي أنشأت أنظمة استبداد منيعة تستند إلى عدّة فكريّة لا يُستهان بها، أو إنّ الإرهابيّ الانتحاريّ مجرم وشجاع في وقت واحد، أو إنّ أميركا أمّة عظيمة ذات سياسات رديئة في الشرق الأوسط...

وما يتولّاه مثقّفو السجالات البرّيّة يكمّله بإسفاف أكبر أتباع صغار يكتبون تعليقاتهم في ذيل المقالات، مشكّكين في أخلاقيّة المختلِف، بل في أخلاقيّة أمّه وأبيه وزوجته وأبنائه، ذاك أنّ التصنيف يستدعي الذهاب إلى النهايات القصوى، بحيث تغدو رائحة المختلف كريهة وثيابه بشعة وبيته ماخورًا وأصله مشكوكًا فيه.

ومثل هذا النبذ المطلق إنّما يجسّد نقطة بارزة من النقاط المشتركة بين القبيلة في طردها «صعلوكَها»، أو ابن القبيلة الأخرى، والتوتاليتاريّة الحديثة في تحطيمها الخصم الأيديولوجيّ والسياسيّ بلا رحمة. بيد أنّ الطرفين يتحرّكان بوحي من نرجسيّة مَرَضيّة تنفخ الذات وتضخّمها فيما تعلن اضطراب علاقتها بداخلها وبما هو خارجها في آن واحد، ذاك أنّ الواثق في الكمال في ذاته، المردّد «سبحاني ما أعظم شاني» في نفسه، هو وحده الذي يجرؤ على التفاخر بأنّ مُخالفه إنّما هو العيب المطلق أو الخيانة المطلقة. وما يفاقم خطر هذه النرجسيّة واحتمالها العنفيّ أنّها طفليّة جدًّا، مولعة بجذب الانتباه عبر إتيان الغرائبيّ وغير المتوقّع. وفي سلوك كهذا، يسود افتعال الصخب والغضب والتوتير، كما يُغيَّب مبدأ الواقع بحدوده وإمكاناته، وبغيابه تغيب كلّ مراجعة للأخطاء وكلّ اتّعاظ بدروسها.

وأغلب الظنّ أنّ التصنيف يجد ما يعزّزه في النظريّات التي تتجاوز فردًا بعينه إلى منظومة أوسع: فإذا كانت «سيّئات» شخص ما

تعبيرًا عن «سيّئات» طبقة اجتماعيّة بعينها مثلًا، بتنا أمام مرض لا يداويه دواء. فهذا «البورجوازيّ» ـ كمثل المنتمي إلى شعب آخر أو دين آخر أو قبيلة أخرى ـ ذنبه سابق على أيّ فعل فعله، وهو ذنب ماهويّ لا يعالجه القانون بل تعالجه الحرب، لأنّ المذنب المفترض لا يملك أن يكون شيئًا آخر. إنّه محكوم بأن يكون مذنبًا.

وهو تصوّر عن السياسة يحيلها ويحيل العالم معها إلى ساحة حرب لا تتوقّف. لكنّه تعريفًا تصوّر مستقى من الغابة ومن افتراض ذئبيّة الإنسان الدائمة. وقد يكون الشعار المريض السائد اليوم في بعض الأوساط عن «أنسنة العدوّ» خير تعبير عن التصوّر المذكور. فمَن يرفض «أنسنة العدوّ»، ستكون كلّ ادّعاءاته التعدّديّة، أكانت فكريّة أو سياسيّة أو جنسيّة، كذبًا محضًا. إنّه لا يقترح على الآخر المختلف إلّا الاستئصال الذي يُمهَّد له بـ «توحيش العدوّ» و«حَيْوَنَته». وليس بلا دلالة أنّ هذا الوعي ما إن يمدّ يده إلى مفهوم بعينه حتى يزيل عنه كلّ خصوصيّة فيه ويردّه إلى عنف محض: فـ «الإمبرياليّة» و«الاستعمار» لا يتميّزان، والحال هذه، عن «الفاشيّة» أو «الصهيونيّة» أو «الوهّابيّة». إنّها كلّها أسماء مستعارة لعنف يواكب تاريخ العداوة المتّصل.

لكنْ، في مقابل «الغابة»، يحلّ «الملعب» بوصفه مصدرًا لاستلهام السياسة في الوعي الديمقراطيّ. وليس بلا معنًى أنّ إنكلترا، «أمّ البرلمانات» والأعرق في «اللعبة البرلمانيّة»، هي البلد الذي أنتج معظم الألعاب الرياضيّة التي صارت عالميّة في أزمنة لاحقة، ذاك أنّ القرف المبكر من العنف بنتيجة الحربين الأهليّتين المتتاليتين في أربعينيّات القرن السابع عشر، عزّز الميل إلى تقريب السياسة من اللعب: فالغالب يغلب منافسه لكنّه لا يستأصله، وبالتالي، قد تتاح للمغلوب فرصة يتحوّل معها، من جديد، إلى غالب.

والبائس أنّ ذاك الخطّ الذي يبدأ بالتصنيف المُلزِم والمُحكَم ثمّ ينتهي بالاستئصال الجسديّ هو، اليوم، واحدة من مرايا حياتنا العربيّة، حيث الحروب المفتوحة بين الكلّ والكلّ. فهذا الزواج المعمّم بين الهمجيّة المقيمة في بعضنا وأحدث تقنيّات القتل والترويع يجعل كلَّ مختلف مرشّحًا للموت، كما يجعل كلّ شيء سببًا للاختلاف. والموت، بعد كلّ حساب، يغدو الأفق الذي لا ترى العين سواه حينما تنظر.

رداءة «الزمن العربيّ الردىء»...

درّج الشاعر الفلسطينيّ الراحل محمود درويش عبارة «الزمن العربيّ الرديء» التي يُفترض أن تدلّ على هزيمة ١٩٦٧ وما تلاها. وإذا صحّ ما يراه كثيرون من أنّ الزمن الذي افتتحته تلك الهزيمة لا يزال مستمرًّا، بات نطاق العبارة الدرويشيّة بالغ الطول والعرض معًا.

الشاعر الفلسطينيّ الراحل صاحب عبارات كثيرة اقتُطفت من قصائده ثمّ انتشرت وعمّت، كقوله: «ونحن نحبّ الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا»، أو قوله الآخر: «على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة»، وهي عبارات يصعب أن تكون سبب خلاف بين شخص وآخر، إذ هي ليست موضوع تباين ونقاش إلّا مع محبّي الانتحار، وهؤلاء أصلًا لا يناقشون. إنّ فيها، إذًا، شيئًا يقارب البديهيّ والمُجمَع عليه.

والحال أنّ الثقافة التي يغلب عليها الشفويّ، ويسود لدى أهلها انتظار المخلّصين والأئمة الغائبين، تشيع فيها عبارات توصف بأنّها

«حِكَم» أو أنّها حاملة لمضامين رفيعة أو أبديّة الأثر، مضامين قد تصلها بتصوّر ملحميّ فخيم للتاريخ. فهنا، في هذا المناخ العابق بالعظائم، تبقى الآيات أقوى من الأنظمة والمناهج المعرفيّة في التدليل على واقع أو التأشير على تحوّل.

وحتى في ثقافات غير شفويّة، هناك مكان محفوظ للعبارات اللاقطة التي تتوزّع على نوعين، واحد يؤدّي وظيفة التلخيص والتكثيف لجهد فكريّ معقّد، على ما تدلّ مأثورات مستقاة من آدم سميث أو كارل ماركس أو فريدريك نيتشه أو سيغموند فرويد أو سواهم، فيما النوع الثاني هو ما يقبض على مفارقة في الحياة اليوميّة، أو يعضّ على حقيقة صغرى غير مُنْتَبَه إليها في عيشنا العاديّ. وعبارات كهذه غالبًا ما تغدو نكاتٍ ودعابات في بيئة المثقّفين، ذاك أنّ ما هو غير متوقّع، بالمعنى الذي قصده هنري بِرغسون، هو دائمًا المصدر الأبعد للضحك والإضحاك.

فأوسكار وايلد مثلًا، وهو الذي برع، بين ما برع فيه، في أقوال كهذه، لم يستهدف المعاني الخالدة والجليلة، ولا إطلاق أحكام قاطعة على حقب تاريخيّة. فـ «الأكثر ضحالة هو الألمع أثناء تناول الفطور» و«الله، بخَلقه البشر، بالغَ قليلًا في قدراته»، و«الصديق الحقيقيّ هو الذي يطعنك في الوجه»... عبارات تصحّ فيها تمامًا الأوصاف المذكورة أعلاه.

وحتى حين كان ونستون تشرتشل يتناول قضايا «أهمّ» و«أكثر جدّيّة»، وهو أيضًا معروف بعبارات نبيهة، فإنّه لم يشذّ عن التواضع والاقتصاد التعبيريّ. فعبارته الشهيرة «الديمقراطيّة أسوأ أشكال الحكم، شرط أن نستثني هذه الأشكال جميعًا» تنمّ أيضًا عن المعنى إيّاه، لا سيّما أنّها صادرة عن أحد أبرز سياسيّي الديمقراطيّة

فـي العالـم. إنّ فيهـا، بالتالـي، بعـض السـخرية مـن النفـس، أو أقلّـه بعـض الرقابـة علـى انتفاخهـا واسـترخائها.

هنـا، نقـع علـى اختـلاف آخـر: فلئـن كانـت عبـارة وايلـد، أو عبـارة تشرتشـل، تبعـث علـى الضحـك لأنّهـا تفـارق المألـوف والمتوقّـع، فمفارقـة المألـوف والمتوقّـع، فـي العبـارة الدرويشـيّة، مصـدر لأسًـى وتشـاؤم تاريخيّيـن. هنـاك تسـود خفّـة الفـرد. هنـا يخيّـم ثقـل الأمّـة. هنـاك تقيـم الدعابـة السـاخرة. هنـا تقيـم الحكمـة المأسـويّة. هنـاك يلـوح احتمـال ضئيـل فـي التعثّـر بالمراهقـة المتأخّـرة. هنـا تنتصـب رغبـة حاسـمة فـي الكهولـة المبكـرة.

لكـنّ «الزمـن العربـيّ الـرديء» ربّمـا كانـت، مـن بيـن عباراتنـا الرائجـة هـذه، أشـدّها زعمًـا للمعانـي الكبـرى واكتنـازًا بحمولتهـا. وهـي، فـي الأحـوال كافّـة، أطولها عمـرًا وأوسـعها انتشـارًا، تقـال غالبًـا كأنّهـا الحقيقة التـي لا يرقـى إليهـا الشـكّ.

وحيـال عبـارة كهـذه لا يملـك واحدنـا إلّا أن يسـتعيد أوصافًـا شـائعة لـ «الزمـن» مرفقـة بأحـكام قيمـة لا يمكن تجنّبهـا، ذاك أنّ كلّ شـعب من الشـعوب لديـه «عصـرٌ ذهبـيٌّ» مـا تتبايـن مقاديـر الدقّـة والأسـطرة فـي تعيينـه. ونعلـم أنّ عربًـا وقعـوا علـى هـذا العصـر فـي العهـد العبّاسـيّ، فيمـا ذهـب آخـرون إلـى أنّـه عهـد النبـوّة أو العهـد الراشـديّ وزمـن الفتوحـات. وبدورهـم، سـمّى الأوروبيّـون المرحلـة الممتـدّة مـن نهايـة الحـرب الفرنسـيّة ـ البروسـيّة فـي ١٨٧١ حتـى انـدلاع الحـرب العالميّـة الأولـى فـي ١٩١٤، «الحقبـة الجميلـة». ففيهـا ضمـرت الحـروب وحصـل التوسّـع الاسـتعماريّ، كمـا ازدهـرت الأوضـاع الاقتصاديّـة وانتعشـت الحيـاة الثقافيّـة. لكـنّ «الحقبـة الجميلـة» هـي أيضًـا، وبفعـل مصدرهـا الواقعـيّ، تغـدو مـع الزمـن ومـع إضافـات النوسـتالجيا مـادّةً خصبـة للتخييـل، أي للتفكيـر فـي مَلابسـها وأزيائهـا وعمارتهـا ومآكلهـا ورقصاتهـا

وموسيقاها، وسائر أوجهها الحميمة. وهذه سمة يستحيل الوقوع عليها في العبارات الملحميّة الفخيمة التي لا يستطيع مرور السنوات أن يُغنيها بصورة أو بتصوّر.

لكنْ، لماذا يُعدّ الزمن الذي افتتحته هزيمة ١٩٦٧ «زمنًا عربيًّا رديئًا»؟ الجواب السهل، وهو طبعًا المقصود بالعبارة، يوفّره وقوع الهزيمة نفسها، حين استطاعت إسرائيل أن تتغلّب على ثلاث دول عربيّة، في عدادها مصر الناصريّة، وأن تحتلّ من الأرض ما هو أضعاف مساحتها.

غير أنّ مشكلتين تواجهاننا هنا: من جهة، أنّ الحروب الخارجيّة تغدو معيار المعايير، وذلك على عكس الأسباب (الاقتصاديّة والثقافيّة، وأيضًا السياسيّة والعسكريّة) التي أفضت إلى اعتماد وصف «الحقبة الجميلة» في التاريخ الأوروبيّ. والحرب، هنا، عند درويش وعندنا عمومًا، إنّما هي الواقعة العسكريّة الخالصة، بلا سابقٍ عليها يؤسّس لها أو يتسبّب فيها، وهذا ما يقودنا إلى المشكلة الثانية: ذاك أنّ بعض ما يوحي به التعيين المذكور هو أنّ الزمن السابق على هزيمة ٦٧، باستبداده ومخابراته وفشله على معظم الأصعدة، لم يكن «رديئًا». ونحن لسنا بغافلين عن «نظريّة» خرقاء لا تزال واسعة الانتشار بيننا، مفادها أنّ الحقبة الناصريّة إنّما «رفعت رأس العرب» عمومًا وشكّلت عصرهم الذهبيّ في العصر الحديث.

وبرصف المشكلتين واحدتهما إلى جانب الأخرى نقع على المشكلة الثالثة الأخطر والأمرّ، ألا وهي العجز عن فهم الهزيمة ما دامت مقدّماتها الناصريّة ليست مقدّمات. فكأنّنا نستنتج، والحال هذه، أنّ تنكيس الرؤوس الذي أصابتنا به الهزيمة إنّما هبط علينا من الفضاء بعد «رفع الرؤوس» الذي أحدثه عبدالناصر! ولمّا كانت

الهزيمـة (غيـر المفهومـة الأسـباب، أو المفصولـة عـن أسـبابها) مدخلنـا إلـى رداءة الزمـن، باتـت الـرداءة ذاتهـا غيـر مفهومـة بالتالـي.

والحـقّ أنّ مـا تنـمّ عنـه العبـارة الدرويشـيّة يتعـدّى صاحبهـا إلـى جماعـات أوسـع مـن «قوميّيـن» و«يسـاريّين» يقفـزون قفـزة واحـدة عجيبـة مـن نعيـم «الأنظمـة التقدّميّـة» (و«يـا أهـلًا بالمعـارك» و«أصبح عنـدي الآن بندقيّـة») إلـى جحيـم الهزيمـة التـي افتتحـت زمنًـا رديئًـا لا قيامـة بعـده.

وإذا كانـت الملحميّـة الصوتيّـة هـي وحدهـا مـا يصمـد مـن هـذا «التأويـل»، فـإنّ الانتقـال إلـى «التأويـل» الدينـيّ والخرافـيّ لـن يكـون صعبًـا أو غيـر متوقّـع. فمـن هـذا الإخـلال («القومـيّ ـ اليسـاريّ») بالمعانـي ومـن الفصـل بيـن الأسـباب والنتائـج، يتقـدّم حامـل الوعـي السـلفيّ الـذي يسـتأصل المعانـي ويجتـثّ آخـر رابـط بيـن الأسـباب والنتائـج. هكـذا، تنفتـح للتأويـل طريـق واحـدة وحيـدة تفضـي حكمًـا إلـى «العلـيّ القديـر».

لكـنْ، يبقـى أنّ الشـقّ الأعـرض مـن «القوميّيـن» و«اليسـاريّين» الـذي يتباهـى بالحقبـة الناصريّـة، ثـمّ يعـارض الثـورات العربيّـة، يبقـى متماسـكًا فـي مـا يذهـب إليـه. فـلا الحرّيّـة المفقـودة آنـذاك عنـت لـه شـيئًا، ولا طلـب الحرّيّـة اليـوم يعنـي لـه شـيئًا. وهـذا علـى عكـس التهافـت الـذي يُبديـه تبنّـي الحرّيّـة اليـوم، وتبنّـي الناصريّـة، أو اللاحرّيّـة، عهـدذاك.

بطبيعـة الحـال، وفـي بعـض الهوامـش «القوميّـة» و«اليسـاريّة»، يحضـر التذاكـي الـذي يأخـذ علـى الناصريّـة لاديمقراطيّتهـا لكنّـه يؤيّدهـا بالمجمـل. وفـي هـذا يضمـر المتذاكـون، ولـو قالـوا عكـس ذلـك، أنّ الديمقراطيّـة تفصيـل كمالـيّ، واعديـن بتسـوية لـم تحـدث مـرّةً مـن قبـلُ بيـن قوميّـة كالقوميّـة الناصريّـة والديمقراطيّـة.

وهـذا عمومًـا لا يُخرجنـا مـن متاهـة «الزمـن العربـيّ الـرديء» ومـن فصاحتهـا الملحميّـة السـقيمة. وهـي متاهـة لـم ينجـح فعليًّـا فـي الخـروج منهـا إلّا الإسـلاميّون بِسَـوْقِنا إلـى متاهـة أوسـع ورداءة أكبـر لا يبـدو أنّ السـبيل إلـى مغادرتهمـا مفتـوح أو معبّـد.

قبل خمسين عامًا بالتمام...

١٩٦٨ كانـت سـنة عظيمـة. سـنةً أمميّـةً إذا صحّ التعبيـر. سـنةً عضويّـة: مـا يحصـل هنـا، ينعكـس هنـاك. الطلـب علـى الحرّيّـة والتقـدّم فـي صعـود.

قبـل خمسـين عامًـا بالتمـام، بـدا أنّ التاريـخ يقفـز قفـزًا، أنّـه متّجـه لا محالـة إلـى حيـث يأمـل الأمـل. بـدا للرائـي أنّ الرؤيـة تزيـح الغيـم وتسـتولي علـى الأفـق، أنّ التاريـخ خـطٌّ صاعـد.

اليـوم، نعـرف أنّ ذلـك كان وهمًـا مأهـولًا بالنوايـا الحسـنة. إلّا أنّ ١٩٦٨ كان يُغـري بالتوهّـم.

أربعـة أحـداث كبـرى تلاحقـت عامـذاك وكانـت لهـا مسـاهمتها الكبيـرة فـي صنـع العالـم.

فـي ٣٠ كانـون الثانـي، خـاض جيـش فيتنـام الشـماليّة وقـوّات الفيتكونـغ أكبـر معـارك الحـرب الفيتناميّـة. كان ذلـك فـي ليلـة «التِـت»، أو رأس السـنة القمريّـة. القصـد هـو تحويـل هجومهـم هـذا مقدّمـةً لانتفاضـة شـاملة فـي جنـوب فيتنـام.

الانتفاضـة لـم تحـدث. فـي ذلـك العـام، كان التـورّط الأميركـيّ قـد تعاظـم: أكثـر مـن نصـف مليـون جنـديّ مصحوبيـن بوحـدات جوّيّـة

وبحريّـة. هكـذا، فشـل هجـوم «التـت» عسـكريًّا، إلّا أنّـه أثـار صـدًى أكبـر مـن المتوقّـع فـي الـرأي العـامّ الأميركـيّ. قطاعـات أعـرض باتـت تكـذّب الروايـة الرسـميّة عـن قـرب النصـر وضآلـة الخسـائر. تزايـدَ الضغـط مـع مذبحـة مـاي لاي وانتشـار صورهـا. ففـي ١٦ آذار، أقـدم جنـود أميركيّـون علـى قتـل مدنيّيـن فيتناميّيـن عُـزّل قُـدّر عددهـم بمـا بيـن ٣٤٧ و٥٠٤. اِعتمـد الأميركيّـون اسـتراتيجيّة «فتنمـة الحـرب» كتعبيـر عــن مباشـرة الانسـحاب التدرّجـيّ وتـرك القتـال لحكومـة فيتنـام الجنوبيّـة.

الرئيـس الأميركـيّ لينـدون جونسـون أعلـن انسـحابه مـن المعركـة الرئاسـيّة. لـم يعـد يطيـق تحمّـل نتائـج الحـرب وأعباءهـا. المحتجّـون تحوّلـوا شـاغلًا يوميًّـا للرئيـس بلافتاتهـم التـي تسـأله: «كـم مـن الشـبّان تريـد أن تقتـل اليـوم؟». لكـنّ جونسـون أعلـن أيضًـا، قبـل مغادرتـه البيت الأبيـض، عـن الحـدّ مـن عمليّـات القصـف، وافتتـح محادثـات سـلام مـع الفيتناميّيــن الشــماليّين، كمـا أوقـف فـي ١ تشـرين الثانـي (نوفمبـر) قصـف فيتنـام الشـماليّة.

الـرأي العـام الأميركـيّ أحـرز نصـرًا كبيـرًا آخـر. صحيـح أنّ يـوم ٤ نيسـان (أبريـل) شـهد فاجعـة اغتيـال القائـد اللاعنفـيّ مارتـن لوثـر كينـغ، مُطلـق «حركـة الحقـوق المدنيّـة» وصاحـب خطـاب «لـديّ حلـم» فـي مسـيرة واشـنطن عـام ١٩٦٣، والـذي نـال، فـي ١٩٦٤، جائـزة نوبـل للسـلام تكريمًا لقتالـه اللاعنفـيّ ضـدّ التمييـز العنصـريّ، إلّا أنّ الاغتيـال كان إعلانًـا عـن انتصـاره أكثـر منـه إعلانًـا عـن موتـه. فطـوال السـتّينيّات، مـرّر الكونغرس، تحـت ضغـط «حركـة الحقـوق المدنيّـة»، مجموعـة تشـريعات فيدراليّـة تمحـو سياسـات تمييزيّـة. «مرسـوم الحقـوق المدنيّـة» فـي ١٩٦٤ منـع التمييـز فـي العمالـة اسـتنادًا إلـى العِـرق واللـون والديـن والجنـس أو الأصـل القومـيّ. كذلـك ألغـى الفـوارق فـي شـروط التسـجيل التـي يتطلّبهـا الاقتـراع، ومعهـا الفصـل العِرقـيّ فـي المـدارس وأمكنـة العمـل

والمواصلات العامّة. في ١٩٦٥، كان «مرسوم حقوق التصويت» الذي حمى حقوق الأقلّيّات في الاقتراع بمنحه السلطات الفيدراليّة حقّ الإشراف على عمل السلطات المحلّيّة في الولايات التي تُستضعَف فيها الأقلّيّات، ثمّ وفي ١٩٦٨، تُوّجت الانتصارات بـ «مرسوم الإسكان العادل» الذي أزاح التمييز في بيع المساكن أو تأجيرها. الرئيس ليندون جونسون وقّع المرسوم بعد يوم واحد على تقديمه. سكّان الجنوب الأفرو أميركيّون (السود) باتوا يشاركون على نحو جماهيريّ واسع، ومن دون عوائق، في السياسة. مهد العنصريّة في أميركا راح يتصدّع. في ذلك العام، بدا روبرت كينيدي الذي تبنّى برنامج «الحقوق المدنيّة» وباقي مسائل العدالة الاجتماعيّة بقوّة وحماسة، المرشّح المرجّح للفوز برئاسة أميركا. روبرت كينيدي اغتيل في ٥ حزيران(يونيو) على يد سرحان سرحان.

باريس كانت تتململ. في أيّار (مايو)، وجدت نفسها في حالة من الاعتراض والهيجان. في آخر ذلك الشهر، وحيال توسّع الانتفاضة ضدّه، اضطرّ الرئيس شارل ديغول أن يسافر سرًّا إلى ألمانيا (الغربيّة) ليلتقي الجنرال جاك ماسّو، قائد القوّات الفرنسيّة في برلين، كي يضمن تأييده إذا ما قُرّر انتزاع باريس من أيدي المنتفضين.

الأمر بدا صراعًا بين فرنسا القديمة وفرنسا الجديدة. طلّاب العاصمة زاد عددهم في العقد السابق من ١٧٥ ألفًا إلى أكثر من نصف مليون. «ثقافة الشبيبة» التي كانت تنطلق من الولايات المتّحدة كانت تصدّها أوتوقراطيّة المجتمع الفرنسيّ وتراتبيّته. في المقابل، فحزبا المعارضة التقليديّان، الراديكاليّ والاشتراكيّ، كانا يترنّحان. الأحزاب، إذًا، ليست قاطرة التغيير. الحزب الشيوعيّ كان يتعرّض لقضم التيّارات اليساريّة والعالمثالثيّة غير المعجبة بالسلطويّة

والأبويّة السوفياتيّتين. مقتلة فيتنام التي كان التلفزيون يجعلها مشهدًا بيتيًّا، غذّت الاعتراض على مظالم هذا العالم.

لم يكن بلا دلالة أنّ الحدث العاديّ جدًّا الذي كان شرارة أيّار (مايو) ٦٨، حصل قبل عام في مبنى نانتير الجامعيّ التابع لجامعة باريس. هناك، ظهرت احتجاجات ضدّ القيود المفروضة على حقّ الطلّاب في استقبال الزائرين في مساكنهم الجامعيّة. المطلب الذي وصفه البعض بـ «الجنسيّ» استجرّ مساجلة حادّة بين القائد الطلّابي دانيال كوهين بانديت ووزير الشباب والرياضة فرانسوا ميسوف. الأهمّ أنّه وقع على أرض قابلة للاشتعال.

تفاقمت الأمور أسبوعًا بأسبوع وشهرًا بعد شهر، بحيث تظاهر ٤٠ ألف طالب في ١٠-١١ أيّار (مايو). عنف البوليس ضدّهم أدّى إلى اعتقال ٥٠٠ طالب ونقل مئات إلى المستشفيات بينهم ٢٥٠ شرطيًّا. قطاعات عمّاليّة عريضة ما لبثت أن انضمّت في أكبر إضراب عامّ عرفه تاريخ فرنسا حتى ذلك الحين: ملايين العمّال نزلوا إلى الشارع دعمًا للطلبة وتوكيدًا لمطالبهم. العمّال احتلّوا عشرات المصانع والمعامل بما فيها شركة «رينو» للسيّارات.

أهمّ ما في أيّار (مايو) كان تجاوز المؤسّسات السائدة والأُطر القديمة، أحزابًا ونقابات وكنائس وتعليمًا. اليسار التقليديّ وقف موقف المشكّك وأحيانًا المعادي: هذه ليست ثورة، إذ إنّ الطلّاب غير منتجين ولم يدخلوا بعد سوق العمل. هذه هيصة بورجوازيّة صغيرة لا أكثر.

أيّار (مايو) ٦٨ طرح مسائل التحرّر بما يتعدّى أسئلة الماركسيّة الأرثوذكسيّة و«الآباء» الشيوعيّين الذين حصروا التغيير بالأجور، فبدوا لـ «الأبناء» مجرّد جزء من النظام بمعناه الأعرض. الموضوع، إذًا، جوانب حياتيّة أعمق. أبعاد مجتمعيّة وقيميّة ومثالات عن الفرد

والفرديّة تتعدّى القيم التي بدأت تسود منذ تحرير ١٩٤٤. فتح مساحات واسعة وجديدة للنضالات النسويّة والبيئيّة والمثليّة.

أيّار (مايو) ٦٨ أشّر إلى أقصى الماركسيّة. إلى يسار اليسار. إلى شيوعيّة من دون تكلّس الشيوعيّين. لكنّه انعطف ليبراليًّا.

في الشطر الآخر من القارّة، اهتزّ استبداد أشرس وأشرّ. في ١٩٦٧، وبالاستفادة من أجواء الوفاق الدوليّ في أوروبا، بدأت تظهر في تشيكوسلوفاكيا السابقة مطالبات بحرّيّة التعبير وبتفكيك بعض القيود الرسميّة على الاقتصاد الذي راح أداؤه يزداد تردّيًا. الكتّاب والطلبة كانوا في مقدّم النقّاد. في ٥ كانون الثاني (يونيو)، سقط الستالينيّ أنطونين نوفوتني وحلّ محلّه ألكسندر دوبتشيك في قيادة الحزب والدولة. أفكار المنظّر الاقتصاديّ أوتا سيك تصدّرت المشهد. في نيسان، أعلنت حكومة دوبتشيك خطّتها لنموذج آخر في الاشتراكيّة: أزاحت قيود الدولة عن الصناعة وسمحت بحرّيّة التعبير. هكذا، افتُتحت أربعة أشهر من العيش الحرّ خارج قبضة الحزب وموسكو. دوبتشيك ظلّ يؤكّد استمرار شيوعيّته وبقاءه في حلف وارسو، لكنّ موسكو بدأت تتشكّك: أصوات الهراطقة راحت تعلو وتتزايد. الرئيس اليوغسلافي جوزيف بروز تيتو زار براغ في آب (أغسطس). في الشهر نفسه، وبحجّة الاستجابة لشيوعيّين تشيكوسلوفاكيّين يطالبون بالتدخّل والإنقاذ، أعلن ليونيد بريجنيف ما صار يُعرف بـ «مبدأ بريجنيف»: مؤدّاه الفعليّ أنّه من غير المسموح لأيّ بلد من بلدان الكتلة بتغيير نظامه. في ٢٠ من الشهر نفسه، غزا أكثر من ٥٠٠ ألف جنديّ من جيوش كتلة وارسو تشيكوسلوفاكيا. دوبتشيك وثلاثة من قادة «الاشتراكيّة ذات الوجه الإنسانيّ» اعتُقلوا ونُقلوا إلى موسكو.

لـم تنشـأ مقاومـة لجحافـل الغـزاة. انتشـرت صـور لتشيكوسـلوفاكيّين يقفـون فـي وجـه الدبّابـات ويوزّعـون الـورد علـى الجنـود. جـان بـالاخ أحـرق نفسـه احتجاجًـا. بريجنيـف قـرّر أن يكـون غوسـتاف هوسـاك قائـد تشيكوسـلوفاكيا الجديـد.

وضـع مـا بعـد الغـزو انتقـم مـن عمـوم المجتمـع، لكـنْ خصوصًـا مـن النخبـة الثقافيّـة. بنتيجـة حملـة التطهيـر التـي اسـتمرّت ثـلاث سـنوات، فُصـل مـن الحـزب ٣٠ ألفـاً، و١٧ فـي المئـة مـن ضبّـاط الجيـش. حتـى المباحـث امتـدّت إليهـا اليـد، ففُصـل نحـو مـن ثلـث العامليـن فيهـا. الكتّـاب والصحافيّـون والمعلّمـون عانـوا الطـرد مـن العمـل والتجويـع والهجـرة، فضـلًا عـن السـجن طبعًـا. لكـنّ التخشّـب البريجنيفـيّ كان قـد ظهـر سـافراً تمامًـا. يسـاريّو الغـرب الذيـن راهنـوا علـى إحيـاء الاشـتراكيّة مـن خـلال تجربـة دوبتشـيك، اكتشـفوا أنّ الأمـر وهـم. الحـزب الشـيوعيّ الإيطالـيّ، أكبـر الأحـزاب الشـيوعيّة خـارج الكتلـة، دان الغـزو. الطـلاق عصـف بـزواج الشـيوعيّة والثقافـة فـي أوروبـا مـا بعـد الحـرب العالميّـة الثانيـة. القناعـة الصاعـدة أنّ الحرّيّـة والكتلـة السـوفياتيّة وحزبهـا القائـد أضـداد يسـتحيل أن تلتقـي.

لقـد تقاطعـت هـذه المكاسـب الأربعـة الكبـرى فـي مـكان عريض اسـمه الحرّيّـة. لكـنّ التاريـخ ذا الحـركات الكثيـرة، لا الحركـة الواحـدة، كـرّس بعـض هـذه المكاسـب، وأضعـف بعضهـا الآخـر، فيمـا جعـل بعضهـا الثالـث ينتكـس وينكـص.

مـا يبقـى أنّ الجيـل الـذي فتـح عينيـه علـى تلـك الإنجـازات يصعـب عليـه أن يغلقهمـا علـى صـور دونالـد ترامـب وعبدالفتّـاح السيسـي وبشّـار الأسـد وأضرابهـم الكثيريـن.

زياد الرحباني: أين المشكلة؟

ينفق زياد الرحباني مِن تراكمٍ يعود إلى السبعينيّات والربع الأوّل من الثمانينيّات. هناك مَن يقول إنّ التراكم هذا لم يبق منه الكثير، وهناك مَن يقول إنّه نفد تمامًا ولم يبق إلّا الترّهات: كلمات لا تعني وحركات لا تُضحك و«أخبار» عائليّة أو صحّيّة لا تسلّي إلّا المتلصّصين على التوافه. مُحبّوه يعاودون التذكير به: كم كان يُضحكنا. يقولون هذا من دون أن يتغلّبوا على حرجهم بما آل إليه اليوم. كارهوه ونقّاده يقولون إنّه لم يعد يُضحكنا على أنفسنا. صار يُضحكنا على نفسه. هذا يعني أنّ على الكوميديّ فيه أن يعتزل. الطيّبون بين النقّاد يستدركون: بل صار يُحزننا على نفسه. إذًا، على التراجيديّ فيه أن يختفي أيضًا.

لا شكّ في أنّ ثمّة مشكلة. لنعد إلى النبع:

شبّ زياد الرحباني على نقد «لبنان القديم»، لبنان «المارونيّة السياسيّة» وما حفّ بها من سياحة واصطياف وخدمات واحتفال بمعرفة اللغات الأجنبيّة.

زياد كان هجّاءً لذلك اللبنان: لاقتصاده ولغته وقيمه وللمفارقات الفادحة أحيانًا التي تترتّب على وجوده.

هجاؤه كان مسكونًا بالكثير من مناكفة الأهل. من «قتل الأب» الذي ربّما كان الصائغ الأكبر، والمُعمّم الأوسع انتشارًا، لـ «الأيديولوجيا اللبنانيّة». وبالفعل، يُسجّل لعاصي ومنصور أنّهما كانا الأطروحة. سواهما، وفي عدادهم النجل زياد، كانوا الأطروحة المضادّة. ظلّوا الأطروحة المضادّة وتخبّطوا ولا زالوا يتخبّطون فيها كلٌّ بطريقته. زياد، بالتالي، لم يكن ابن أبيه: لبنان، مع الأهل، كان

فـوق الأرض. كان جـارًا للقمـر: «نحنـا والقمـر جيـران». مـع الابـن، انخفـض إلـى مـا تحـت الأرض بكثيـر: صـار بـارًا أو مستشـفى مجانيـن. اللبنانيّـون، عنـد الأهـل، كانـوا «خيـر أمّـة أخرجـت للنـاس». صـاروا، مـع النجـل، نبتًـا شـيطانيًّا. مشـاكلهم كانـت خلافـات عابـرة أقـرب إلـى المصادفـات، يبدّدهـا الشـاويش والمختـار فـي القريـة، أو مـا بيـن قريتيـن. المشـاكل، مـع النجـل، صـارت جـزءًا مـن جوهـر لبنانـيّ صـارم وقاطـع يعصـى علـى التغييـر. الطائفيّـة، بالتالـي، كانـت سـوء فهـم (مـا بعـد كولونياليّـة مبكـرة). صـارت علّـة وجـود (هوبزيّـة جلفـة). المسـتقبل كان باسـمًا لنـا، يفتـح ذراعيـه لاسـتقبالنا. صـار مسـدودًا فـي وجوهنـا: إنّنـا شـعب بـلا مسـتقبل. السـياحة كانـت ضيافـة وكرمًـا همـا مـن شـيم اللبنانـيّ. صـارت نهبًـا وكذبًـا ودعـارة هـي شـيم اللبنانـيّ. المـرأة كانـت مقدّسـة ومنزّهـة. كانـت فيـروز. صـارت مدنّسـة وشـريرة ونفعيّـة بـأيّ طريقـة كانـت. إنّهـا ثريّـا. الأهـل تمسّـكوا بصـورة مريـم العـذراء للمـرأة. النيغاتيـف احتفـظ بـه النجـل. اللغـة، كذلـك، جعلهـا الأهـل مفتـاح الضـوء والوضـوح بمـا يبـدّد سـوء الفهـم العـارض بيـن اللبنانيّيـن. صـارت، مـع النجـل، مـرآة نفوسـنا المواربـة والملتويـة التـي لا تعنـي مـا تقـول، أمّـا مـا يعنـي مـن أقوالهـا فبـلا معنًـى.

لكـنّ زيـاد كان ابـن أبيـه أيضًـا، ذاك أنّ القاسـم المشـترك بيـن الأهـل والنجـل هـو التبسـيط. هـو التسـمّر عنـد جوهـر مزعـوم مـا، لا مـكان معـه للزمـن والتغيّـر. هـو العجـز عـن إدراك واقـع متحـرّك وسـائل ومعقّـد يقـول إنّ اللبنانيّيـن ليسـوا ملائكـة ولا شـياطين، فيمـا نسـاؤهم لسـن قدّيسـات ولا عاهـرات.

عنـد الرحابنـة الأهـل، لا نسـتطيع أن نكـون أشـرارًا حتـى لـو أردنـا. إنّ فينـا خيـرًا جوهريًّـا وعميقًـا يسـمو بنـا إلـى السـماء. نحـن بيـت «الحـقّ والخيـر والجمـال». عنـد زيـاد الرحبانـي، لا نسـتطيع إلّا أن نكـون أشـرارًا.

هـذا هـو جوهرنـا الأعمـق. كلّ محاولـة لعلاجنـا آيلـة حتمًـا إلـى الإخفاق.

لقـد كان طبيعيًّـا، فـي هـذا التكويـن الذهنـيّ، أن يسـتمرّ التثبّـت عنـد مناكفـة الأهـل وهجـاء لبنـان ذي «الهيمنـة المارونيّـة». أن يصبح ذاك الهجـاء أقـرب إلـى ديـن أو عقيـدة. بيـد أنّ ذلـك اللبنـان صـار قديمًـا. صـار بائـدًا. لكثيريـن بيننـا صـار ماضيًـا ذهبيًّـا أرقـى وأحسـن ممّـا أتـى بعـده. زيـاد الرحبانـي ظـلّ هنـاك. عـدوّه بـات طاحونـة هـواء.

في مراجعة سريعة لعوالمه كما نقلتها أعماله، يتّضح ذلك:

فـي «بالنسـبة لبكـرا شـو؟» (١٩٧٨) لبنـان هـو البـار الـذي تديـره الزوجـة ثريّـا المشـرعة علـى الاحتمـالات كلّهـا. هنـاك البلجيكـيّ والإنكليـزيّ الطامعـان، كسـواهما، بهـا. هنـاك مسـيو أنطـوان النصّـاب والطامـع بـكلّ شـيء.

بعـد عاميـن، فـي «فيلـم أميركـيّ طويـل»، لبنـان مستشـفى للمجانيـن. الطوائـف وحروبهـا أبـرز أسـباب جنونهـم.

نشـأ عهـد اليـاس سـركيس ومعـه شُـرّع وجـود «الـردع العربـيّ» الـذي صـار سـوريًّا فحسـب. مسـرحيّة «شـي فاشـل» قُدّمـت فـي ١٩٨٣، وكانـت قـد انهزمـت «المارونيّـة السياسـيّة» بمقتـل بشـير الجميّـل، فيمـا إسـرائيل تحتـلّ أجـزاءً مُعتبـرة مـن لبنـان. لكـنّ المسـرحيّة اهتمّـت بسـرقة «الجَـرّة» فـي قريـة «جبـال المجـد». تزاحمـت فيهـا لهجـات الأرمـن والـدروز وسـواهم مـن الجماعـات، مُعـزّزةً انقسـامهم. وفـي اسـتئناف لموضوعـة متكـرّرة عنـد زيـاد الرحبانـي، هـي شـعبويّة السـخريّة مـن التحـدّث بالأجنبيّـة، تطـلّ المتفرنجـة المسـيحيّة التـي تعمـل فـي «أوريـون ـ لوجـور» فتخلـط العربيّـة بالفرنسـيّة بالبلاهـة. طبعًـا، هنـاك، فـي المسـرحيّة الفنّـان الـذي «يحـبّ لبنـان» ويحيـي حفـلات للمهاجريـن، وهنـاك السـخرية مـن الصبيّـة «المنـدورة لبلدهـا» ومـن «العناقيـد والمواعيـد» و«الجبـال المـا بتنطـال»، وجـرن الكبّـة

وسـواها. أمّـا «الغريـب» العـدوّ لهـؤلاء اللبنانيّيـن، فهـو «اللـي بيوصّـل مَرْتَـك [و] بيقـرط الجـرّة». هـذه اللوحـة بسـائر تفاصيلهـا كانـت تثبيتًـا للهجـرة والتكفيـر: هجـرة مـن الواقـع المسـتجدّ وتكفيـر لـكلّ واقـع.

المنعطـف النوعـيّ كان فـي ١٩٩٣، مـع «بخصـوص الكرامـة والشـعب العنيـد». التطـوّر الأبـرز آنـذاك، بعـد اتّفـاق الطائـف وسـلامه، كان صعـود رفيـق الحريـري وحـزب اللـه. الأخيـر لـم يسـترع انتباهـه بتاتًـا، أمّـا الأوّل الـذي كرهـه فأعـاد تدويـره وتدويـر نقـده مارونيًّـا: «الكرامـة والشـعب العنيـد» ليسـا مـن العمـارة الأيديولوجيّـة للحريـري. إنّهمـا مـن عمـارة «المارونيّـة السياسـيّة». صحيـح أنّنـا نـرى «مصـاري» والهواتـف المحمولة بكثـرة أو الآلـة التقنيّـة المعقّـدة المسـتخدمة لتنقيـة العـدس! إلّا أنّ هذا لا يصلنـا كتعبيـر عـن صعـود ثقافـة المـال فـي عالـم العولمـة ومـا بعـد الانهيـار السـوفياتيّ، بمـا فيـه لبنـان الخـارج مـن الحـرب ومـن النـدرة. إنّـه يصلنـا كمشـهد آخـر مـن مشـاهد السـخافة والشـره المتأصّليـن فـي لبنانيّيـن يعيشـون علـى العقاقيـر والمخـدّرات.

لقـد مهّـد زيـاد الرحبانـي لمسـرحيّته هـذه بعبـارة تقـول إنّ أحداثهـا تحصـل بعـد انسـحاب الجيـوش الأجنبيّـة جميعهـا مـن لبنـان، «مـا بيـن ١٩٩٨ و٢٠٠٣ أو ربّمـا ٢٠٠٤ أو حتـى ٢٠٠٥». بهـذا، نقلنـا مـن تجاهـل الحـدث إلـى نفـي الحـدث: فالاحتـلالات وانسـحاب جيوشـها لا تؤثّـر بتاتًا فـي الفوضـى اللبنانيّـة التـي يؤسّسـها ويعيـد تأسيسـها شـعب ثرثـريّ وزعبرجـيّ ومجـرم وطائفـيّ حتـى العظـم. ومـع شـعب كهـذا، غاطـس فـي تفاهتـه، وليـس أصلًا بشـعب، لا تنفـع دولـة ولا أحـزاب ولا خطابـات سياسـيّة كائنـةً مـا كانـت. إنّ الشـعب هـو التافـه، بينمـا الدولـة، ممثّلـةً فـي الضابـط زيـاد الرحبانـي، ممنوعـة مـن أن تمـارس القمـع. هكـذا، لا يبقـى أمامنـا سـوى الغـرق فـي همجيّتنـا وظهـور القـرود والدببـة بيننـا وسـط صـراع مُـرّ علـى البقـاء.

لقـد حصـدت «بخصـوص الكرامـة...» فشـلًا أعلـن انتهـاء صلاحيّـة الزيـاد رحبانيّـة. لـم يعـد يمثّـل شـيئًا جدّيًّـا. المسـيحيّون الذيـن رفضـوه فـي السـبعينيّات وأوائـل الثمانينيّـات لأنّـه «ضدّهـم»، صالحـوه فـي التسـعينيّات لأنّـه لـم يعـد ضـدًّا مُعتبَـرًا لأحـد.

أمـرٌ آخـر فعـل فعلـه: لقـد جمـع زيـاد الرحبانـي بيـن موهبـة عليـا وثقافـة دنيـا. الموهبـة قضمـت الثقافـة. وفّـرت مـن الأتبـاع والمقلّديـن مـا يلغـي الحاجـة إلـى اطّـلاع أوثـق وأدقّ. صـار الفنّـان صاحـب مأثورات، وأصحـابُ المأثـورات التـي تُحفـظ بالعشـرات هـم مَـن يُفتَـرض أنّهـم «أتمّـوا العلـم» ومـا عـادوا بحاجـة إلـى مزيـد منـه. لكـنّ التثبّـت علـى الموهبـة العـذراء كـرّس الفهـم الأعـذر. كـرّس صـدّ النفـس عـن الخـارج والاكتفـاء الذاتـيّ الـذي يفيـض علـى المعجبيـن. هكـذا، لا يبقـى مـن الخـارج، الـذي ترفـض العيـن أن تـراه، إلّا كلمـات عاريـة تتراجـع قدرتهـا علـى الإضحـاك.

اسـتطرادًا، يقـود صـدّ الخـارج وتحوّلاتـه إلـى تـآكّل فـي الداخـل. إلـى فقـر للداخـل. إلـى هلوسـة أحيانًـا.

لكـنّ التـآكّل الأخطـر الـذي ينتجـه التبسـيط الرحبانـيّ، فـي جيليـه، يطـاول المبـادرة الإنسـانيّة. عنـد الأهـل، كان سـوء الفهـم البسـيط بيـن أخيـارٍ لبنانيّيـن لا يسـتدعي أكثـر مـن «شـاويش». فـؤاد شـهاب، مصحوبًـا بمكتبـه الثانـي، كان الشـاويش الأعلـى. قليـل مـن القمـع يشـفي قلـب الإنسـان. اِسـتمرّ الأمـر هكـذا حتـى أواخـر السـتّينيّات وصعـود المقاومـة الفلسـطينيّة. مـع النجـل، صـارت الأمـور أشـدّ فداحـة وضـرورات القمـع أعلـى: الشـرّ الجوهـريّ المتأصّـل فينـا يسـتدعي هـراوة بشّـار الأسـد أو حسـن نصراللـه. يسـتدعي هـراوة سـتالين. يسـتدعي الأمـن وضبّاطـه الأقويـاء وسـجونهم وزنازينهـم، ذاك أنّنـا نحـن، العطالـة الكاملـة، لا نقـدّم ولا نؤخّـر.

لقـد آن للبطـل أن يسـتقيل. زاد إحراجـه حتـى لمريديـه. فـأن يمضـي واحدُنـا عمـره وهـو يناكـف ماضيًـا ميّتًـا فهـذه مشـكلة. المشـكلة الأكبـر هـي أن يشـيب وهـو يناكـف أهلـه.

يا له من تطبيع!

شـخصيًّا، لا تربطنـي أيّـة معرفـة بالسـينمائيّ اللبنانـيّ زيـاد دويـري، وإن كنـت أعـرف أفلامـه جزئيًّا. مـع ذلـك، يسـتهويني أن أتعـرّف إلـى علاقتـه بالإنفـاق: كيـف ينفـق؟ كـم ينفـق؟ هـل هـو مسـرف فـي إنفاقـه أم مقتصـد؟

القـارئ قـد يسـتغرب طلبـي هـذا، وقـد يعتبرنـي متطفّـلًا ومتدخّـلًا فـي أمـور تعنـي صاحبهـا ولا تعنينـي. هـذا ليـس صحيحًـا. مـا يدفعنـي إلـى ذلـك عبـارة كان كثيـرًا مـا يردّدهـا شـاتمو دويـري وهجّـاؤه تطـاول إنفاقـه بعـض الشـيكلات فـي إسـرائيل إبّـان إقامتـه هنـاك لتصويـر فيلمـه «الصدمـة». تكـرار هـذا المأخـذ أوحـى للبعـض، وأنـا منهـم، أنّ السـينمائيّ اللبنانـيّ يسـتطيع أن يـؤدّي دورًا ملحوظًـا فـي إنقـاذ الاقتصـاد الإسـرائيليّ. وفـي الوهلـة الأولـى، لـمَ لا؟ فإسـرائيل، كمـا نعلـم، عانـت، بُعيـد نشـأتها، أزمـة اقتصاديّـة خانقـة، ثـمّ عانـت أزمـة حـادّة بعـد حربهـا فـي لبنـان عـام ١٩٨٢، بحيـث دَوْلَـرتْ عملتهـا فيمـا كان يضربهـا تضخّـم فلكـيّ. وهـي قبـل ذلـك التاريـخ وبعـده تخـوض حروبًـا، والحـروب دائمًـا مكلفـة علـى مـا نعـرف جيّـدًا.

إذًا، مـا أنفقـه زيـاد دويـري فـي فندقـه وفـي المطاعـم والمقاهـي التـي قصدهـا فـي تـلّ أبيـب شـأن عـامّ يتعـدّى شـخصه وخصوصيّاتـه الحميمة.

لكنّني، ومن دون أن أبدو مسيئًا لدويري، أو مادحًا له، أتردّد كثيرًا في تقبّل النظريّة القائلة أنّه أنجد الاقتصاد الإسرائيليّ. وأعتذر عن طول شرحي للسبب الذي يجعلني أرفض تلك الفرضيّة، كما أعتذر عمّا قد يسبّبه الطول من ملل للقارئ.

فنحن نعلم أنّ إسرائيل ابنة أوروبا بأكثر من معنى: قوميّتها الصهيونيّة جزء من موجة القوميّات الأوروبيّة المتأخّرة. مشروعها الاستيطانيّ جزء من ميل أوروبيّ استيطانيّ عرفه القرن التاسع عشر. مهاجروها المؤسّسون أتوا من أوروبا. الشعور الأوروبيّ بالذنب (القرون الوسطى، دريفوس، وخصوصًا الهولوكوست...) جزء من تاريخها وتاريخ التعاطي معها.

أوروبا، وفي عدادها الاتحاد السوفياتيّ، رعت نشأة الدولة العبريّة. في ١٩٥٦، كانت موسكو قد تراجعت عن الرعاية، لكنّ باريس ولندن كانتا قد ذهبتا فيها بعيدًا جدًّا، بشهادة الحرب المشتركة على مصر. في ١٩٦٧، انضافت بكلّ ثقلها الولايات المتّحدة الأميركيّة. مذّاك، وإسرائيل تتأمرك على الأصعدة جميعًا: العسكريّة والسياسيّة، ولكنْ أيضًا الاقتصاديّة والثقافيّة والتعليميّة إلخ...

الأسطر أعلاه بديهيّات لكلّ من يملك إلمامَ الحد أدنى بإسرائيل. ما ليس بديهيّات هو العلاقة الجديدة بينها وبين كلّ من الصين والهند، القوّتين الاقتصاديّتين الصاعدتين في عالمنا اليوم.

وهذا ما يؤلمنا حقًّا كعرب وكمنحازين إلى الحقّ الفلسطينيّ، ذاك أنّ رعاية أوروبا وأميركا للدولة العبريّة هي ما لا نتوقّع سواه: هما إمبرياليّتان وهي صهيونيّة، والطيور، كما يقول بيت الشعر الشهير، على أشكالها تقع.

لكنْ الصين؟ صين ماو تسي تونغ والشيوعيّة الأكثر جذريّة ذات

مـرّة، والتـي اعتبـرت الإمبرياليّـة وقنبلتهـا النوويّـة «نمـرًا مـن ورق»؟

وكذلـك الهنـد؟ هنـد جواهـر لال نهـرو، صديـق جمـال عبدالناصـر الـذي شـاركه بنـاء «الحيـاد الإيجابـيّ» و«عـدم الانحيـاز»؟

هذا كثير حقًّا.

قيـادة بنياميـن نتانياهـو القوميّـة والانتهازيّـة فـي آن تخاطـب دول آسـيا الصاعـدة بغيـر مـا تخاطـب أوروبـا وأميـركا. للأخيرتيـن تؤكّـد ديمقراطيّتهـا فـي شـرق أوسـط غيـر ديمقراطـيّ، فيمـا تؤكّـد للآسـيويّين «خطـر الإرهـاب الإسـلاميّ» وعراقـة الحضـارات القديمـة وثانويّـة حقـوق الإنسـان قياسًـا بالحسـابات السياسـيّة العمليّـة... بهـذا التوجّـه الآسـيويّ، تـردّ إسـرائيل ضمنًـا علـى تهمتيـن تقليديّتيـن غالبًـا مـا تُوجَّهـان إليهـا: أولاهمـا أنّهـا مخفـر غربـيّ متقـدّم فـي الشـرق الأوسـط، والثانيـة أنّهـا لا تسـتطيع، ولا تريـد، الاندمـاج فـي هـذا الشـرق الأوسـط إيّـاه.

هـذا كلّـه مـا كان ليغيّـر شـيئًا لـولا تطويـر الدولـة العبريّـة مـا يُبـاع ويُشـترى مـع الآسـيويّين. وبالفعـل، فالصينيّـون لـم يُخفـوا اهتمامهـم بالتقنيّـة الإسـرائيليّة الرفيعـة. فـي ٢٠١٣ مثـلًا، ومـن ضمـن سياسـة خروجهـا إلـى العالـم، اسـتثمرت الصيـن فـي إسـرائيل سـبعة بلاييـن دولار. وبالطبـع، ليـس فـي الصيـن حركـة مقاطعـة تزعـج إسـرائيل، كالتـي فـي الولايـات المتّحـدة وأوروبـا. وفـي المقابـل، ليـس فـي إسـرائيل حركـة تحتـجّ علـى قمـع سـكّان التيبيـت أو ناشـطي حقـوق الإنسـان والمثقّفيـن الصينيّيـن. وبحسـب ياشـينغ هوانـغ، مـن جامعـة أم أي تـي الأميركيّـة، «يشـعر الصينيّـون براحـة أكبـر حيـن يسـتثمرون فـي إسـرائيل ممّـا فـي الولايـات المتّحـدة، نظـرًا إلـى عـدم وجـود عـداء سياسـيّ لهـم أو حـذر منهـم».

المشـاريع الإسـرائيليّة الصغـرى، لا سـيّما فـي الزراعـة والميـاه والأمـن السـايبريّ، ترنـو إلـى الصيـن كسـوق واعـدة وكمصـدر اسـتثماريّ فـي آن. البلـدان يتبـادلان الـكلام المنمّـق عـن أنّهمـا «ثقافتـان قديمتـان»، وأنّهمـا يركّـزان علـى التعليـم، وطبعًـا علـى الآفـاق المفتوحـة لتعاونهمـا. يتّفقـان علـى إبقـاء البيزنـس بعيـدًا مـن السياسـة وحقـوق الإنسـان. ويقـول أحـد مسـاعدي نتانياهـو للصحافـيّ جدعـون راشـمان (الـذي أصـدر أخيـرًا كتابـه المهـمّ «تشـريق»): «لقـد أمضينـا سـبع سـاعات مـع القيـادة الصينيّـة، لكـنْ هـل تعـرف كـم اسـتغرق حديثنـا عـن الفلسـطينيّين؟ بالـكاد عشـرين ثانيـة».

الصينيّـون مهتمّـون بفـرص الاسـتثمار فـي التقنيّـة الرفيعـة فـي إسـرائيل. والحـال أنّ أميـركا نفسـها بـدأت تعبّـر عـن انزعاجهـا مـن هـذه العلاقـة، مكـرّرةً تحذيـر تـلّ أبيـب مـن بيـع تقنيّـات عسـكريّة حسّاسـة إلـى الصيـن.

مـع الهنـد، وبوصـول نارنـدرا مـودي إلـى رئاسـة الحكومـة، أواسـط ٢٠١٤، تعاظـم التشـديد علـى «الإرهـاب الإسـلاميّ»، وهـذا مـا رأت فيـه القوميّـة الهندوسـيّة الحاكمـة جسـرها إلـى شـراكة، أمنيّـة وبالتالـي اقتصاديّـة، مـع إسـرائيل. راجنـاث سـنغ، وزيـر الداخليّـة فـي ٢٠١٤، اختـار الدولـة العبريّـة لتكـون وجهتـه فـي أولـى زياراتـه إلـى الخـارج. هنـاك، بحـث أمـورًا تتعلّـق بالدفـاع والأمـن، أعقبهـا دفـع الهنـد أكثـر مـن ٥٠٠ مليـون دولار لتـلّ أبيـب، مقابـل حصولهـا علـى صواريـخ «سـبايك» المضـادّة للدبّابـات والتـي فضّلهـا الهنـود علـى صواريـخ «جافِـلِن» الأميركيّـة التـي تـؤدّي الوظيفـة نفسـها. لـم يمـرّ إلّا أشـهر علـى تلـك الزيـارة حتـى صـار أحـد ألقـاب حكومـة مـودي أنّهـا «أكثـر الحكومـات تأييـدًا لإسـرائيل فـي تاريـخ الهنـد».

الهنـد كالصيـن (وروسـيا) جعلهـا انشـغالها بـ «الإرهـاب الإسـلاميّ»،

غيـر معنيّــة بنقــد الأعمــال العدوانيّــة التــي ترتكبهــا إســرائيل بحــقّ الفلســطينيّين.

فعـلًا، هـي وجهـة مؤلمـة. وهـي تحفّـز علـى التفكيـر فـي أمـور كثيـرة مـن بينهـا تعقيـد مسـألة الصـراع مـع إسـرائيل، وتعقيـد التعامـل مـع نتائـج السياسـة والاقتصـاد الإسـرائيليّين. إلّا أنّ شـيئًا واحـدًا يبقـى مؤكّـدًا، هـو أنّ إنفـاق زيـاد دويـري فـي تـلّ أبيـب لا يقـدّم بتاتًـا ولا يؤخّـر. مـن يظـنّ عكـس ذلـك، لا بـدّ أن يشـغل نفسـه بأمـور تافهـة، كأنْ يتمنّـى أن يكـون دويـري مُحبًّـا للفلافـل، لا للسوشـي أو سـمك السـلمون، وأن يذهـب تفضيلـه للفلافـل العاديّـة علـى الفلافـل الإكسـترا، ولفلقـة الخبـز الواحـدة فـي السـندويش علـى الفلقتيـن. هكـذا، تتضـاءل قدرتـه علـى إنجـاد الاقتصـاد الإسـرائيليّ وفقًـا للذيـن يتّهمونـه بذلـك.

شرقٌ ضدّ غرب... غربٌ ضدّ شرق

تسـتعيد بيئـاتٌ نضاليّـة مفهـوم الشـرق والغـرب المتضادّيـن وتضعـه مجـدّدًا فـي الواجهـة. أحـداث وتطـوّرات كثيـرة تُغـري بذلـك، فـي عدادهـا اللاجئـون والمهاجـرون مـن «الشـرق» الذيـن «يدقّـون أبـواب الغـرب»، فيمـا يتباهـى «غربيّـون» بأنّهـم «يصدّونهـم» ويحاولـون «ردّهـم علـى أعقابهـم». البوّابـات الحدوديّـة، فـي اليونـان وإيطاليـا وإسـبانيا جنوبًـا، وفـي هنغاريـا والنمسـا شـرقًا، تعيـد الاعتبـار لــ «القـلاع والحصـون» التـي ترسّـم الحـدود بيـن «شـرق» و«غـرب». فـالأوّل، فـي حسـبة دعـاة «الغـرب»، لا يملـك إلّا الإرهـاب سـلعةً يصدّرهـا للآمنيـن، أو الهمجيّـة، دينيّـة وغيـر دينيّـة، يقصـف بهـا المتقدّميـن. ومـع الضربـات التـي نزلـت أخيـرًا باقتصـادَي إيـران وتركيّـا، بينمـا يترنّـح الاقتصـاد

المصريّ في ظلّ «المخلّص» السيسي، بدا للبعض أنّ «أمم الشرق الكبرى» مهدَّدة بالتجويع. الدور الأميركيّ في ذلك - من الانسحاب من الاتفاق النوويّ وتجديد العقوبات على إيران إلى رفع الرسوم الجمركيّة على الصلب والألومينيوم التركيّين المُصدَّرين إلى أميركا - يوحي بأنّ «الغرب» هو الذي يجوّع «الشرق». هذا التأويل ينهل من تقليد عريق يردّ ثراء «الغرب» إلى «نهب» «العالم الثالث»، أي «الشرق» الموسّع، بطرائق شتّى. ولأنّ الأمر على هذا النحو سبق للماويّة الصينيّة أن ردّت بصوت يزمجر: «إنّ ريح الشرق تغلب ريح الغرب». التأويل إيّاه يغتني اليوم بما يقوله الإيرانيّون والأتراك حول الاستعانة بالصين وروسيا على مصابهما ذي المصدر الأميركيّ. إذًا صرنا «أممًا شتّى ولكنّ العلى/ جمعتنا أمّةً يوم النِدا»، كما كتب ذات مرّة محمود حسن إسماعيل وغنّى محمّد عبدالوهّاب.

بطبيعة الحال، وكما كان الأمر دائمًا، تخون الرهافةُ والدقّةُ هذه التحليلات، ذاك أنّ إسرائيل الواقعة في «الشرق» «غربيّة» اقتصادًا وتعليمًا وتنظيمًا، بحيث لا يتوقّف العرب عن دعوتها إلى «الانتساب إلى المنطقة». ولا يحول وقوع اليابان في أقصى الشرق الجغرافيّ دون «غربيّة» في سائر المجالات مشهود لها بها. وإذ يتبدّى زعيم «الغرب» دونالد ترامب «شرقيًّا جدًّا"، فإنّنا لن نكون بحاجة إلى الكثير من الأمثلة فيما نشاهد ترامب نفسه يشنّ على بلدان طاعنة في «الغربيّة»، ككندا ودول الاتّحاد الأوروبيّ، الحرب التجاريّة نفسها التي يشنّها على «الشرقيّين». ناهيك بأنّ المتشدّقين بـ «شرقيّة» روسيا اليوم تفوتهم تلك السعادة الغامرة التي عصفت بنُخب العالم الإسلاميّ في ١٩٠٤، إثر الحرب التي تغلّبت فيها اليابان «الشرقيّة» على روسيّا «الغربيّة».

محذوفات هذا الوعي، مثل محفوظاته، كثيرة. فمن شروطه

مثلًا، عدم الانتباه إلى سيرورة نزع المسيحيّة في تاريخ الحداثة الأوروبيّة، بحيث يبقى «الغرب» صليبيًّا تتجدّد صليبيّته وتتّخذ أسماء شتّى. وسلوك كهذا ينطبق على كلّ تناقض داخليّ أكان «عندنا» أم «عندهم»، من دون أن يغيّر كثيرًا في الأمر أنّ المنطقة العربيّة «الشرقيّة» انشقّت، مع ثوراتها، على نحو يجيز التساؤل عن كلّ «وحدة» جامعة فيها.

والحال أنّ «الشرقيّ» البحت و«الغربيّ» البحت بدآ منذ مئات السنين يكفّان عن صفائهما هذا. لقد انتقلا من كونهما واقعتين جغرافيّتين إلى صيرورتهما واقعتين تاريخيّتين. ويُخبرنا، مثلًا لا حصرًا، روبرت إروين، صاحب الكتاب اللامع «معرفة خطِرة: الاستشراق ومعارضوه»، ما يشكّك بالتقديم السائد للاستشراق بوصفه عدوانًا لا يتعب من «الغرب» على «الشرق»، ذاك أنّه، ومنذ وقت يرقى إلى القرن السادس عشر، ارتبط الموقف من الإسلام بنزاع دينيّ وأهليّ شقّ أوروبا نفسها. هكذا، عثر مارتن لوثر، في نقاطه السجاليّة ضدّ البابويّة، على ما اعتبره قواسم مشتركة بينها وبين الإسلام، مؤكّدًا أنّ الخطر على المسيحيّة الحقّة يتأتّى منه ومن الكاثوليكيّة سواء بسواء. مع ذلك، ورغم التوسّع العثمانيّ المسلم في البلقان حينذاك، أصرّ المصلح البروتستانتيّ على أنّ فساد الكنيسة الكاثوليكيّة هو الخطر الأكبر. في المقابل، ذهب اللغويّ الفرنسيّ والكاثوليكيّ غيّوم بوستِل، الذي يعدّه إروين المستشرق الأوّل، إلى أنّ الإسلام والبروتستانتيّة وجهان لخطر واحد، علمًا أنّه، هو الآخر، كانت تجتاحه المخاوف من توسّع السلطنة على حساب العالم المسيحيّ.

لا شكّ في أنّ هذا المفهوم الثنائيّ «شرق ـ غرب» أخرق بما فيه الكفاية، غير أنّ خَرَقه لا يُغني عن استرجاع العناصر الكثيرة التي

تلحّ على بعثه إلى الوجود كلّما تراءى أنّ عالمنا بات أذكى وأعرف. فـ «الهويّة» تعيش لحظة قوّة تكاد تكون غنائيّة، فيما مُنشدها الأبرز، دونالد ترامب، يعطيها منصّة أعلى من المنصّات التي يوفّرها لها قادة كخامنئي أو نتانياهو أو أردوغان. وهويّة الشرق مقابل الغرب، أو العكس، صالحة أن تستوعب الهويّات جميعًا، أو في الحدّ الأدنى، أن تتعايش معها. فـ «الشرق» هو العروبة والإسلام وفلسطين، وهو، ذاتَ مرّة، الطبقة العاملة وسائر الكادحين، أمّا «الغرب» فهو الإمبرياليّة والصهيونيّة والنهب والاضطهاد. وقد تنقلب المعاني والصفات رأسًا على عقب حين يكون الخطيب «غربيًّا» عنصريًّا أو شوفينيًّا متعاليًا. وإذ حاولت الماركسيّة الأوروبيّة نقل الإشكاليّة إلى الاقتصاد والسياسة، خصوصًا الموقع من الإنتاج، فقد غلبها خليط من الشعبويّة وما بعد الكولونياليّة والنقد الثقافيّ، بعضه ينتسب إليها وبعضه يتاخمها. فحين حاول إدوارد سعيد أن يفنّد الماهويّة المنسوبة إلى «الشرق»، أضفى على «الغرب» ماهويّة ترجع في أصولها إلى اليونان القديمة. ولم يحل انتقال «النمور» و«التنانين» في آسيا إلى «مركز» («غربيّ»)، دون تثبيتها، على يد سمير أمين، «أطرافًا» («شرقيّة») تابعة، لا حول لها ولا قوّة إلّا إذا كسرت «حلقة التبعيّة». وبلغات كثيرة ومناهج عدّة أعيدت صياغة العبارة الشهيرة لروديارد كيبلنغ، لتتحوّل على يد قائلها «الغربيّ» إلى صرخة عنصريّة ضدّ المساواة، لأنّ «ما يصلح للغرب لا يصلح للشرق»، ولتغدو على يد قائلها «الشرقيّ» صرخةً ضدّ الحرّيّة، التي «لا تمتّ بصلة إلى خصوصيّة الشرق». الأولى تنكر التعدّد ولا تريد الآخر إلّا راضخًا ذليلًا لحَرفيّة نموذجها. أمّا الثانية فتنكر، مسلّحةً بالنسبيّة الثقافيّة، المرجعيّات المشتركة لعالمنا الحديث لأنّها... «غربيّة». وهكذا دواليك...

هل تظنّون أنّ السياسيّين أذكياء؟

هـذا هـو الانطبـاع الشـعبيّ الواسـع. نظريّـة المؤامـرة عـزّزت هـذا الانطبـاع: «لا بـدّ أن يكونـوا أذكيـاء إلـى الحـدّ الـذي يجعلهـم يبـدون أغبيـاء! إنّهـم مـن الـذكاء إلـى درجـة يسـتطيعون معهـا أن يتغابـوا».

تجربتـي الشـخصيّة تحمـل علـى افتـراض العكـس. أذكـر، مثـلًا، قبـل عقـد ونيّـف، أنّ التفكيـر فـي السياسـيّين بـدا لـي سـببًا وجيهًـا لليـأس مـن العقـل. قلـت لنفسـي، وأنـا أحسـب مسـتويات انتمائي مسـتوًى مسـتوًى: أنـا كعـكّاريّ، أجـد أنّ السـيّد عصـام فـارس، نائـب رئيـس الحكومـة، أهـمّ سياسـيّ فـي عـكّار. وكشـماليّ، أعتبـر السـيّد عمـر كرامـي، رئيـس الحكومـة، أهـمّ سياسـيّ فـي الشـمال. وكلبنانـيّ، أعتـرف بـأنّ السـيّد إميل لحّـود، رئيـس الجمهوريّـة، أهـمّ سياسـيّ فـي لبنـان. وكعربـيّ، فـإنّ رئيـس جمهوريّـة مصـر، السـيّد حسـني مبـارك، هـو حكمًـا أهـمّ سياسـيّ فـي العالـم العربـيّ. وكمواطـن عالمـيّ، يبقـى السـيّد جـورج دبليـو بـوش، رئيـس أميـركا، أهـمّ سياسـيّ فـي العالـم.

مـا المشـترك بيـن هـؤلاء السـادة الذيـن يتحكّمـون فـي حياتـي وحياتكـم فـي مسـتوياتها المتعـدّدة؟ نقـص فـادح فـي الـذكاء، إن لـم نقـل: فـي العقـل ذاتـه.

ومَـن يطبّـق هـذه الحسـبة نفسـها اليـوم يـزدَد يأسًـا، إذ حـلّ السـيّد عبدالفتّـاح السيسـي محـلّ مبـارك، والسـيّد دونالـد ترامـب محـلّ بـوش... وهكـذا نهبـط سـنةً بعـد أخـرى إلـى وادٍ قـد لا يكـون لـه قعـر.

هـل هـؤلاء كلّهـم أذكيـاء إلـى الحـدّ الـذي يجعلهـم يمثّلـون دور الأغبيـاء بكفـاءة منقطعـة النظيـر؟ أشـكّ كثيـرًا فـي ذلـك، وأظـنّ أنّ تحليـلًا كهـذا يبالـغ فـي حذلقـةٍ تنـمّ عـن أمـر مـن اثنيـن: إمّـا ضعـف فـي الـذكاء عنـد أصحـاب ذلـك التفسـير، أو غربـة كاملـة عـن السياسـة تجعـل صاحبهـا يفتـرض أنّهـا أشـبه بالسـحر.

ومـع أنّنـي لا أحـبّ مطلقًـا أن أتفـوّه بكلمـة مديـح للسـيّد دونالـد ترامـب (وإن فعلـت فالويـل لـي مـن زميلتـي ديانـا مقلّـد)، فإنّنـي سـأعترف هنـا بـأنّ للرجـل فضيلـة واحـدة: لقـد نـزع شـيئًا مـن السـحر عـن هـذه السياسـة، إذ كشـف لنـا، وعلـى مسـتوًى كونـيّ وبإيقـاع يومـيّ، أنّ السياسـيّ «العظيـم» يمكـن فـي يومنـا هـذا أن يكـون حمـارًا. لا بـل برهـن لنـا ترامـب أنّ التفـوّق فـي الحمرنـة قابـل ـ فـي ظـروف معيّنـة ـ أن يُصـرف نجاحًـا فـي السياسـة، أي إقامـةً هانئـة فـي البيـت الأبيـض.

ولأعتـرفْ اعترافًـا آخـر هـو أنّنـي اسـتخدمت تعبيـرَي «حمـار» و«حمرنة» غيـر اللائقيـن لأنّنـي مكبـوت وممنـوع ـ طـوال عشـرات السـنوات ـ مـن اسـتخدام تعابيـر كهـذه فـي الصحافـة التقليديّـة التـي تراعـي الأعـراف الموصوفـة بالرصانـة. وبمـا أنّ القيّميـن علـى موقـع «درج» أعطونـي ضمانـات بأنّهـم ينـوون مكافحـة الحمرنـة بـلا هـوادة، فإنّنـي أقدمـت علـى ارتـكاب هـذه الأوصـاف.

لكـنْ، ولغـرض معالجـة يأسـنا المتزايـد مـن هـذه السياسـة، اسـمحوا لـي بـأن أذكّركـم بـأنّ مـا يسـمّيه البعـض «علـم السياسـة» يرقـى بأصولـه إلـى أوائـل القـرن السـادس عشـر. وهـو مـا يُعـزى تأسيسـه إلـى الفلورنسـيّ نيكولـو ماكيافيللـي الـذي اسـتقلّ بـه عـن الديـن والأخلاقيّـات، قبـل أن يتعهّـده الفرنسـيّ جـون بـودان بنظريّتـه فـي «السـيادة». وطـوال قـرون، عرفـت السياسـة بعـض أذكـى النـاس وأوفرهـم عقـلًا ممّـن لا يمتّـون بصلـة إلـى تلـك اللائحـة المذكـورة أعـلاه.

وطـوال القـرون نفسـها، لـم يظهـر سياسـيّون كبـار فحسـب، بـل ظهـرت نظريّـات وأفـكار سياسـيّة كبيـرة أيضًـا، كلّ واحـدة منهـا تذكّرنـا، علـى نحـو ضـدّيّ، بأحـد «عباقـرة» زمننـا الراهـن. فترامـب، مثـلًا، يذكّـر عكسـيًّا باسـم لا بـدّ أنّكـم تعرفونـه، هـو: جـورج كينـان الـذي كان

موظّفًا في السفارة الأميركيّة في موسكو في الأربعينيّات. لماذا كينان؟ لأنّه كان أحد أكبر المراهنين على الأفكار، أي تحديدًا على البضاعة التي يكرهها ترامب. قناعته كانت أنّ الاتّحاد السوفياتيّ، الفاشل كنموذج في مواجهة الولايات المتّحدة والديمقراطيّات الغربيّة، يعمد إلى تخريب النماذج الديمقراطيّة التي لا يستطيع أن ينافسها: يخرّبها بالدسّ. بالدعاية الكاذبة. باختلاق الأخبار وتضخيمها...

في ١٩٤٦، وفي برقيّة طويلة باتت شهيرة، جادل كينان بأنّ الاتّحاد السوفياتيّ لن يهاجم الولايات المتّحدة عسكريًّا، لكنّه سيبذل كلّ جهده لتحطيم قدرات البلدان الغربيّة وضرب معنويّاتها ومفاقمة توتّراتها الاجتماعيّة وإثارة التناقضات بين شعوبها ودولها. وبالفعل، كان الكي. جي. بي. يومذاك يملك دائرة خاصّة اسمها «إجراءات نشطة» active measures هدفها إضعاف الغرب الديمقراطيّ. وقد تبيّن أنّ هذه الدائرة وزّعت رسائل مزيّفة نسبتها إلى عنصريّي الكو كلاكس كلان، ونشرت قصصًا مؤدّاها أنّ الولايات المتّحدة اخترعت مرض الإيدز كسلاح بيولوجيّ، وأنّ السي آي إيه هي التي اغتالت جون كينيدي...

لكنّ كينان استنتج في برقيّته إيّاها، التي وقّعها بالحرف X، أنّ قدرة أميركا على تعطيل هذه المحاولات السوفياتيّة لا تكمن في العسكر والقوّة، ولا حتى في الديبلوماسيّة، بل في الأفكار التي تمنح المجتمع صحّته ومتانته: «فكلّ قرار شجاع وحادّ التأثير في حلّ المشاكل الداخليّة لمجتمعنا، ولتحسين ثقتنا في النفس (...) هو انتصار ديبلوماسيّ على موسكو... فينبغي أن نتمتّع بالشجاعة والثقة في النفس كي نتمسّك بمناهجنا وتصوّراتنا عن المجتمع الإنسانيّ. وفي النهاية، سيكون الخطر الأكبر علينا، في تعاملنا مع مشكلة

الشـيوعيّة السـوفياتيّة، أن نسـمح لأنفسـنا بـأن نصبـح مثـل أولئـك الذيـن نتعامـل معهـم».

ومثلمـا عاشـت فبركـة الأخبـار السـوفياتيّة طويـلًا، وبعضهـا لا يـزال فـي قيـد الحيـاة، اسـتأنف السـيّد فلاديميـر بوتيـن ذلـك التقليـد السـوفياتيّ وعـزّزه باسـتخدام التقنيّـات الإعلاميّـة الحديثـة. واليـوم، هنـاك الكثيـر الـذي نقـرأه ببـراءة عـن «أمـراض الغـرب» و«مؤامراتـه» (وهـو يعانـي فعـلًا بعـض الأمـراض وينسـج بعـض المؤامـرات) ممّـا تسـلّل إلينـا، مباشـرة أو مـداورة، مـن ذلـك المخـزون الروسـيّ ـ السـوفياتيّ العريـق.

علـى أنّ كينـان، الـذي خالـف تأويـلَ نظرتـه إلـى «الاحتـواء» بوصفهـا تصعيـدًا للحـرب البـاردة، اسـتمرّ طويـلًا فـي تعويلـه علـى الأفـكار وفاعليّتها فـي السياسـة. فحيـن سـمح العهـد الخروتشـيفيّ بنشـر روايـة سولجنتسـين «أرخبيـل الغـولاغ» مُسلسـلَةً فـي الصحافـة، اعتبـر تلـك الخطـوة «الإدانـة الأقـوى التـي يمكـن إنزالهـا بحـقّ نظـام سياسـيّ فـي الأزمنـة الحديثـة».

فهـل نضـع عقـل جـورج كينـان وعقـول السـادة المذكوريـن أعـلاه فـي سـلّة واحـدة نسـمّيها السياسـة؟ وهـل نطالـب هـؤلاء السـادة إيّاهـم بـأن يعوّلـوا علـى الأفـكار، أي علـى مـا لا يملكونـه، مثلمـا عـوّل كينـان؟

الجـواب عـن السـؤالين هـو طبعًـا: لا. فنحـن محكومـون، فـي معـزل عنهـم، بـأن نمضـي فـي التعويـل علـى السياسـة. إنّهـا وحدهـا مـا سـيعيد الاعتبـار، يومًـا مـا، إلـى العقـل والأفـكار.

أفكار مكروهة

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَارالجَديْد
Dar al Jadeed

لكنْ أين أصبحت فيتنام؟

فـي أواسـط السـبعينيّات، انتصـرت فيتنـام، وبوشـر بتوحيـد شـمالها وجنوبها ووسطها في ظلّ القيادة الشيوعيّة للشمال. مدينة سايغون، عاصمة الجنوب، ما لبثت أن سُمّيت مدينة هوشي مْنِه. الأميركيّون رحلوا مصحوبين بالهزيمة والذلّ. عدد قتلاهم (٥٨ ألفًا) كان محتملًا. ضغط رأيهم العامّ لم يكن.

ذلك النصر كان صفعة مدوّية أنزلها ما هو حقّ بما هو باطل. حدث ١٩٧٥ الكبير، ثمّ تَتِمّتُه في وحدة ١٩٧٦ التي أقامت جمهوريّة فيتناميّة اشتراكيّة واحدة، كانا مفخرة لجيل بأكمله على امتداد الكرة الأرضيّة.

هذا التقييم لم يكن خاطئًا بالمطلق. فالأميركيّون هم الذين ذهبوا غزاةً إلى جنوب شرق آسيا، وليس الفيتناميّون مَن غزا الولايات المتّحدة. وهم الذين ركبوا رؤوسهم مُصرّين على إحراز انتصار حاسم في الحرب الباردة: هكذا، استخدموا أسلحة محرّمة وقتلوا أعدادًا هائلة من السكّان كما أتلفوا أراضي زراعيّة لم تعد تُنبت إلّا اليباس. وهم أيضًا دعموا أنظمة فاسدة وقمعيّة وانقلابيّة في الجنوب متوسّمين فيها الفاعليّة المنشودة في مكافحة الشيوعيّة. الحرب الكوريّة في ١٩٥٠-١٩٥٣، كانت وحدها ما يُثقل عليهم. الهزيمة الفرنسيّة في ديان بيان فو عام ١٩٥٤ لم تعلّمهم الكثير.

ما ليس صحيحًا، في المقابل، أنّ الحقّ الفيتناميّ يجعل كلّ ما فعله الفيتناميّون، أو قالوه، حقًّا.

ففيتنام لم تكن موحّدة جزّأها الفرنسيّون، ثمّ الأميركيّون، وأعاد الشيوعيّون توحيدها. التاريخ أشدّ تعرّجًا بلا قياس من هذه الرواية المبسّطة. فيتنام ملعب فسيح للتعدّد الإثنيّ المتنازع، وهي تنطوي على وحدات ثلاث عاشت التباعد والانقسام أكثر كثيرًا ممّا عرفت الوحدة: تونكين في الشمال، وأنّام في الوسط، وكوتشنشينا في الجنوب. واقع كهذا، وليس «الانحياز إلى فكر الطبقة العاملة» أو «العداء للإمبرياليّة»، هو ما يفسّر قوّة الشيوعيّة كطرف دمجيّ يعالج التنوّع بالسحق والاستئصال. نزعة الدمج الشيوعيّة هذه بلغت مدى أبعد وأشدّ قهرًا وقسوة في بلد مجاور هو كمبوديا إبّان حكم «الخمير الحمر».

توحيد فيتنام لا يعني إذًا أنّ «الشعب الفيتناميّ» كان، كأسنان المشط، واحدًا في وحدويّته. قطاعات عريضة جدًّا من هذا الشعب، وهي تتعدّى كثيرًا «حفنة عملاء»، هُزمت بالوحدة، تمامًا كما انتصرت بالوحدة قطاعات عريضة أخرى.

كذلك، غذّى الفوارقَ تفاوت العلاقة بالكولونياليّة الفرنسيّة، وهو دائمًا تفاوت متعدّد الأطراف. الجنوب، لا سيّما محيط سايغون ودلتا نهر الميكونغ، أقبل على «الحياة الغربيّة» أكثر ممّا أقبل الشمال. وهي، بدورها، أقبلت عليه أكثر ممّا أقبلت على الشمال. لاحقًا، حين انعطف الفيتناميّون عن الاشتراكيّة السوفياتيّة وباشروا الانفتاح على العالم، ظهر تقسيم عمل شديد الدلالة: السلطة السياسيّة والحزبيّة للشماليّين، السلطة الاقتصاديّة والتعليميّة للجنوبيّين. جنوب ما قبل الوحدة تغيّرت صورته بالتالي: لم يعد مجرّد سجن وعمالة وتبعيّة، على ما روّجت له الدعاية الشيوعيّة والنضاليّات

العالمثالثيّة. صار يُقدَّم بوصفه أرضًا للخبرات ونموذجًا للتقليد. لقد بدا أكثر تأهيلًا للتكيّف مع الحياة الطبيعيّة، خارج الثكنة والمتراس، ومع معاصرة العصر.

الطريق لم يكن سهلًا. فبُعيد الوحدة، خصوصًا في ١٩٧٨، أُمّم كلّ شيء تقريبًا. لكنّ الفقر والبطالة والأمّيّة زاد فتكها بالبلد. الدخل الفرديّ كان ١٠٠ دولار سنويًّا.

الصفعة الأولى للصورة الورديّة التي رُسمت عن فيتنام وثورتها كانت «سكّان القوارب» الذين راحوا يفرّون من «النعيم الاشتراكيّ» مدركين أنّ الموت غرقًا احتمال كبير. هذه الظاهرة، وقد بلغت أوجها بين ١٩٧٧ و١٩٧٩، فرارًا من الفقر والاضطهاد ومعسكرات إعادة التأهيل العقائديّ، طاولت مئات آلاف الباحثين عن العمل والكرامة معًا.

الشعور الانتصاريّ الذي حلّ بعد ١٩٧٥، بدأ يتواضع ويتردّد. العالم الذي احتفل بانتصار ١٩٧٥ أصابته الجفلة.

في ١٩٨٦، انطلق التحوّل ببطء إنّما بثبات: عامذاك، وبعد سنة واحدة على تولّي ميخائيل غورباتشوف الأمانة العامّة للحزب الشيوعيّ السوفياتيّ، وجد الشيوعيّون الفيتناميّون الفرصة سانحة لمغادرة النظام والأيديولوجيا الشيوعيّين من دون مغادرة حكم الحزب الواحد. الصينيّون كانوا قد دلّوهم إلى هذا الخيار. هكذا، عقدوا المؤتمر السادس لحزبهم وقرّروا برنامجًا واسعًا للإصلاح أسموه «التجديد». التجارب الآسيويّة في الرأسماليّة، أي تجارب «النمور» و«التنانين» فضلًا عن اليابان وتحوّلات الصين بعد إصلاحات دينغ هشياو بنغ، انضافت إلى الغورباتشوفيّة لتعزّز هذه الوجهة: لقد اكتشف الفيتناميّون وجود سوق آسيويّة ضخمة ومُربحة ينبغي الحضور فيها وإن عبر كيفيّات ومعايير رأسماليّة.

وبالفعل، عادت فيتنام، في التسعينيّات، إلى ما كانته في الثلاثينيّات: المصدر العالميّ الثالث للأرزّ. انفتح الباب للسياحة. المصارف بدأت تُفتح. معدّلات النموّ، قبل انفجار الأزمة الآسيويّة في ١٩٩٧-١٩٩٨، وصلت إلى ٩ في المئة. التوظيفات الأجنبيّة، خصوصًا الآسيويّة بلغت في أواخر ١٩٩٤ ستّة بلايين دولار. كذلك انتسبت فيتنام إلى «رابطة أمم جنوب شرق آسيا» (إيجيان) للتعاون الاقتصاديّ الإقليميّ، إلى جانب ماليزيا وإندونيسيا والفيليبّين وسنغافورة وتايلاند وكوريا الجنوبيّة. الثقافة أيضًا صارت أكثر حرّيّة نسبيًّا. الأعصاب استرخت، فراحت تراجع تجربة سنوات الثورة وصورة «العدوّ» بدرجة أعلى من الرحابة والدقّة.

في ١٩٩٥ تحديدًا، استعيدت العلاقات الديبلوماسيّة مع واشنطن، وراحت تتحسّن على غير صعيد: التجارة والتبادل الثقافيّ والتعاون العسكريّ. أميركا صارت المستورد الأكبر للسلع الفيتناميّة فيما الطلّاب الفيتناميّون الذين يدرسون في جامعاتها باتوا الكتلة الأجنبيّة الثامنة بين طلّاب الولايات المتّحدة. السيّاح الأميركيّون تدفّقوا، وتدفّقت معهم الثقافة الشعبيّة ومطاعم الوجبات السريعة. هانوي أنشأت مؤسّسة وظيفتها البحث عن مفقودي زمن الحرب من الأميركيّين. في ٢٠٠٧، انضمّت هانوي إلى منظّمة التجارة العالميّة.

هناك إشكالات ظلّت قائمة لكنّ الطرفين عملا على ضبطها، أهمّها الاحتجاجات الأميركيّة على معاملة الحكومة الفيتناميّة لمنشقّين سياسيّين ودينيّين. صعود الأجندة الديمقراطيّة في التسعينيّات صبغ الأميركيّين بالتقدّميّة والفيتناميّين بالرجعيّة!

مذّاك، مرّت مياه كثيرة تحت جسور فيتنام. لكنْ، في مطلع آذار (مارس) الجاري، فوجئ العالم بخبر غير عاديّ. حاملة الطائرات الأميركيّة «كارل فِنسون»، التي تحمل ٩٠ طائرة على متنها، نفّذت

«زيـارة تاريخيّـة» إلـى فيتنـام. شـيء كهـذا يحصـل أوّل مـرّة منـذ انتهـاء الحـرب. الرمـز كان مدوّيًـا: الحاملـة حطّـت فـي ميـنـاء دانانـغ، قريبًـا جـدًّا مـن الموقـع الـذي حـطّ فيـه الجنـود الأميركيّـون الغـزاة عـام ١٩٦٥، ثـمّ تحـوّل قاعـدة أميركيّـة كبـرى علـى امتـداد سـني القتـال. يومـذاك، كانـوا أعـداء. اليـوم، ضيـوف.

هـذه الزيـارة، جـاءت تتويجًـا لمـا وصفتـه وكالات الأنبـاء العالميّـة بـ «علاقـات عسـكريّة ناميـة بيـن البلديـن». «الإمبرياليّـة الأميركيّـة» لـم تعـد الشـرّ المطلـق. الشـرّ هـو... الصيـن.

فـي اليـوم الـذي شـهد زيـارة «كارل فنسـون»، كانـت الصيـن تعلـن عـن موازنتهـا العسـكريّة السـنويّة البالغـة ١٧٥ مليـار دولار، بزيـادة ٨ فـي المئـة عـن العـام الماضـي.

«مناهضـة الإمبرياليّـة» وثنائيّـة الخيـر والشـرّ لـم تجـدا غيـر الصمـت والإنـكار ملجًـأ. لقـد تكشّـف حجـم غفلتهمـا عـن التاريـخ والجغرافيـا والجغرافيـا السياسـيّة، وتاليًـا عـن إرادات الأطـراف المعنيّيـن أنفسـهم.

اليـوم، الصيـن هـي التـي تخيـف فيتنـام لأسـباب كثيـرة: هنـاك المحاذيـر العميقـة التـي تضـرب جذورهـا فـي تاريـخ مديـد. هـذه المحاذيـر لـم تسـكن إلّا إبّـان الحـرب الأميركيّـة ـ الفيتناميّـة التـي حملـت الصينيّيـن، مثلهـم مثـل الـروس، علـى دعـم هوشـي مْنِـه وقيادتـه. الأخيـرون، بحـسّ قومـيّ ونفعـيّ، آثـروا، حفاظًـا علـى هـذا الدعـم المـزدوج، ألّا ينحـازوا إلـى أيّ مـن العملاقيـن الشـيوعيّين، مُطوّريـن «الخـطّ الفيتنامـيّ» المسـتقلّ فـي الشـيوعيّة. التمسّـك بلينيـن بـدا مخرجًـا نظريًّـا ممتـازًا يلبّـي هـذه الحاجـة.

بعـد انتصـار ثورتهـم، تبنّـوا النمـوذج السـوفياتيّ لأنّ اطمئنانهـم إلـى موسـكو يفـوق اطمئنانهـم إلـى الجـار الصينـيّ الأقـرب. فـي ١٩٧٨، غـزت

فيتنـامُ كمبوديـا، المرعيّـة صينيًّـا، فأطاحـت حكـم «الخميـر الحمـر»، لكنّ حربًـا لـم تـدم طويـلًا نشـبت فـي العـام التالـي بيـن هانـوي وبكيـن.

مـع انهيـار الاتّحـاد السـوفياتيّ، وجـدت فيتنـام الفرصـة التـي اسـتخدمتها لتحسـين علاقاتهـا بالصيـن كمـا بالغـرب. قالـت: «صلتنـا بـدول العالـم تقـوم علـى الصداقـة فـي مَعْـزِلٍ عـن الاعتبـارات الأيديولوجيّـة». هكـذا، بُـذل الكثيـر مـن الجهـد لترميـم جسـرها مـع بكيـن مـن دون أن تـزول المخـاوف والمحاذيـر، لا سـيّما حيـال جـزر بحـر الصيـن الجنوبـيّ التـي ظلّـت تسـتجرّ اشـتباكات متقطّعـة. العواطـف القويّـة المناهضـة للصيـن عـاودت الانفجـار فـي ٢٠١٤، إذ هوجمـت فـي فيتنـام مصانـع ومعامـل قيـل إنّ الصينيّيـن يملكونهـا، ردًّا علـى مـا وُصـف بانتهـاك الصيـن ميـاهَ فيتنـام الإقليميّـة.

مزاعـم بكيـن فـي بحـر الصيـن الجنوبـيّ هـي قضيّـة فيتنـام اليـوم. الصيـن تريـده كلّـه تقريبًـا بغـضّ النظـر عـن مزاعـم فيتنـام بجـزر باراسِـل وسـبرانلي. وبكيـن، علـى رغـم إشـارات معاكسـة، تمضـي فـي بنـاء القواعـد الجوّيّـة ومحطّـات الـرادار والصواريـخ هنـاك، بمـا يضمـن سـيطرتها علـى الجـزر، غيـر آبهـة بمزاعـم خمـس دول آسـيويّة فـي عدادهـا فيتنـام.

الأخيـرة مضطـرّة أن تضبـط شـعورها بالعـداء، ليـس فقـط لأنّ الصيـن أقـوى عسـكريًّا بـلا قيـاس (وتجمـع بيـن البلديـن حـدود مشـتركة تمتـدّ علـى ألـف كيلومتـر)، بـل أيضًـا لأنّهـا الشـريك التجـاريّ الأكبـر لفيتنـام. حجـم تبادلهمـا ٩٠ بليـون دولار سـنويًّا.

يبقـى أنّ الخـوف مـن الصيـن هـو مـا سـرّع التوجّـه نحـو الولايـات المتّحـدة. تركيـز بـاراك أوبامـا علـى آسـيا والمحيـط الهـادئ، سـبق أن طمـأن الفيتناميّيـن. فـي ٢٠١٦، زار أوبامـا هانـوي، معلنًـا رفـع القيـود كافّـة عـن بيعهـا معـدّات عسـكريّة. تلـك الزيـارة اعتُبـرت نهايـة ثانيـة

للحـرب. كذلـك، انضمّـت فيتنـام إلـى اتّفاقيّـة الشـراكة التجاريّـة العابـرة للمحيـط الهـادئ (تــي. بــي. بــي)، وهــي مجموعــة للتجــارة الحــرّة اقترحهـا أوبامـا.

الولايـات المتّحـدة، بدورهـا، تعلـن أنّهـا حياديّـة فـي نـزاع المزاعـم فـي بحـر الصيـن الجنوبـيّ، لكـنّ أسـطولها البحـريّ يُصـرُّ علـى تمتّعـه بـ «حرّيّـة الملاحـة» التـي تزعـج الصينيّيـن. احتمـالات الحـرب التجاريّـة التـي أعلنهـا دونالـد ترامـب بيـن واشـنطن وبكيـن تُضاعِـفُ الشـعور بالانزعـاج.

لكـنّ المدهـش بقيـاس الأمـس أنّ فيتنـام لا تخفـي قلقهـا مـن تنامـي الضعـف الأميركـيّ. إنّهـا تخشـى تراجـع النفـوذ الأميركـيّ وتريـد أميـركا أقـوى وأكثـر تدخّليّـة فـي آسـيا. هـذا وحـده، فـي رأي فيتناميّـي اليـوم، مـا يجعـل الصيـن تفكّـر مـرّات عـدّة قبـل الإقـدام علـى عمـل توسّـعيّ. إنسـحابُ ترامـب مـن اتّفاقيّـة الشـراكة التجاريّـة أقلقهـا. مـع هـذا، أصـرّ رئيـس الحكومـة نيغويـن كسـوان فـوك علـى أن يكـون أوّل زعيـم مـن جنـوب شـرق آسـيا يـزور ترامـب. حصـل ذلـك فـي أيّـار (مايـو) الماضـي قبـل أن يسـتضيفه فـي قمّـة دول «إيجيـان» فـي تشـرين الثانـي (نوفمبر) الماضـي.

فيتنـام، بتعبيـر آخـر، يهمّهـا الحفـاظ علـى الاهتمـام الأميركـيّ بهـا، وتاليًـا بآسـيا، مـن غيـر أن تُضطـرّ إلـى إثـارة الصيـن واسـتفزازها. لذلـك، لـم تعقـد «شـراكة اسـتراتيجيّة» مـع واشـنطن، مفضّلـةً أن تسـتقبل «كارل فنسـون» تحـت لافتـة «حرّيّـة الملاحـة».

لقـد عاشـت فيتنـام وثورتهـا طويـلًا كموضـوع للبيـع والشـراء الثوريّيـن. هكـذا، بـدت الحـال حيـن كانـت شـيئًا دمويًّـا يتـراوح بيـن الخرافـة والأسـطورة. حيـن صـارت بلـدًا حقيقيًّـا. فعليًّـا. طبيعيًّـا. مـن لحـم ودم ومصالـح وإرادات... رأيناهـا تختفـي عـن شاشـتهم. تلـك الملحمـة

الأيقونيّة نادرًا ما يذكرها اليوم من أيقَنوها بالأمس. ٩٣ مليون فيتناميّ اندثروا!

العقل والحرّيّة قبل الوطنيّة والتحديث!

لم يكن عبدالحميد الثاني ذلك المستبدّ الجهول والأعمى الذي رسمته الخرافة. فالسلطان العثمانيّ أنجز العديد من الإصلاحات وأعمال التحديث، وليس من المبالغة، كما رأى المؤرّخ برنارد لويس في كتابه التأسيسيّ «قيام تركيّا الحديثة»، اعتبار السنوات الأولى من عهده الفترة التي بلغت فيها التنظيمات ـ القانونيّة والإداريّة والمتعلّقة بالإصلاح التعليميّ ـ ذروتها، لا سيّما تكثير المدارس وتوسيعها وافتتاح جامعة اسطنبول في آب (أغسطس) ١٨٩٠ لتكون أوّل جامعة حديثة ووطنية في العالم الإسلاميّ. والشيء نفسه يقال في تحديث المحاكم وتحسين المواصلات وتوسيع العمل بالتلغراف، لا بل، وعلى رغم الرقابة وشبكات التجسّس، تعاظم في عهده نشر الصحف والكتب، كما ازدهرت محاولات جديدة في الكتابة والتعبير.

وهو، إلى ذلك، رفض بيع فلسطين لثيودور هرتزل وحركته الصهيونيّة، كما قاوم الدول الغربيّة التي اتُّهمت بالتآمر عليه وعلينا، نحن سكّان السلطنة، كما اتُّهمت بالمضيّ في تشجيع الجماعات والشعوب على الاستقلال عن إمبراطوريّته المتمادية الأطراف. هذا مجتمعًا يجعل عبدالحميد بطلًا نموذجيًّا لكارهي الإمبرياليّة التحديثيّين في يومنا، إذ هل نتخيّل حاكمًا وطنيًّا أفضل في «تصليب الداخل ومقاومة الخارج»؟ وتثمين إيجابيّ كهذا لعبدالحميد وجد ما يعزّزه في

تطوّرات العقـود الخمسـة الماضيـة: ذاك أنّ القوميّـة العربيّـة فـي شـكلها العلمانـيّ والثقافـيّ المبكـر، حيـث أدّى المسـيحيّون وأبنـاء الأقلّيّـات دورًا ملحوظًـا، إنّمـا تراجعـت أمـام القوميّـة السياسـيّة والنضاليّـة كمـا مثّلتهـا الناصريّـة، قبـل أن تنطـوي فـي شـعبويّة إسـلاميّة لا تكـفّ عـن الاحتفـال بالسـلطنة وتراثهـا. لكـنّ عبدالحميـد، مـن جهـة أخـرى، وضمـن عمليّـة التحديـث ذاتهـا، دفـع مَرْكَـزة الاسـتبداد وفاعليّتـه إلـى حـدّ الكمـال. لأجـل هـذا الغـرض، وفضـلًا عـن إجـراءات أخـرى، كان لا بـدّ مـن التحكّـم فـي العقـول عبـر التحكّـم فـي المعرفـة وفـي التعبيـر.

ويضـرب برنـارد لويـس مثـلًا علـى الإعـلام السـائد فـي عهـده: «فالرقابـة، التـي كانـت قـد أنشـئت فـي زمـن [السـلطان] عبدالعزيـز، حوفـظ عليهـا وعُـزِّزَت، كمـا تمـدّدت مـن الصحـف إلـى كلّ مـا هـو مطبـوع تقريبًـا. ففـي البدايـة، سُـمح للصحافـة والنشـرات الدوريّـة بدرجـةٍ مـا مـن حرّيّـة التعليـق ـ لكـنّ هـذا قُلِّـص سـريعًا لتُفـرض رقابـة غالبًـا مـا اتّسـمت بتشـدّد مثيـر للسـخرية. فاسـم السـلطان المخلـوع مـراد الخامـس لا يُذكـر ـ هكـذا جـاء فـي تقريـر صحافـيّ عـام ١٩٠٤ عـن ترميـم جامـع مـراد الثانـي فـي بورصـة، وهـو الـذي يعـود إلـى القـرن الخامـس عشـر، أنّـه «جامـع الأب المقيـم فـي السـماء جلالـة السـلطان محمّـد الفاتـح». لا بـل كان قتـل الملـوك موضوعًـا أخطـر ـ هكـذا ردّت الصحـف التركيّـة المـوت المفاجـئ لملـك صربيـا وملكتهـا فـي ١٩٠٣ إلـى سـوء الهضـم. وبالطريقـة نفسـها، ماتـت إمبراطـورة النمسـا إليزابيـث بالتهـاب رئـويّ، والرئيـس [الفرنسـيّ] كارنـوت بالسـكتة الدماغيّـة، والرئيـس [الأميركـيّ] ماكِنلـي بمـرض الجمـرة الخبيثـة».

والحقيقـة أنّ هـذه كلّهـا أكاذيـب مـن النـوع الأردأ. فملـك صربيـا ألكسـندر وزوجتـه دراغـا اغتالهمـا عـدد مـن ضبّـاط جيشـهما، كمـا أنّ الإمبراطـورة إليزابيـث، زوجـة الإمبراطـور الهبسـبورغيّ فرانـز جوزيـف،

قضت على يد الفوضويّ الإيطاليّ لويجي لوشيني، بينما اغتال فوضويّ إيطاليّ آخر حمل اسم سان جيرونيمو كاسيريو الرئيس كارنوت، وتولّى فوضويّ ثالث، هو الأميركيّ البولنديّ الأصل ليون شولغوش، اغتيال الرئيس ماكِنلي. يومذاك، بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، حلّ العصر الذهبيّ للإرهاب الفوضويّ الذي تعدّى قتل الحكّام إلى تفجير الصالات والقطارات وما تقع عليه اليد.

لكنّ السلطان عبدالحميد رأى في فكرة قتل الملوك أمرًا ينبغي أن يكون محرّمًا، أمرًا ينبغي ألّا «يحدث» وإن حدث في الواقع، وإلّا بات قتله هو نفسه فعلًا محتمل الحدوث. وما دام وجود الشيء لا يكتمل بغير معرفته، وما دام اكتشاف كولومبوس أميركا هو وحده ما «أوجد» أميركا، على رغم وجودها المديد قبل كولومبوس، فالمطلوب هو ألّا تقوم المعرفة على ذلك الوجود.

لا شكّ في أنّ في وسع العرب وبعض الشعوب الأخرى ضرب أمثلة كثيرة على هذه المواقف الحميديّة في تجارب بلدانهم. فإعلام الأكاذيب في البلدان التوتاليتاريّة غذّى ما هو متراكم عندنا من خبرات «شرقيّة» في الاستبداد وجدّده. هكذا، مثلًا، ضجّت صحافة معمّر القذّافي وصدّام حسين وحافظ الأسد ونجله بشّار بعيّنات تشبه تلك التي امتلأت بها صحافة كيم إيل سونغ ونجله كيم جونغ إيل وحفيده كيم جونغ أون. ولا يزال المثل الأبرز في التجارب العربيّة «تغطية» الإعلام المصريّ لحرب الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧. حينذاك، تحوّلت الطائرات الإسرائيليّة، التي كانت تدكّ المطارات المصريّة وتدمّر طائراتها ومدرّجاتها، إلى طيور ذبيحة تتساقط من الجوّ بالعشرات.

وفي هذه الأنماط من الأنظمة، غالبًا ما يتّخذ العدوان على

المعرفة شكلًا آخر هو المنع من السفر إلى الخارج، أو الحدّ منه وتعقيده. فهنا أيضًا، وأمام التعرّف إلى العالم، تحصل المقارنات، فيما المقارنة مذمومة لا تُحمَد عقباها. فالسفر، في هذه الحدود، هو «اطّلاع» مثله مثل الخبر الصحيح، ولهذا نُسبت إليه فوائد في عدادها توسيع المدارك وتكبير العقول بقدر ما خافته الأنظمة التي أرادت للمدارك أن تضيق وللعقول أن تصغر.

ولحسن الحظّ أنّ التطوّر الديمقراطيّ مصحوبًا بالتقدّم التقنيّ وسهولة السفر المستجدّة حدّت جزئيًّا من استمرار العدوان الراسخ على العقول، فبات من المستحيل تقديم رواية كرواية الإعلام المصريّ عن حرب ١٩٦٧. صحيح أنّ نظامًا كنظام فلاديمير بوتين في روسيا لا يزال يجد إحدى دعاماته في تزوير الحقائق وفي تلفيقها، لكنّ الأهمّ أنّ تكاثر الأخبار الزائفة جعل القدرة على التحقّق من صدقها تتضاعف أيضًا. كذلك، وباستثناء الأنظمة القليلة المُحكمة الإغلاق، لم يعد الكذب الرسميّ ملزِمًا لمن يتلقّونه.

مع هذا، هناك احتقار متمادٍ للعقول لا يتوسّل المعلومة بقدر ما يتوسّل «التحليل» الذي يتعرّى من كلّ معلومة. يندرج في هذه الخانة حديث بعضنا عن «انتصاراتنا» وهزائم «أعدائنا» ممّا تدحضه الوقائع النافرة تحت أعيننا وأنوفنا. وما دمنا استشهدنا بحرب ١٩٦٧ في تزييف المعلومات، فقد قدّمت الحرب نفسها عيّنة باهرة على احتقار العقول من خلال «التحليل». فكما بات معروفًا جيّدًا، ما إن وقعت الهزيمة واحتُلّت الأرض، حتى ظهرت النظريّة القائلة بفشل إسرائيل في إسقاط «الأنظمة التقدّميّة».

وهذه العجالة لا تتّسع لأشكال العدوان كافّة على العقل، مرّة عبر احتكار المعرفة، ومرّة عبر تزييف دمقرطتها والتلاعب بها، وأخيرًا تهكيرها، ومرّة ثالثة عبر «التحليل». لكنّ المؤكّد أنّ أكلاف

هـذا «النهـج»، بغـضّ النظـر عـن تراجـع أعـداد ضحايـاه، صـارت أكبـر بكثيـر.

فالاقتصـاد السـائد اليـوم الـذي يوصـف بــ «اقتصـاد المعرفـة»، يرفـع الأفـكار وحرّيّـة المخيّلـة إلـى شـرط شـارط لمعاصـرة عصرنـا، فضـلًا عـن تحسـين مسـتويات المعيشـة للسـكّان المعنيّيـن. هكـذا، يصيـر نـزع العقـل بمبضـع الأكاذيـب، سياسـيّة كانـت أم دينيّـة، جريمـة كاملـة، بـل جريمـة محضًـا تفضـي إلـى الإفقـار الذهنـيّ والمـاديّ معًـا. فمدرسـة عبدالحميـد بالتالـي هـي اليـوم أخطـر ممّـا كانـت فـي زمـن عبدالحميـد، لا يخفّـف منهـا تحديـث أداتـيّ أو عـداء للاسـتعمار والصهيونيّـة يـراد منهمـا مصـادرة الحرّيّـة وحجـب المعرفـة والتفكيـر والمقارنـة.

هـذه «المكاسـب» التـي يصفهـا «مناهضـو الإمبرياليّـة» بالوطنيّـة هـي، فـي أحسـن أحوالهـا، تفاصيـل تنـوي الأنظمـة أن تقايضنـا بهـا، سـالبةً عقولنـا وحرّيّتهـا وحائلـةً دون سـعينا إلـى مسـتويات حيـاة أفضـل. أمّـا الحرّيّـة فتبقـى وحدهـا أسـاس الحكـم علـى صـلاح الأنظمـة وطلاحهـا. وهـل نحتـاج إلـى التذكيـر بمصائـر الحميديّـة وسـلطنتها، وبمصائـر كلّ «السـلطنات» الأحـدث عهـدًا التـي عرفهـا القـرن العشـرون؟ وبعـد كلّ حسـاب، فـإنّ وطنيّـة العبيـد، وتحديـث البلـه، أمـور لا يُعتـدّ بهـا كثيـرًا.

السلم... فكرةٌ ليست من أفكارنا

كثيـرة هـي الأسـباب التـي عُرضـت، مـرّةً بعـد مـرّة، في تفسـير «الاسـتثناء التونسـيّ»: الانسـجام الدينـيّ والمذهبـيّ بيـن التونسـيّين. نِسَـب التعليـم

المرتفعة. وضع المرأة المتقدّم. الصلابة النسبيّة للطبقة الوسطى. القرب من أوروبا...

بسبب هذه العناصر التي أرسيت في عهد الحبيب بورقيبة، نجحت الثورة هناك على رغم مصاعبها وتعثّراتها الكثيرة، وتمكّنت من إنشاء ديمقراطيّة سياسيّة أنقذت البلد من خيارَي الحرب الأهليّة والحكم العسكريّ: الأولى ابتلعت الثورة في سوريا وليبيا واليمن. الثاني صادر الثورة في مصر.

قد يقال أنّ الخضّة الاجتماعيّة العميقة التي تعيشها تونس راهنًا، والتي عُرفت بشعارها: «ماذا تنتظر؟»، تهديدٌ لهذه الديمقراطيّة الناشئة، لكنْ قد يقال أيضًا إنّها دليل على تجاوز التحدّي الوجوديّ والانتقال إلى مرحلة أخرى يحكمها الصراع الاجتماعيّ، مصحوبًا بالبحث عن أدوات سياسيّة وتنظيميّة غير تلك التي عرفتها الحقبة السابقة («نداء تونس» و«النهضة» إلخ...). الاحتمالان واردان، والأيّام المقبلة كفيلة بتوضيح الصورة.

في غضون ذلك، يتوقّف جوزيف ساسّون في كتابه «تشريح السلطويّة في الجمهوريّات العربيّة» (دار نشر جامعة كامبريدج) عند سبب قليلًا ما يُذكر وراء «الاستثناء التونسيّ»، بل يمنحه الأولويّة على سائر الأسباب: إنّه «حياد الجيش، وهو حياد حوفظ عليه قرابة نصف قرن، على رغم بعض الأحداث المضطربة والتغيير في قيادة البلد» (من بورقيبة إلى زين العابدين). ويمضي الكاتب شارحًا: «لقد كانت تونس البلد الوحيد بين الجمهوريّات [العربيّة] الثماني الذي لم يتورّط في نزاع عسكريّ كامل، أكان في الداخل أو في الخارج».

والحال أنّ هذا التقدير، وهو على الأرجح صائب، إنّما ينبّهنا إلى نقص كبير عانته الثقافة السياسيّة العربيّة، ناتج بدوره من

ضعف الوعيين الديمقراطيّ والليبراليّ. والمقصود هنا: مركزيّة مسألة السلام في التقدّم الديمقراطيّ. فثقافتنا العربيّة الحديثة تأثّرت بأوجه كثيرة من الثقافة الغربيّة، لكنْ خانها التأثّر بهذا الوجه تحديدًا، علمًا بحضوره القويّ، بل التأسيسيّ، في الميراث الأوروبيّ: من جان جاك روسّو الذي طرح فكرة «السلم الدائم» إلى عمّانوئيل كانط الذي طوّرها ونشر مشروعًا لإقرار هذا السلم بين الدول الأوروبيّة (على أن تكون الدول المتّحدة جمهوريّة)، وإلى سان سيمون الذي دعا، في تصوّره لـ «إعادة تنظيم المجتمع الأوروبيّ»، إنكلترا وفرنسا المتنازعتين إلى تجاوز خلافاتهما (على أن تنضمّ إليهما ألمانيا وتعاود أوروبا صياغة نفسها في سلم دائم). هذا من دون أن نذكر برتراند راسل بانكبابه فكرًا ونشاطًا إلى موضوعة السلام.

إذًا، إبّان الحروب فكّر بعض كبار الأوروبيّين في السلم. في المقابل، تندر الإشارة إلى هذه المسألة في تحليلات طويلة عريضة عن أحوال بلداننا واتّجاهاتها، ويكاد الاهتمام بها يقتصر على توكيد استحالتها بسبب الحروب! مع التوكيد الذي لا يتزحزح بأنّ العدوّ غير راغب في السلام. لهذا، لا نجد في خزانتنا العربيّة حين نفكّر في المسألة هذه سوى بضعة أبيات شعر قديمة، أغلبها جاهليّ، تندّد بسفك الدماء، فضلًا عمّا جاء في سورة الأنفال «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» (بتأنيث السلم!).

وإذا صحّ أنّ الشيوعيّين كانوا استثناءً بانضمامهم، في الخمسينيّات، إلى حركة «أنصار السلم» السوفياتيّة المنشأ والغرض، فإنّ صلة ذلك «السلم» بالسلام لا تختلف عن صلة «الديمقراطيّات الشعبيّة» لأوروبا الشرقيّة بالديمقراطيّة.

لقد بلغ حبّ الشيوعيّين العراقيّين لهذا «السلام» أن أرسلوا إلى

الموصل، في آذار (مارس) ١٩٥٩، القطارات المسمّاة «قطارات السلام»، لكنّ مُستقلّيها كانوا مزوّدين بالرشّاشات والهراوات والسكاكين. هكذا، شهدت المدينة العراقيّة الثانية مقتلة شهيرة في تاريخ العراق الحديث.

أمّا البيئات القوميّة، وهي دائمًا أوسع تمثيلًا من الشيوعيّين، فأتحفتنا بأطنان من الكتابات التي حاولت إقناعنا، ضدًّا على مئات التجارب الحيّة، بأنّ الديمقراطيّة صنو القتال والحروب، وأنّ الديمقراطيّة «الحقيقيّة» إنّما تُصنع عبر إطلاق الحرّيّة لـ «الجماهير» كي تخوض المعارك الموصوفة بالمصيريّة والقداسة. والحال أنّ «حرّيّة» «تسليح الجماهير» تُنتج من الحروب الأهليّة و/أو الاستبداد أكثر بكثير ممّا تُنتجه من الديمقراطيّة. هكذا، وعلى عكس التجربة التونسيّة، مالت بضع جمهوريّات عربيّة إلى إنشاء «جيوش عقائديّة» و«جيوش شعبيّة» ترتّبَ على بنائها تحكيم قبضة من العسكريّين والأمنيّين بسلطات بلدانهم، مقابل تسريح معظم الكفاءات العسكريّة التي تتباهى الجيوش بمهنيّتها.

لقد تصاحب منع السياسة، في هذه الأنظمة، مع تعميم التسييس الذي اخترق المؤسّسة العسكريّة، مثلها مثل سائر المؤسّسات، فانتشر في المجتمع قدر من السمّ كفيل بتسميم المستقبل بعد تسميم الحاضر.

بلغة أخرى، نحن أمام ثنائيّة فاتَنا التقاطها: إمّا الحروب والقضايا المقدّسة وإمّا الديمقراطيّة. وحتى في البلدان العريقة ديمقراطيًّا، تفضي الحروب إلى تراجع في الأداء الديمقراطيّ، فيختلّ التوازن بين السلطتين التنفيذيّة والتشريعيّة لمصلحة الأولى، ويغدو شيوع الأخبار والمعلومات مقيّدًا بالاعتبارات الأمنيّة. إنّ فيلم ستيفن سبيلبرغ «البوست»، الذي أثار لغطًا كبيرًا في موازاة عرضه في

بيـروت، يضـيء علـى بعـض الكـذب والتعتيـم اللذيـن تنحـطّ إليهمـا الديمقراطيّـة فـي أزمنـة الحـروب.

أمّـا لمـاذا فاتنـا التقـاط هـذه العلاقـة، فهـذا أمـر مفهـوم: مـاذا نفعـل بالعـداوات التـي تشـارَكْنا، نحـن والأعـداء، فـي صناعتهـا وفـي نفخهـا جيـلًا بعـد جيـل، هـي التـي نهضـت فوقهـا أنظمـة ومصالـح وتأليـه لقـادة معصوميـن؟ وكيـف نقـول بمركزيّـة السـلام، وهـي مقولـة غريبـة عـن عدّتنـا الفكريّـة القوميّـة ـ اليسـاريّة ـ الإسـلاميّة، ولا تُخفـي تأثّرهـا بالفكـر «البورجـوازيّ» و«الغربـيّ»؟

هكـذا، مـا إن هبّـت ريـاح الديمقراطيّـة فـي التسـعينيّات، وصـارت اللاديمقراطيّـة أشـبه بعيـب أخلاقـيّ يسـتحي بـه صاحبـه، حتّـى ألصقنـا هـذه بتلـك، فراحـت تتدفّـق «نظريّـات» عـن «ديمقراطيّـة غابـة البنادق» ومـا شـاكلها. أمّـا الأكثـر حذلقـة وتذاكيًـا بيننـا فتحدّثـوا عـن الديمقراطيّـة بوصفهـا أداة مفيـدة لــ «تحصيـن» جبهتنـا وتحسـين شـروطنا فـي «التصـدّي للعـدوّ».

والحـقّ أنّ الديمقراطيّـة لا تحصّـن شـيئًا، بـل تفتّـت أشـياء كثيـرة. إلّا أنّهـا تؤسّـس لطريقـة حيـاة مهمومـة بخفـض العنـف، لا بتمجيـده أو التحريـض عليـه أو إيجـاد الذرائـع لتبريـره.

وهـذا الربـط بيـن السـلم والديمقراطيّـة ليـس اختراعًـا بـأيّ حـال. فمنـذ كانـط، بـدأت تشـيع الحجّـة القائلـة أنّ القـادة الديمقراطيّيـن، وبالضبـط لأنّهـم مُنتَخَبـون، يعلمـون أنّ اتّباعهـم سياسـات غيـر شـعبيّة يهـدّد بعـدم انتخابهـم. والحـروب غيـر شـعبيّة عـادةً بسـبب مـا تكبّـده مـن أكلاف فـي الـدم وفـي الضرائـب. أمّـا الديكتاتوريّـون فـلا يعبـأون بهـذا كلّـه، مدركيـن أنّ فـي وسـعهم بالقهـر إسـكات شـعوبهم ونقّادهـم.

وقـد تبـدو هـذه الحجّـة مُسـتغربة قليـلًا بسـبب الموجـة الشـعبويّة

الضاربـة راهنًـا، إلّا أنّ ذلـك لا يغيّـر فـي المبـدأ الـذي لا يُختبـر إلّا فـي مجتمعـات صحّيّـة وفـي أطـوار صحّيّـة.

لقـد بـات ممّـا يشـبه الإجمـاع اليـوم أنّ السـلام يصنـع الديمقراطيّـة أكثـر ممّـا تسـتطيع الديمقراطيّـة أن تصنـع السـلام. إلّا أنّ المؤكـد، مـع هـذا، أنّهـا تصنـع السـلام بيـن الديمقراطيّـات نفسـها علـى الأقـلّ.

لكـنْ، علـى العكـس تمامًـا، فـإنّ قـارئ تاريخنـا الحديـث لـن يخطـئ ذلك التـوازي بيـن الحـروب والديكتاتوريّـة المصحوبـة بعبـادة الشـخصيّة كمـا تجسّـدت فـي جمـال عبدالناصـر وحافـظ الأسـد وصـدّام حسـين: الأوّل بنـى مجـده علـى «الانتصـار» فـي ١٩٥٦، والثانـي علـى «الانتصـار» فـي ١٩٧٣، والثالـث علـى جملـة مـن «الانتصـارات» لا تُعـدّ انتهـت بسـقوطه واختبائـه وإعدامـه.

أمّـا نقـد هـؤلاء بوصفهـم «وسـطيّين» و«متذبذبيـن»، مـن موقـع أشـدّ راديكاليّـة وتطرّفًـا، فيسـتبطن طاقـة عنفيّـة لا تقـلّ خطـورة. هكـذا، أُخِـذ علـى جمـال عبدالناصـر، فـي البيئـة هـذه، «تفريطـه» الناجـم عـن موافقتـه علـى قـرار مجلـس الأمـن ٢٤٢ وعلـى مشـروع روجـرز. يومـذاك، شـاع وصـف «السـلام» بأنّـه «استسـلام» علـى مـا قـال الشـعار والهتـاف الشـهيران:

«لا سلام ولا استسلام حتى تحرير فلسطين».

كذلـك، أُخِـذ علـى الأسـد أنّـه لـم يحـارب «كمـا يجـب»، بـل أبـدى اسـتعدادات للمسـاومة والمسـالمة كمـا فـي لبنـان عامـي ١٩٧٦-١٩٧٧. والأسـوأ أنّ المدافعيـن عـن عبدالناصـر والأسـد كانـوا، فـي الحالتيـن، ينفـون التهـم مؤكّديـن جدّيّـة الزعيميـن فـي طلـب القتـال.

وقـد دار الغـزل دائمًـا، ويـدور، بتجـارب بائسـة سـكبت الـدم المجّانـيّ بـلا حسـاب، مـن اشـتراكيّي اليمـن الجنوبـيّ إلـى خمينيّـي إيـران. وإذا

عرضتْ لأحد المتغزّلين تجارب كالثورة الفلسطينيّة وحزب الله، تركّز النقد على «نقص الجذريّة» في هذا الجانب أو ذاك، وفي هذا السلوك أو ذاك، أو على الافتقار إلى الحياة الداخليّة للتنظيم (الذي يشكّل العنف علّة وجوده) إلى الديمقراطيّة!وهو درس يعرفه، من بين شعوب كثيرة أخرى، كثيرون من اللبنانيّين، ذاك أنّ مُريدي حروب المصير لم يجدوا مادّة للسخرية كما وجدوها في ضعف الجيش اللبنانيّ وعدم تسيّسه. فما إن حضر التسيّس، في زمن الوصاية و«عروبة لبنان»، مصحوبًا بأوهام القوّة، حتى نزفت تلك الديمقراطيّة دمها فيما فقد الجيش قدرته على أن يكون الطرف الذي يحتكر حمل السلاح.

لقد أطلق كوميديّ جزائريّ يعيش في فرنسا نكتة أرادها تفسيرًا للحرب الأهليّة في بلده: «طردنا الفرنسيّين ورحنا ننتظر أن يأتينا غازٍ آخر كي نطرده. انتظرنا سنة بعد سنة بعد سنة ولم يأت هذا الغازي، فيما نحن نزداد هيجانًا وغضبًا. ماذا نفعل إذًا؟ كان لا بدّ، والحال هذه، أن نفجّر هذه الطاقة ونبدأ الحرب في ما بيننا».

هنا، وعلى عكس فرانس فانون، يستحيل أن يكون العنف علاجيًّا وشافيًا. إنّ النكتة، والحال هذه، أبلغ من التحليل الشهير وأشدّ حكمة بلا قياس.

النشأة الملتوية للوطنيّات العربيّة

حديثة هي الوطنيّة خارج أوروبا. أمّا عندنا تحديدًا، في المشرق العربيّ، فربّما كانت أشدّ تعاسة ممّا في أجزاء أخرى من «العالم الثالث». تعاستها هذه بدأت مع بداياتها: فالرواية التي شاعت عن

أنّ شعوب المنطقة كرهت السلطنة العثمانيّة وطلبت الاستقلال عنها أقرب إلى الاستعجال والتعميم منها إلى الدقّة. حتى الضبّاط الذين انشقّوا عن الجيش العثمانيّ ليقاتلوا في جيش الهاشميّين و«لورانس العرب» أقلّ كثيرًا ممّا صُوّروا، كما أنّ بعضهم وقعوا أسرى حرب فضُمّوا إلى «الجيش العربيّ».

قصارى القول أنّ نشأة الأوطان لدينا، في المشرق، لم تكن حدثًا مثيرًا للمخيّلة. لقد بدت أمرًا واقعًا، وإلى حدّ بعيد، كئيبًا ومرفوضًا. الهجاء المتواصل لسايكس ـ بيكو ينمّ عن شيء من هذا. الجنازة، منذ اليوم الأوّل، غلبت العرس.

ما دعانا الواقعُ المؤلم إلى دفنه لم يكن السلطنة العثمانيّة وحدها، بل أيضًا فكرة «الوحدة» التي تجعلنا «سلطنة» عربيّة. بنرجسيّة جريحة تساءلنا مُحتجّين: لقد ضحّينا بالعثمانيّة، فهل نضحّي بالسلطنة أيضًا؟

سوريا، على نحو خاصّ، رفضت أن ترسو على مصير كهذا. في وعيها الجمعيّ أنّ «الوحدة» تكبير لذاتها، أو أنّها «استعادة» لأجزاء «بُترت» عنها في لبنان وفلسطين وشرق الأردن.

لكنّ الوقائع كانت تشتغل على نحو مختلف. فهناك عصبيّات ومصالح وأنظمة تعليم وطرق مواصلات نشأت مع الدول والهويّات الجديدة وباتت تدافع عنها. وعلى عكس أوروبا، حيث تناغمت سيرورتا التشكّل القوميّ ونشأة الدولة، تأسّست الدول عندنا ثمّ جاء القوميّون يطالبونها بأن تحلّ نفسها لمصلحة كيان «قوميّ» أكبر. تقليدنا لأوروبا لم يكن خلّاقًا.

النتيجة، وكما نعرف جميعًا، جاءت سلبيّة جدًّا. بيد أنّ هذا لا يلغي أنّ الوطنيّات العربيّة احتفظت بالخجل في التعبير عن نفسها،

وهـو خجـل لازم طويـلًا الفكـر السياسـيّ السـوريّ الـذي اختبـأ مـرّةً وراء «القطـر» (بوصفـه جـزءًا ومرحلـة عابـرة نحـو بلـوغ الـكلّ القومـيّ)، ومـرّة وراء «العربيّـة» كوصـف للجمهوريّـة، والتـي تمـارس الرقابـة علـى «السـوريّة» والحـدّ منهـا، وربّمـا التكفيـر عنهـا. لقد عاشـت سـوريا أسـيرة ذنـبٍ يؤرّقهـا هـي أنّهـا صـارت وطنًـا ودولـة.

هـذا لا يعنـي أنّ الوطنيّـات العربيّـة، بمـا فيهـا السـوريّة، لـم تدافـع عـن نفسـها، ولـم تحـاول أن تعـرّف ذاتهـا ولـو بصيغـة سـلبيّة تميّزهـا مـن «آخـر» مـا. لكنّهـا فعلـت ذلـك بارتبـاك وحـرج. وقـد يكـون التعبيـر الأكبر عـن الواقـع الجديـد هـو مـا عرفتـه المـدّة القصيـرة لـ «الحكـم العربـيّ» فـي دمشـق. فالسـوريّون وجـدوا أنفسـهم فـي مواجهـة فرنسـا، متحالفين مـع الإنكليـز، لا بـل، وبحسـب نجـدة فتحـي صفـوت، عـرض حاييـم وايزمـن علـى فيصـل الأوّل «تقديـم أمـوال وخبـراء للحكومـة العربيّـة فـي سـوريا، كمـا عـرض أن يُقنِـع الحكومـة الفرنسـيّة بالتخلّـي عـن ادّعاءاتها فـي المنطقـة الداخليّـة مـن سـوريا، مقابـل ضمـان مسـاعدة الأميـر علـى تحقيـق البرامـج الصهيونيّـة». كان طبيعيًّـا، والحـال هـذه، أن يتعاظـم نفـور الفلسـطينيّين، فـي صراعهـم مـع الانتـداب البريطانـيّ والحركـة الصهيونيّـة، ممّـا يحـاول فيصـل توطيـده فـي دمشـق.

مَـن ظلّـوا مـن الفلسـطينيّين أقـرب إلـى فيصـل والدعـوة الوحدويّـة هـم الذيـن أسّسـوا لاحقًـا «حـزب الاسـتقلال» الفلسـطينيّ، وهـم مثقّفـون قوميّـون عـرب ضعيفـو التمثيـل الشـعبيّ فـي فلسـطين، بعضهـم لبنانيّـون كعجـاج نويهـض، وبعضهـم سـوريّون كخيـر الديـن الزركلـي وأحمـد مريـود ورشـيد طليـع.

مـذّاك، نشـأ تنافـر بيـن السـوريّة والفلسـطينيّة بلـغ أوجـه، بعـد عقـود، فـي صـراع حافـظ الأسـد وياسـر عرفـات حـول «القـرار الوطنـيّ المسـتقلّ»: السـوريّة تنـوي مصـادرة الفلسـطينيّة وطيّهـا تحـت جناحهـا.

الفلسطينيّة تخاف الشهيّة السوريّة للابتلاع. فلسطين، في القاموس السوريّ، هي «جنوب سوريا».

في لبنان، لم يُخفِ المسيحيّون، الرافعون يومذاك الفكرة والوطنيّة اللبنانيّتين، عداءهم للدولة الفيصليّة. «عصابات» الجنوب ضاعفت العداء. لكنّ المسلمين اللبنانيّين أيضًا امتعضوا من إرسال فيصل شكري الأيوبي إلى بيروت كي يحكمها باسم والده الشريف حسين. لقد أرادوا واحدًا من مدينتهم حاكمًا لهم.

وأهمّ من ذلك كانت المنافسات بين الضبّاط السوريّين والعراقيّين على المناصب في دمشق. الحساسيّات التي أثارتها تلك المنافسات لم تكن قليلة، لا سيّما أنّ العراقيّين جنحوا إلى مواقف أكثر جذريّة حيال الفرنسيّين، وهو ما اعتبره السوريّون توريطًا لهم. فالأوّلون، بحسب الرواية السوريّة الغالبة، يستطيعون في اللحظة العصيبة أن يفرّوا إلى بلادهم فيما نُترك «وحدنا».

تتمّة القصّة شهدها شرق الأردن. فالأمير عبدالله، كأخيه فيصل، كان معنيًّا بـ «القضيّة العربيّة» حتى إنّه حوّل إمارة شرق الأردن نقطة انطلاق لسوريّين ولبنانيّين يريدون مقاومة الانتداب الفرنسيّ. أكثر من هذا: سُلِّم بعض هؤلاء مناصب ومسؤوليّات عليا. أحدهم، رشيد طليع، تولّى رئاسة الحكومة الأردنيّة. لكنْ، بدا مبكرًا أنّ التوفيق مستحيل بين استقرار الإمارة المرعيّة بريطانيًّا، في ظلّ تفاهم بريطانيّ ـ فرنسيّ، والمضيّ في السياسات «القوميّة». في ١٩٢١، نصب «القوميّون»، غير الأردنيّين، كمينًا لخطف الجنرال غورو، المفوّض الفرنسيّ الأعلى في سوريا ولبنان. اضطرّت عمّان إلى إبعاد طليع وباقي «القوميّين» السوريّين واللبنانيّين من مناصبهم. اِنتبه عبدالله إلى مسائل كضبط الحدود والالتزامات الدوليّة.

المتعلّمون الجدد في الأردن أكملوا ما بدأه أميرهم، مطالبين بأردنة

الوظائف والكفّ عن توظيف السوريّين واللبنانيّين. المدهش أنّ مطالبين من هؤلاء كانوا قوميّين عربًا أقحاحًا يأخذون على عبدالله ممالأته للإنكليز.

في الصراع على فلسطين، كان واضحًا، مرّة ثانية، ذلك التنازع بين خطّ الوطنيّة الفلسطينيّة كما مثّله الحاج أمين الحسيني والخطّ العربيّ، لا سيّما السوريّ، الذي أراد فرض وصايته على الفلسطينيّين. عسكريًّا، تجسّد الازدواج في «جيش الإنقاذ»، وعلى رأسه اللبنانيّ فوزي القاوقجي، مقابل مجاهدي عبدالقادر الحسيني الذي قضى في معركة القسطل قبل شهر على وقوع النكبة.

لكنْ، كما خاف الفلسطينيّون واللبنانيّون سوريا خاف السوريّون العراق. في ١٩٤٩، ما إن أعلن قائد الانقلاب الثاني سامي الحنّاوي نيّته إقامة وحدة مع بغداد، حتى أطاحه الانقلاب الثالث الذي نفّذه أديب الشيشكلي. مصر البعيدة نسبيًّا، وذات الزعامة و«الانتصارات» الاستثنائيّة لعبدالناصر، بدت منقذًا للسوريّين المتخبّطين في أزماتهم. لكنْ، ما إن قامت وحدة مصريّة ـ سوريّة في شباط (فبراير) ١٩٥٨ حتى تلاها انفصال سوريّ عن «الجمهوريّة العربيّة المتّحدة» في أيلول (سبتمبر) ١٩٦١. كان الانفصال استقلالًا سوريًّا ثانيًا وضربة قاصمة للاحتمال الوحدويّ والقوميّ العربيّ. ولم يكن قليل المعنى أنّ أكثر من قاتلوا دفاعًا عن الوحدة كانوا فلسطينيّي سوريا الذين قضى سوء حظّهم بحرمانهم الوطن والدولة.

في تلك الغضون، شقّ المشرقَ نزاعان بالغا الأهميّة والدلالة: خلاف جمال عبدالناصر وحزب البعث العربيّ الاشتراكيّ. الخلاف هذا الذي انفجر في ١٩٥٩، بعد دور أساسيّ أدّاه البعث في الدفع إلى الوحدة السوريّة ـ المصريّة، بيّنَ حساسيّة سوريّة حيال «الهيمنة المصريّة». في الوقت نفسه، حلّ الصدام بين عبدالناصر والزعيم العراقيّ

عبدالكريم قاسم. قاسم قلّد انقلاب عبدالناصر المصريّ بانقلابه في العراق في تمّوز (يوليو) ١٩٥٨، وهو ما فعله عبدالناصر بالنظام الملكيّ، وإن بدمويّة ورعونة أكبر بلا قياس. كذلك، عبّر قاسم عن تطلّعات اجتماعيّة وعن «مناهضة للاستعمار» كالتي عبّر عنها عبدالناصر في بلده. مع هذا، أبت الوطنيّة العراقيّة، من خلال زعيمها الجديد، أن تسير في ركاب الزعيم المصريّ.

في ١٩٦٣، وبفارق شهر، وصل حزب البعث إلى السلطة في العراق وسوريا. يومذاك، كان الحزب واحدًا وبقيادة واحدة. زعم أنّه ينوي بناء وحدة ثلاثيّة مع مصر ثمّ أفشلها بسحقه الناصريّين في البلدين. لكنْ، بين سوريا والعراق نفسيهما، جرت محاولة لوضع خطّة مشتركة لاستثمار الفرات ودجلة. كلّ واحد من الطرفين حاول تحقيق استفادة أكبر تأتي على حساب الآخر. لم توضع خطّة. عبدالسلام عارف أطاح البعث العراقيّ في أواخر ١٩٦٣.

عارف، «الناصريّ»، دعا إلى الوحدة مع مصر. لكنّه، هو أيضًا، لم يُقم وحدة فكسب عداء الناصريّين، وتعرّض لمحاولة انقلاب فاشلة نفّذها، في أيلول (سبتمبر) ١٩٦٥، رئيس وزرائه الناصريّ المتحمّس والمغامر عارف عبدالرزّاق. عبدالسلام عارف لجأ إلى شخصيّة تقليديّة أبرد في العروبة وأسخن في الإسلام، هي صاحب «الاشتراكيّة الرشيدة» عبدالرحمن البزّاز.

على جبهة أخرى، لم يعد خافيًا أنّ حركة «فتح» كانت منذ نشأتها تنعطف عن القوميّة العربيّة لعبدالناصر والبعث نحو إعادة الاعتبار للوطنيّة الفلسطينيّة. الفلسطينيّون، إذًا، «يحرّرون فلسطين»، لا «العرب» وجيوشهم. الناصريّون اتّهموا «فتح» بالإسلاميّة والارتباط بالسعوديّة. البعثيّون في سوريا اعتقلوا ياسر عرفات في ١٩٦٥ ومعه بعض قيادات تنظيمه كخليل الوزير (أبو جهاد)، ثمّ اعتقلوا

جـورج حبـش، مؤسّـس «الجبهـة الشـعبيّة لتحريـر فلسـطين»، التنظيـم الفلسـطينيّ الثانـي. أنشـأوا، كذلـك، «منظّمـة الصاعقـة» التـي ضمّـت بعثيّيـن فلسـطينيّين، فأنشـأ منافسـوهم البعثيّـون فـي العـراق «جبهـة التحريـر العربيّـة». المطلـوب دائمًـا ألّا يكـون قـرار فلسـطينيّ مسـتقلّ.

الكراهيـة التـي نشـأت لاحقًـا بيـن حافـظ الأسـد وياسـر عرفـات صـارت مـن أشـهر الكراهيّـات السياسـيّة فـي التاريـخ. التنافـس بيـن الأسـد وصـدّام حسـين علـى فلسـطين و«تحريرهـا» صـار أيضًـا مـن أشـهر مـا شـهده التاريـخ مـن تنافـس. هـذا لـم يـردع الأسـد عـن قتـل أعـداد مـن الفلسـطينيّين فـي لبنـان تفـوق كثيـرًا مـا قتلتـه إسـرائيل، وعـن إخضاعهم علـى نحـو جائـر لمصالـح السـلطة السـوريّة. هـو أيضًـا لـم يـردع صـدّام عـن سـحب قوّاتـه فـي الأردن إبّـان مواجهـات ١٩٧٠ الفلسـطينيّة ـ الأردنيّـة، بحيـث تُـرك الفلسـطينيّون مـن دون داعـم «قومـيّ» دعمُـه كفيـل بتوريـط العـراق.

تلـك الحـرب الأهليّـة كانـت برهانًـا سـاطعًا علـى أنّ «قضيّـة العـرب المركزيّـة» لا تعـود كذلـك حيـن تصطـدم بمصالـح دولـة معيّنـة وباسـتقرارها، وإن عبّـرت عصبيّـة بعينهـا عـن تلـك المصالـح. التمريـن الأردنـيّ فـي ١٩٧٠ اتّخـذ فـي لبنـان، بعـد خمـس سـنوات، أبعـادًا أكبـر وأخطـر. المسـيحيّون آنـذاك قاتلـوا الفلسـطينيّين، لكـنْ بعـد سـنوات انقلبـت فيهـا الموازيـن اللبنانيّـة، تولّى الشـيعة، فـي «حـرب المخيّمات»، هـذه المهمّـة.

فـي تلـك الغضـون، توفّـي عبدالناصـر فـي ١٩٧٠. الوحـدة صـارت هـزلًا قذّافيًـا. لكـنّ الوطنيّـات، مـع هـذا، ظلّـت خجـولًا مرتبكـة بذاتهـا. لوحـظ فـي العـراق بعـد ٢٠٠٣، ثـمّ فـي سـوريا بعـد ٢٠١١، مـا يـكاد يرقـى إلـى مبـدأ: مـا إن يتداعـى نظـام اسـتبداديّ وينكشـف أنّ البلـد المعنـيّ يتمتّع بداخـل وبسياسـة ومسـائل خاصّـة بـه، حتـى ينعطـف اهتمـام أبنـاء

البلـد «القوميّيـن» عـن القضيّـة الفلسـطينيّة. لقـد نشـأت لهـم قضيّـة اكتشـفوها اكتشـافًا. تتمّـة هـذا المبـدأ أنّ بيئـة القضيّـة الفلسـطينيّة تتحـوّل إلـى إحـدى أكثـر البيئـات عـداء للتحـوّل الجديـد.

لا يؤثـر كثيـرًا اختـلاف الأنظمـة، «رجعيّـة» و«تقدّميّـة» أو «يمينيّـة» و«يسـاريّة» فـي هـذه السـيرورة. قـادة اليمـن الجنوبـيّ «الماركسـيّ اللينينـيّ» صـاروا قـادة فـي «الحـراك الجنوبـيّ» الـذي يسـعى للانفصال عـن اليمـن الشـماليّ. الأكـراد الشـيوعيّون صـاروا أكـرادًا قوميّيـن. فـي المقابـل، فـإنّ رفيـق الحريـري، الملياردير اليمينـيّ، رمـز إلـى حركـة تحـرّر لبنانـيّ مـن الوصايـة السـوريّة.

أمـا التشـقّق داخـل الوطنيّـات نفسـها فقصّـة أخـرى. لكـنّ التخلّـص مـن الخجـل بالوطنيّـة قـد يكـون مفيـدًا فـي الحـدّ مـن هـذا التشـقّق ومـن الهيمنـات الفئويّـة داخـل تلـك الوطنيّـات، وكذلـك مـن الاحتقـان الـذي يدفـع بهـا أحيانًـا إلـى الشـوفينيّة وربّمـا إلـى العنصريّـة.

ديمقراطيّة دونالد ترامب

منـذ انهيـار «المعسـكر الاشـتراكيّ»، قبـل نحـو مـن ثلاثـة عقـود، بدأت تظهـر انتقـادات للديمقراطيّـة ونظامهـا، مـن موقـع ديمقراطـيّ هـذه المـرّة. فهـي أسـيرة الاسـتطلاعات، بمـا يجعلهـا «ديمقراطيّـة رأي»، وهـي أسـيرة التلفزيـون بمـا يجعلهـا «ديمقراطيّـة اسـتعراض». آخرون أكّـدوا أنّ جاذبيّتهـا وتمثيليّتهـا تنكمشـان، بدلالـة تراجـع الإقبـال علـى التصويـت المصحـوب بتراجـع الانتسـاب إلـى الأحـزاب الديمقراطيّـة.

تاريـخ الديمقراطيّـة زاد فـي تأهيلهـا لارتـكاب الخطـأ: فهـي صرفـت معظـم القـرن العشـرين، أي معظـم حياتهـا القصيـرة، فـي قتـال الفاشـيّة

والشيوعيّة. المقاتل، حتّى لو كان يدافع عن قضيّة مُحقّة وعادلة، لا بدّ أن تلوّثه عيوب القتال.

كان واضحًا، إذًا، على العكس ممّا ظنّ البعض، أنّ نهاية العدوّ السوفياتيّ ليست نهاية التاريخ. الديمقراطيّة، بعد انهيار التوتاليتاريّة الشيوعيّة وأنظمتها، صارت أكثر ارتكاباً للأخطاء، وأكثر تعرّضًا للنقد. لم تعد المثال الفاضل.

الانتقادات أعلاه كانت في مجملها صحيحة. انتخاب دونالد ترامب جاء ينبّه إليها كلّها. صحيح أنّه لم يعد ممكنًا اليوم إنتاج وحش نازيّ كالذي أنتجته اللعبة الديمقراطيّة في الثلاثينيّات. مع هذا، فاللعبة نفسها أنبتت، في مطالع القرن الحادي والعشرين، وحشًا... ديمقراطيًّا.

والحال أنّ ترامب، وقبله سيلفيو بيرلوسكوني، وقبله ومعه قادة شعبويّون آخرون، تقيّدوا بالعمليّة الديمقراطيّة وإجراءاتها في بلوغهم السلطة. وبعد فوزهم بها، حاولوا ويحاولون التحايل على القوانين والمؤسّسات، إلاّ أنّهم، في نهاية المطاف، رضخوا ويرضخون لمنطق اشتغالها.

فكيف يمكن الإطلال على المحنة الترامبيّة من شرفة المسألة الديمقراطيّة؟ أو بتعبير آخر، أين تكمن عقدة الارتباط بين المحنة المذكورة وسائر المحن التي تحفّ بالديمقراطيّة راهنًا؟

لقد تواضع الديمقراطيّون على العودة إلى اليونان القديمة، وتحديدًا أثينا القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، أثينا الدولة ـ المدينة (بُولِس) وعهد الحاكم بيريكليس، بوصفها المهد والتأسيس.

هذه العودة حضّت عليها معانٍ ثلاثة كبرى، فضلًا عن الميل إلى الارتباط بعصر ذهبيّ مؤسّس:

• أنّ السياسة ولدت في أثينا. فجمهوريّتها وديمقراطيّتها أحلّتا القانون الوضعيّ حيث سبق أن حلّت دينيّة السلطة وسحريّتها. «الشعب» بدوره حلّ محلّ الطابع الدينيّ للسلطة كمصدر للحاكميّة.

• الثاني، أنّ «الآغورا»، أي ساحة التداول العامّ، أعطت النقاش الحرّ اليد العليا في صنع القرار. ليس صدفة، في هذا المعنى، أنّ الفلسفة ولدت حيث ولد النقاش وولدت السياسة. العالم والسياسة، إذًا، يُفكَّران ويُصنَعان صنعًا إنسانيًّا ولا يكونان استجابة لمُقدّر مُسبق دينيّ أو سحريّ.

• الثالث، أنّ عائلات أثينا الأريستقراطيّة في «مجلس الأربعمئة» تفادت العنف المسلّح من خلال اختراع «المواطن» الذي يتمتّع بحقوق مساوية لأيّة حقوق أخرى، كما يشارك، عبر صوته، بصنع القرار. السياسة غدت بالتالي ملكاً عامّاً. انتفت الحاجة إلى العنف طلبًا لها.

تلك الديمقراطيّة عاشت ما مجموعه قرن. بعد ذاك رأيناها تولد ولادات عدّة في أوروبا الغربيّة والولايات المتّحدة الأميركيّة، هي كلّها قليلة الصلة بذاك المهد الأثينيّ. ما يجمع بين تلك الولادات صلتها بالتقدّم والحداثة الأوروبيّين، لا بقدامى اليونان.

كلّ المسار الذي قطعته الديمقراطيّة الحديثة كان، بمعنى ما، مسار انفصال عن ذاك المعنى اليونانيّ.

فديمقراطيّة أثينا طالت الذكور لا الإناث، والأحرار لا العبيد، وأبناء المدينة الأصليّين لا الغرباء. إنّها، في هذا المعنى، كانت تمارس أعلى درجات التراتُب حيال «الآخر» فيما كانت تُحلّ درجة متقدّمة من المساواة داخل أجزاء «الذات»، بعد إنقاصها من النساء والعبيد. حقّ التصويت، بالتالي، اقتصر على عدد يتراوح بين ٣٠ و٤٠ ألف

مواطـن، هـم فـي حدّهـم الأقصـى خُمـس مجمـوع الأثينيّيـن، ويقيمـون فـوق رقعـة مـن ٢٥٠٠ كلـم٢.

هـذه التجربـة أطاحتهـا الأسـرة المقدونيّـة ذات النـزوع الإمبراطـوريّ. الـدول الإمبراطوريّـة انتشـرت فـي سـائر العالـم القديـم، وديمقراطيّـة أثينـا المباشـرة أحيلـت إلـى كتـب التاريـخ. فباسـتثناء أشـكال مـن الديمقراطيّـة المباشـرة اعتمدتهـا القبائـل الجرمانيّـة البدائيّـة وكانتونـات العصـر الوسـيط فـي سويسـرا، لـم تعـد تقـوم قائمـة لهـذا النمـط.

تقنيًّـا، الديمقراطيّـة المباشـرة فقـدت قابليّتهـا للعيـش، لأنّ نشـوء الـدول الإمبراطوريّـة، ثـمّ الـدول القوميّـة جعـل اجتمـاع السـكّان فـي سـاحة عامّـة، واجتيازهـم مسـافات طويلـة للوصـول إليهـا، أمريـن مسـتحيلين.

الديمقراطيّـة الحديثـة ليسـت مباشـرة. إنّهـا تمثيليّـة. المواطـن فيهـا يقـوم بعمـل مباشـر واحـد هـو التصويـت لممثّلـه. مـا لا يقـلّ أهمّيّـةً أنّ الديمقراطيّـة الحديثـة باتـت سـيرورة دمـج، لا سـيرورة إقصـاء. إنّهـا محكومـة بـأن تشـمل الجميـع، لا أن تبقـى حكـم أقلّيّـة. هكـذا، وفـي فتـرات مختلفـة، صـار الاقتـراع شـاملًا وعامًّـا فـي البلـدان الديمقراطيّـة: شـمل النسـاء وغيـر المالكيـن وغيـر المتعلّميـن، وكذلـك المقيميـن فـي البلـد الديمقراطـيّ وإن لـم ينتمـوا فـي أصولهـم إليـه. ظهـور الاشـتراكيّة الديمقراطيّـة كان محطّـة عريضـة فـي سـيرورة التقريـب بيـن الديمقراطيّـة والمسـاواة.

ليـس هـذا فحسـب: الديمقراطيّـة الأثينيّـة المباشـرة، ولأنّهـا أقلّيّـة، اسـتكملت شـرعيّتها بنزعـة حربيّـة وبطوليّـة. أثينـا الديمقراطيّـة خاضـت حـرب البيلوبونيـز الشـهيرة التـي دامـت قرابـة ثلاثـة عقـود ضـدّ تحالـف الـدول ـ المـدن الـذي قادتـه إسـبارطة. البطـل ـ الأب الـذي يطفّـل أبنـاءه ويُبقيهـم أطفـالًا كان مطلوبًـا دومًـا.

هـذا ليـس مـن مواصفـات الدولـة الديمقراطيّـة الحديثـة، حيـث الطلـب علـى البطولـة يقتصـر علـى الهوامـش السياسـيّة المحتقنـة فـي أقصـى اليميـن. أيضًـا، نمـا فـي العقـود الأخيـرة ميـل متعاظـم إلـى الاعتـذار عـن الحـروب التـي خاضتهـا الديمقراطيّـات، وفـي بعـض الحـالات إلـى التعويـض لضحاياهـا أو أنسـالهم.

فـي العصـر الحديـث، الحالـة البـارزة التـي احتفظـت بكثيـر مـن سـمات الديمقراطيّـة المباشـرة كانـت جنـوب أفريقيـا وروديسـيا (زيمبابـوي لاحقًـا) فـي ظـلّ النظـام العنصـريّ. الديمقراطيّـة هنـاك كانـت للأقليّـة وحدهـا. معهـا نحـن حيـال ديمقراطيّـة وعنصريّـة فـي آن واحـد. شـيء مـن هـذا يقيـم فـي إسـرائيل، حيـث تمنـح ديمقراطيّتُهـا للمواطنيـن العـرب حقوقًـا تقـلّ عـن حقـوق اليهـود وإن فاقـت كثيـرًا حقـوق السـود فـي جنـوب أفريقيـا وروديسـيا.

بالعودة إلى دونالد ترامب، ماذا نجد؟

تشـديد غيـر مألـوف علـى عـدم أهليّـة «الآخـر» للّحـاق بـ «المتفـوّق». يتجلّـى هـذا فـي مـا لا يُحصـى مـن أقـوال وأفعـال، حيـال النسـاء والمكسـيكيّين والمسـلمين. الأصـول وتواريـخ الـولادة تحضـر بقـوّة. يتجلّـى أيضًـا فـي المشـاريع الجبّـارة لبنـاء الجـدران كمـا فـي الـكلام عـن شـعوب «رعـاع». لكـنْ، فـوق ذلـك، هنـاك فـي الترامبيّـة سـمات لا تقـلّ خطـورة ونكوصًـا: مـن جهـة، المباشـرة بـدل التمثيليّـة، والتـي ربّمـا كان تعبيرهـا الأبـرز والأبسـط «الحكـم بالتغريـد (التويتـر)». تعابيرهـا الأخـرى كثيـرة، مـن تهميـش الحـزب الجمهـوريّ، حـزب ترامـب المفترض، إلـى الاسـتهانة باشـتغال المؤسّسـات والكثيـر مـن قراراتهـا. البطوليّـة التـي تنمـو علـى جـذر المباشـرة، تعكسـها مركزيّـة شـخصه ومزاجيّتهـا المتقلّبـة، وهـي أصـلًا مصابـة بنرجسـيّة طفليّـة، واختـلاط السياسـة بالعائلـة وبسـيرتها، وإعجـاب ترامـب بالحـكّام غيـر الديمقراطيّيـن

أو الشعبويّين الذين يشبهونه. أخيرًا، عبّر عن إعجابه بمبدأ الحكم من دون تحديد عدد المرّات التي يجوز فيها شغل المنصب: أتى ذلك تعليقًا على أوضاع الصين ورئاسة شي شينبينغ. ذهب ترامب أبعد، فحبّذ مبدأ الرئاسة مدى الحياة.

من جهة أخرى، عطّل الرئيس الأميركيّ دورَ التبادل الدوليّ والعولمة في إحداث الديمقراطيّة. بلدان آسيا وصلت إلى الديمقراطيّة من طريق الانخراط في السوق الدوليّة. شيء مشابه حصل قبلذاك، في أواسط السبعينيّات، لإسبانيا والبرتغال واليونان. ترامب، في المقابل، يستسهل الحرب التجاريّة ولا يتوقّف عن التلويح بها. بهذا، يعلن أنّ الديمقراطيّة نادٍ مغلق ينهض على تراتب حادّ في داخله وعلى عدوانيّة معلنة حيال خارجه.

ديمقراطيّة ترامب، إذًا، أشبه بديمقراطيّة أثينا القديمة منها بالديمقراطيّة في زمن الحداثة. إنّه يزحف ناكصًا إلى ذلك العهد الأقدم.

المظالم الاقتصاديّة التي تسبّب فيها عدم التحكّم في العولمة، والذعر الذي أثاره اندفاع الهجرة بوتائر هيوليّة في العقد الأخير، عزّزا هذا الميل «الأثينيّ» إلى الصفاء المزعوم. حكم الولايات المتّحدة كأنّها أثينا القديمة والصغيرة هو بذاته دلالة على وعي أبرشيّ مسحور بتوهّم الصفاء، ذاك أنّ الولايات المتّحدة نفسها كانت اختارت كاثوليكيًّا هو جون كينيدي منذ ١٩٦٠، ثمّ اختارت في ٢٠٠٨ أسود مسلم الأب هو باراك أوباما، وكادت تختار امرأة هي هيلاري كلينتون في ٢٠١٦ (وقد منحتها أكثريّة الأصوات على أيّ حال).

حكم الولايات المتّحدة أبرشيًّا وريفيًّا قد لا يكون في الأمد الأبعد ممكنًا. بيد أنّ الاطمئنان إلى هزيمة هذا التوجّه وصاحبه قد يكون

مرهونًا بأمور عدّة في عدادها إجراء الفرز داخل الديمقراطيّة نفسها، أي تنظيف الديمقراطيّة من مراحل وحقبات تقاطعت فيها مع عدم المساواة داخل بلدانها كما خارجها. هذه مهمّة الديمقراطيّين.

قضيّتا السوريّين والفلسطينيّين العادلتان ليستا قضيّة واحدة

ساد تاريخَ الأفكار وتاريخَ الطوبى بحثٌ عن الواحد المنسجم: كلّ ما هو حقّ وعدل في العالم يتلاقى مع كلّ ما هو حقّ وعدل. الاثنان يتّحدان مثلما يتّحد في مواجهتهما كلّ ما هو غلط وظلم وشرّ. الأفكار العلمانيّة ورثت هذا السعي إلى الواحد المنسجم عن الفكر الدينيّ. الأمميّة الشيوعيّة ربّما كانت أنصع هذه الأشكال: عمّال العالم يتّحدون في مواجهة رأسماليّيه. لكنْ، ما لبث أن تبيّن أنّ الرأسماليّين «الأشرار»، الذين يتصارعون في ما بينهم على المستعمرات، ليسوا أقلّ تنازعًا في ما بينهم من «العمّال» «الأخيار»: أحزابهم التي أرادت أن تجمع بين «حقّ» البروليتاريا في إقامة ديكتاتوريّتها وحقّ تقرير المصير للشعوب والجماعات داخل الكلّ الإمبراطوريّ، لم تُفلح في مسعاها هذا. بعد ذلك، كان النزاعان «البروليتاريّان» الروسيّ ـ الصينيّ والروسيّ ـ اليوغسلافيّ...

حركة الوحدة العربيّة عندنا عرفت شيئًا مشابهًا بلغ ذروته في النزاع الناصريّ ـ البعثيّ، ثمّ النزاع البعثيّ (السوريّ) ـ البعثيّ (العراقيّ). الإنقسام داخل الواحد فجّر هذا الواحد المزعوم وقضى على وحدته وانسجامه.

نعم: كلّ «خير» قد يلتقي بكلّ «خير» آخر «في التحليل النهائيّ»، وربّما في الأبديّة. وأيضًا، نعم: يُلزمنا الموقف الأخلاقيّ بالتعاطف

مع سائر قضايا الحقّ والعدل. لكنْ، حين ننتقل إلى السياسة والعمل السياسيّ، يغدو الاقتصار على الموقف الأخلاقيّ وعظًا وتبشيرًا. هنا، في السياسة، تتعارض قضايا الحقّ وتتناقض وتتصارع لأنّ عوامل الاختلاف هي التي تتحكّم فيها: اختلاف التجربة واختلاف المصالح واختلاف الموقع الجغرافيّ والجغرافيا السياسيّة واختلاف التحالفات، وطبعًا اختلاف الفاعلين السياسيّين أنفسهم... ولأنّ «الشرّ» يصعب أن يتلاقى مع كلّ «شرّ» آخر في جبهة واحدة (وإلّا لكان العدوّان اللدودان صدّام حسين وحافظ الأسد حليفين وطيدين)، فإنّ «الخير» يصعب أن يتلاقى مع كلّ «خير» آخر في جبهة واحدة.

في سوريا اليوم، حقوق لا يرقى الشكّ إليها: حقّ أغلبيّة السوريّين في التخلّص من نظام طغيانيّ. حقّ الأقلّيّات في رفع الخوف الذي يمثّله الإسلام الراديكاليّ المسلّح. حقّ الأكراد في تقرير المصير وربّما الخروج كلّيًّا من الدولة السوريّة. هذه الحقوق تصادمت، وسوف تتصادم، وإن حسنت نيّات الفاعلين السياسيّين في الأطراف التي تحملها.

الثورتان التونسيّة والسوريّة كانتا طالبتين للعدالة والحرّيّة، لكنّهما، في السياسة، وتحت وطأة الظروف التي خضعت لها كلّ منهما، لم تحتمل واحدتهما الأخرى. لم تتطابقا. التوتّر، في أحسن الأحوال، حكم العلاقة بينهما.

والمسألة ليست مسألة أفكار وتأويل، إلّا بالمعنى الذي يقوله المؤمنون عن مؤمنين آخرين: «إنّهم لم يفهموا الدين على حقيقته» أو «لم يطبّقوه».

هذا التمييز أكثر ما يصحّ في القضيّتين السوريّة والفلسطينيّة. مئات التجارب تقول إنّ كلّ واحدة منهما كان شرطها موت الأخرى: «مركزيّة» القضيّة الفلسطينيّة عَنَتْ ولا تزال تعني عدم ولادة أيّ

قضيّـة وطنيّـة ينشـغل بهـا شـعبها فـي أيّ واحـد مـن البلـدان العربيّـة، لا سـيّما فـي سـوريا. الثـورة السـوريّة خصوصًـا، ولكـنْ أيضًـا سـواها مـن الثـورات العربيّـة، خطّـأت ولا تـزال تخطّـئ نظريّـة «لا صـوت يعلـو فـوق صـوت المعركـة».

فـي هـذا المعنـى، لـم يكـن عديـم الدلالـة أن ينظـر معظـم الفاعليـن السياسـيّين فـي المجـال الفلسـطينيّ بعـداء حـادّ إلـى الثـورة السـوريّة. المسـألة لـم تكـن خطـأً فـي التقديـر. لقـد عبّـرت عـن تقديـر بالـغ الدقّـة. حتـى تعبيـر «ثـورة» نفسـه بـدا كأنّ السـوريّين «يسـرقونه» مـن الفلسـطينيّين لأنّ التعبيـر كان لا يعنـي، زمنًـا طويـلًا، إلّا الثـورة الفلسـطينيّة حصرًا. فـي المقابـل، كان لافتًـا أنّ السـوريّين مـا إن اكتشـفوا سـوريّتهم، بعـد تغريبـة فلسـطينيّة مديـدة أملاهـا منعهـم مـن السياسـة، حتـى تراجـع اهتمامهـم العملـيّ بفلسـطين.

الفلسـطينيّون لـم يشـعروا بالحاجـة إلـى التحايـل علـى هـذا التناقـض. أكّـدوه وبالغـوا فـي تأكيـده. عرفـوا أنّ التوفيـق حسـمٌ مـن رصيدهـم الثابـت والراسـخ. تصرّفـوا كأنّ السـوريّين يمـدّون أيديهـم إلـى أملاكهـم الحصريّـة. هنـاك سـوريّون حاولـوا التحايـل بحجـج مـن نـوع أنّ الأسـد يخـدم إسـرائيل أو إسـرائيل تخـدم الأسـد. إذًا، الشـرّ واحـد، فليكـن الخيـر واحـدًا بالتالـي.

الأمانـة للماضـي أو الخـوف مـن القطـع معـه فعـلا فعلهمـا هنـا. أيضًـا، فعـل فعلـه أنّ تقليـدًا عمـره عشـرات السـنين جعـل نيـل التأشـيرة الفلسـطينيّة شـرطًا لدخـول نـادي المقبوليّـة السياسـيّة فـي العالـم العربـيّ.

واقـع الحـال أنّ الخـروج مـن القسـر الوحـدويّ يبقـى شـرطًا لتحسـين إدراكنـا للواقـع ولتحسـين التعامـل معـه. ثـورات أوروبـا الوسـطى والشـرقيّة واجهـت أسـئلة مشـابهة: لقـد هبّـت فـي وقـت واحـد (وهـو

ما أوحى للبعض بهويّة واحدة) لكنّها ما لبثت أن افترقت وكسرت وحدة «المعسكر الاشتراكيّ». لقد اجتمعت لتتفرّق: إمّا أن تقطع حبل السرّة أو أن ينقطع حبل الوريد.

قد يقال دائمًا بضرورة تقريب السياسيّ من الأخلاقيّ. هذا ما لا يُمارى فيه وفي أهمّيته. لكنْ، أن يتطابق الأخلاقيّ والسياسيّ تمامًا فهذا وهم مُضرّ. فإذا زالت الدول ذات يوم لمصلحة كيانات أكبر وأعلى، وهو مستبعد حتى في زمن الأحفاد (من دون استبعاد حصوله لمصلحة كيانات أصغر وأدنى)، بات مثل هذا التطابق أرفع احتمالًا. أمّا في هذه الغضون، فلا بدّ من تعايش قلق بين التعاطف مع كلّ الحقوق وبين العمل لخدمة حقّ واحد يختاره واحدنا تبعًا لمكانه وظرفه واعتباراته وتقديراته وأمزجته.

خدمة هذا الحقّ قد تكون بذاتها صعبة جدًّا، وقد لا يقوى صاحبها عليها. هذا بالضبط ما نعيشه اليوم، وما لا يفيد تكثيرُ الحقوق في الهرب منه.

يمين ويسار: ثنائيّة فقيرة في عالم معقّد

للمفاهيم، مثل أيّ شيء آخر، حياة. فهي تعيش وتموت أو تتحوّل. وثنائيّة «اليمين» و«اليسار» يسري عليها هذا المبدأ مثلما يسري على باقي المفاهيم. ولا نبالغ إذا قلنا أنّ التعامل معها اليوم كأنّها ثنائيّة خالدة، عابرة للعالم، يوقِعُ في عدد من المشكلات النظريّة والعمليّة التي تبدأ بالتعريف نفسه، ولا تنتهي في العجز عن تفسير كمٍّ هائل من الأحداث والوقائع التي نعيش راهنًا تحت وطأتها.

وهذا أكثر من «طبيعيّ» في ثنائيّة ولدت مع الثورة الفرنسيّة قبل

أن تسبغ الماركسيّة عليها مضمونًا اقتصاديًّا حاكمًا. فإذا قلنا العكس، مُصرّين على ردّ العالم ونزاعاته إلى «يمين» و«يسار»، كنّا كمن يتطهّر من السياسة، بل من الواقع، لمصلحة اعتناق تأويل شبه دينيّ للكون وفاعليه ينقسم بموجبه إلى «خير» و«شرّ» (فيما يختار كلّ طرف ما يقصده بـ «الخير» و«الشرّ»).

بطبيعة الحال، فإنّ هذه الأسطر لا تقترح ثنائيّات بديلة، لكنّها تقترح، في المقابل، أمرين: أحدهما أنّ رقعة تناقضاتنا أكبر وأغنى من أن تختصرها أيّة ثنائيّة، والثاني أنّ ثنائيّة اليمين واليسار تحديدًا باتت لا تغطّي من تلك الرقعة إلّا مساحة صغرى لا يجوز تلخيص التناقضات بها.

ففي «العالم الثالث»، حيث يدور النزاع الأكبر، وإن لم يكن الأوحد، بين سلطات تختزل مجتمعاتها وتصادرها، وشعوب وجماعات طالبة للحرّيّة والمساواة، يتساوى «يمينيّون» كموبوتو سيسي سيكو و«يساريّون» كلوران كابيلا. ولسوف نحتاج إلى مجهر بالغ القوّة كي نميّز بين عبدالفتّاح إسماعيل وعلي عبدالله صالح. أمّا الزعماء «الوسطيّون» الذين عاشوا على التأرجح بين «يمين» و«يسار»، لا يعنيهم سوى ضمان سلطتهم وتوطيدها (من جمال عبدالناصر إلى حافظ الأسد ومن هواري بومدين إلى صدّام حسين) فموقعهم هذا هو نفسه برهان على هامشيّة تلك الثنائيّة العتيدة وما آلت إليه من استخدام ذرائعيّ سهل.

لقد باتت «مناهضة الإمبرياليّة»، بصيغها الشعبويّة كافّة من قوميّة ودينيّة، هي التي تحدّد الوجهة العريضة لسياسات وتوجّهات يكاد يستحيل ربطها بـ «يمين» أو «يسار». وهذا ليس جديدًا إلّا على نحو جزئيّ جدًّا: فحتّى إبّان الحرب الباردة، كانت العلاقة بالسوفيات (وفي حالات أقلّ كثيرًا بالصينيّين) هي التي تنوب مناب الموقف

الأيديولوجـيّ والطبقـيّ الصـارم فـي وصـف طـرف مـا باليسـاريّة. بيـد أنّ شـيوعيّة الاتّحـاد السـوفياتيّ ووجـود أحـزاب شـيوعيّة قويّـة نسـبيًّا كانـا يوفّـران لهـذا التصنيـف قـوّةً انتهـت صلاحيّتها بعـد انهيـار الاتّحـاد السـوفياتيّ وضمـور أحزابـه الشـيوعيّة.

أمّـا الأطـراف التـي تسـاير شـروط المنظّمـات الاقتصاديّـة الدوليّـة، فأغلب الظـنّ أنّ قائمـة طويلـة مـن مُحدّداتهـا العصبيّـة والأهليّـة (الدينيّـة، الطائفيّـة، الإثنيّـة إلـخ...) تسـبق تحديدهـا بيميـن ويسـار. وإذ جـاز لنـا الاستشـهاد بالتجربـة اللبنانيّـة، التـي نقـع علـى حـالات تشـبهها لا حصـر لهـا، بـدا التعامـل مـع «تيّـار المسـتقبل»، مثـلًا، بوصفـه «يمينًـا» (أي أنّ أهـل عـكّار السـنّة نيوليبراليّـون!) لا يقـلّ غبـاءً عـن التعامـل مـع «حـزب اللـه» أو «التيّـار الوطنـيّ الحـرّ» بوصفهمـا «يسـاراً». وهـذا مـا يعيـد إلـى الأذهـان ذلـك الوصـف السـقيم الـذي اعتمـده البعـض إبّـان الحـرب الأهليّـة حيـن صنّفـوا المسـلمين «يسـاريّين» والمسـيحيّين «يمينيّيـن». فهـذه المفاهيـم لا تقـدّم أيّـة خدمـة جدّيّـة لمعرفـة الواقـع الفعلـيّ.

بطبيعـة الحـال، لا يلغـي التأويـل هـذا أنّ القـوى المذكـورة أعـلاه تعتمـد سياسـات اقتصاديّـة بعينهـا (وهـي جميعًـا، في هـذه الحـدود، «يمينيّة»)، لكنّـه يسـتبعد اعتمـاد هـذه السياسـات الاقتصاديّـة كمصـدر أوّل، أو حتى كمصـدر أساسـيّ، فـي تعريفهـا وفـي التعـرّف إليهـا (وهـذا قبـل أن يتبنّـى «حـزب سـيريزا» «اليسـاريّ» فـي اليونـان، سياسـات اقتصاديّـة «يمينيّـة» يتصدّرهـا الخضـوع لشـروط المنظّمـات الاقتصاديّـة الدوليّـة).

فـي المقابـل، توفّـر المجتمعـات المتقدّمـة لوحـة تغايـر اللوحـة «العالمثالثيّـة»، وإن تقاطعـت معهـا جزئيًّـا فـي بعـض الأحيـان والمنعطفـات. فقـد كشـف اسـتفتاء بريكزيـت البريطانـيّ، ثـمّ انتخـاب دونالـد ترامـب لرئاسـة الولايـات المتّحـدة عـن صـراع مُـرّ داخـل كتلـة لا يـزال يطيـب للبعـض وصفهـا بــ «اليسـار». فهنـاك القاعـدة العمّاليّـة

التـي تطلـب تدخّـل الحكومـات فـي الاقتصـاد وتتمسّـك بضماناتهـا التـي توفّرهـا دولـة الرفـاه، إلّا أنّهـا تحمـل بعـض أكثـر الأفـكار شـعبويّة وذكوريّـة وقوميّـة وكرهًـا للغريـب. وهنـاك، مـن ناحيـة أخـرى، نُخـب المـدن ومتعلّموهـا ممّـن انشـدّوا إلـى الاقتصـاد المعولـم العابـر للدولـة الوطنيّـة والمصحـوب بقيـم تعدّديّـة ومسـاواتيّة وكوزموبوليتيّـة (وأوروبيّة فـي حالـة بريطانيـا). وهـذا مـا يتيـح الـكلام عـن تناقـض بيـن المحلّـيّ والقومـيّ مـن جهـة والمدينـيّ المعولـم مـن جهـة أخـرى، تناقـضٍ لا يقـلّ راهنيّـةً وتمثيليّـة عـن تناقـض اليميـن واليسـار. أمّـا الخـلاف بيـن هذيـن التوجّهيـن فيطـاولان كلّ شـيء تقريبًـا: مـن المنـاخ والبيئـة إلـى العمالـة والهجـرة إلـى التربيـة الأبويّـة والمسـاواة الجندريّـة إلـى السـيادة الوطنيّـة والتدخّـل الخارجـيّ (ويُلاحَـظ عربيًّـا أنّ ثمّـة اختراقًـا جزئيًّـا حقّقـه التوجّـه الكونـيّ فـي سـائر المسـائل إلّا فـي مسـألة التدخّـل الخارجـيّ، حيـث يسـتمرّ الـولاء للسـلف القومـيّ الصالـح).

والحـال أنّنـا منـذ أيّـار (مايـو) ٦٨ الفرنسـيّ، بتنـا نشـهد بدايـة الانعطـاف عـن الثنائيّـة الأيديولوجيّـة القديمـة. ففـي ظـلّ شـعارات «يسـاريّة» بالغـة التطـرّف، شـقّ الشـبّان والشـابّات الفرنسـيّون طريقًـا ليبراليًّـا يناهـض الأبويّـة فـي نسـختيها الشـيوعيّة والديغوليّـة، ويقـدّم التحـرّر كمعطًـى حياتـيّ أعـرض كثيـرًا مـن المطالبـة بتحسـين شـروط العمـل والأجـور. وعلـى رغـم التعثّـر الـذي يسـم محاولـة الرئيـس الحالـيّ إيمانويـل ماكـرون فـي تعريفـه لـ «الوسـط» (وهـو مفهـوم صعـب التعريـف بسـبب سـلبيّته قياسًـا باليميـن واليسـار) يبقـى أنّ أكثريّـة فرنسـيّة صوّتـت لهـذه الوسـطيّة، ولـم تُعْـدَمْ العثـور علـى مصـادر لهـا فـي التاريـخ السياسـيّ الفرنسـيّ الحديـث، بـل علـى رمـوز كفاليـري جيسـكار ديسـتان وريمـون بـار وميشـال روكار وسـيمون فايـل... والحـقّ أنّ الموقـف مـن سـوريا وثورتهـا جـاء برهانًـا سـاطعًا علـى تلاقـي «أقصـى اليميـن» و«أقصـى اليسـار» علـى نحـو يشـير إلـى عتـق هـذه الثنائيّـة

ورجعيّتها من أصلها. وكان لافتًا في هذه الحدود، أن تَتْبَعَ المستشارة الألمانيّة أنغيلا ميركل، وهي مسيحيّة ديمقراطيّة، أي يمينيّة، سياسة حيال اللجوء والهجرة، لا يزال التأويل السهل، على جاري العادة المألوفة، يربطها باليسار.

واليوم، هناك ميل متعاظم إلى مقاربة الحياة السياسيّة في المجتمعات الغربيّة بوصفها صراعًا بين ديمقراطيّة ليبراليّة وديمقراطيّة انتخابيّة وشعبويّة مناهضة لليبراليّة. وقد يصحّ أنّ البعد الاقتصاديّ لا يزال غير واضح كما ينبغي في الطرح الليبراليّ (وليس النيوليبراليّ)، لكنّ الصحيح، في المقابل، أنّ أيّ برنامج تحرّريّ مجتمعيًّا (مسائل الاختلاف والحقوق) يرقى إلى سويّة البداهات في أيّ طرح راديكاليّ في ليبراليّته. أمّا في الولايات المتّحدة تعريفًا، ووفقًا لما تنمّ عنه حركات كـ «حياة السود لها أهمّيّة» أو «احتلّوا ول ستريت» القصيرة العمر، فإنّ نعت «يساريّ» لا يفيد في شيء، إلّا في تجهيل المدى الذي بلغته البعثرة والتشتّت والاصطباغ بالهويّات الجزئيّة.

إنّ التمسّك بثنائيّة اليسار ـ اليمين ومدّها على نطاق واسع يبدوان اليوم أمرًا قسريًّا ومفتعلًا جدًّا، لا سيّما حين يترافقان مع طمس شبه كامل لتجربة الحرب الباردة والتوتاليتاريّة السوفياتيّة، بما يوحي بولادة تلك الثنائيّة من صفر وعدم. فإن كان الأمر هكذا، بات الرهان على الثنائيّة هذه مغامرة بالغة الاستعجال وعديمة التجارب. أمّا إذا كان الأمر موصولًا بتاريخ سابق، بات نقد الحقبة البادئة مع ثورة أكتوبر اللينينيّة (لا مجرّد التعويل على نسيانها) شرطًا شارطًا للتعاطي الجدّيّ مع الثنائيّة المذكورة وترسيم حدودها.

لقد تحوّلت الأديان، حيال تحدّيات الحداثة، إلى فِرَق تتساجل حول «المعاني الصائبة» وما هو الدين «الحقيقيّ» الذي لا يلتزم به

المؤمنـون كمـا يجـب. وهـذا هـو اليـوم مـا يَسِـمُ السـجالات التـي لا تـزال تقـدّم نفسـها بوصفهـا امتـدادًا حيًّـا لتلـك الثنائيّـة التـي تَضْمُـر.

الأقلّيّة دائمًا أكثر ديمقراطيّة من الأكثريّة؟

الجواب: خطأ!

هنـاك فرضيّـة شـائعة لدينـا تقـول إنّ الأقلّيّـات أكثـر ديمقراطيّـة وطلبًـا علـى الحرّيّـة مـن الأكثريّـة. الفرضيّـة تُصـاغ بألسـنةٍ شـتّى تعبّـر عـن أيديولوجيّـات أصحابهـا: الأقلّيّـات متحـوّل، الأكثريّـة ثابـت. الأقلّيّـات تغييـر، الأكثريّـة رجعيّـة. الأقلّيّـات يسـار، الأكثريّـة يميـن. الاقلّيّـات حداثة وقوميّـة، الأكثريّـة عالـم عثمانـيّ... هـل هـذه الفرضيّـة صحيحـة؟ لا.

إنّهـا منسـوخة بخفّـة عـن التجربـة الأوروبيّـة، حيـث لـم تُحِـط بثنائـيّ الأكثريّـة ـ الأقلّيّـة مسـائل مـن نـوع المسـألة الاسـتعماريّة ثـمّ الحـرب البـاردة. وهـي أيضًـا منسـوخة بكسـل: فـإذا صـحّ أنّ الديمقراطيّـة لا معنـى لهـا مـن دون تلبيـة حقـوق الأقلّيّـات، وأنّهـا تعنـي ضمانـات الأقلّيّـات بقـدر مـا تعنـي حكـم الأكثريّـة، فهـذا لا يُسـتنتَج منـه أنّ الأقلّيّة ديمقراطيّـة بالمطلـق والأكثريّـة اسـتبداديّة بالمطلـق. المنطـق الشـكليّ البسـيط يعانـد بنـاء اسـتنتاج كهـذا علـى مقدّمـة كتلـك.

إنّ أكثريّاتنـا فـي المشـرق العربـيّ، بسـبب الاسـتعمار وإسـرائيل والحـرب البـاردة إلـخ... عطفًـا علـى خلفيّـة ثقافيّـة بالغـة المحافظـة، كانـت بطيئة واتّباعيّـة. قواهـا ورموزهـا السياسـيّة، ممثّلـةً خصوصًـا فـي الأعيـان الذيـن حكمـوا قبـل زمـن الانقلابـات العسـكريّة، كانـت، علـى العمـوم، ضعيفـة الحـراك والديناميّـة، ديدنهـا «الوسـطيّة» و«الاعتـدال». مصلحتهـا الماديّـة وضعـف مخيّلتهـا حـالا دون تذليـل أيٍّ مـن المشـكلات الكبـرى، لا سـيّما

مشـكلة الأرض والملكيّـات الزراعيّـة. تعلّقهـا الرومنطيقـيّ بـ «الأمّـة» (العربيّـة، الإسـلاميّة، العربيّـة ـ الإسـلاميّة) أعـاق تطويرهـا للهويّـات الوطنيّـة الحديثـة... هـذا يصـحّ خصوصًـا فـي أعيانهـا ولفيفهـم، وقضاتهـم وشـيوخهم، وفـي مدينيّيهـا أكثـر مـن ريفيّيهـا.

لكـنْ، كائنًـا مـا كانـت الحـال، فالأقلّيّـات، وبطريقتهـا الخاصّـة، لـم تكـن أفضـل مـن ذلـك:

نبـدأ بالأحـزاب التـي استهوت الأقلّيّـات فـي المشـرق العربـيّ، فانتسـب إليهـا العديـد مـن شـبّانها:

حـزب البعـث العربـيّ الاشـتراكيّ: أصـرّ، منـذ مؤسّسـه ميشـال عفلـق، علـى أنّ الحرّيّـة هـي حرّيّـة الأمّـة أوّلًا، لا حرّيّـة الأفـراد. منـذ ١٩٦٣، صـار حـزب البعـث المصنـع الأكبـر للانقلابـات العسـكريّة فـي المشـرق العربـيّ، وللأنظمـة الاسـتبداديّة التـي تنتجهـا الانقلابـات بالضـرورة.

الأحـزاب الشـيوعيّة أيضًـا، كان حضـور أبنـاء الأقلّيّـات فيهـا أعلـى كثيـرًا مـن نسـبة الأقلّيّـات العدديّـة فـي مجتمعاتهـا. لكـنّ هـذه الأحـزاب مـن ثمـار وعـي توتاليتـاريّ يُفتـرض أن يترجمـه فـي الممارسـة تنظيـم حديـد (يُراجَـع الإنجيـل اللينينـيّ «مـا العمـل؟»)... القائـد التاريخـيّ الأبـرز لشـيوعيّي المشـرق، خالـد بكـداش، كان قـدوة ومثـالًا فـي الاسـتبداد برفاقـه. مكسـيم رودنسـون وقـدري القلعجـي أسـهبا فـي وصـف هـذه العلاقـة.

الحـزب السـوريّ القومـيّ الاجتماعـيّ الـذي كان أقـرب تجـارب المنطقـة إلـى النمـوذج النـازيّ. قاموسـه يعـجّ بالأعـراق، بالجماجـم، بالسـلالات، بالمزيـج السـلاليّ، بانحطـاط قرطاجـة لأنّهـا احتكّـت بالأفارقـة «المنحطّيـن». علـى رأس الحـزب «زعيـم» مطلـق الزعامـة يتعهّـد كلَّ مـن ينتسـب إلـى حزبـه تحزيـب عائلتـه وبيتـه إلـخ... الاسـتقالة مـن

الحزب ممنوعة. «المقاطعة الحياتيّة» (التي تستعير عقاب الحرمان الكنسيّ) هي الصلة مع من يخالفون الحزب.

أخيرًا، انضاف إلى القائمة حزب الله بوليّه الفقيه وأئمته المعصومين (تبعًا لأسباب دمويّة طبعًا) وبزعامته شبه المقدّسة وبتقديسه الموت المسمّى «شهادة».

هناك، بالطبع، حالات فرديّة نفرت وتنفر من تلك التجارب المذكورة، وهذه يمكن العثور على مثلها بين الأكثريّة. وللتذكير: لا يزال السنّيّ العربيّ المعمّم عبدالرحمن الكواكبي أشهر اسم أنتجته المكتبة العربيّة في مقارعة الاستبداد و«طبائعه».

الأقلّيّات، إذًا، لم تعتنق أفكارًا ديمقراطيّة أرقى من تلك التي اعتنقتها الأكثريّة. قواها لم تطوّر تصوّراتٍ تدمج بين تحرّر الأقلّيّة وتحرّر الوطن. بين العلمنة والديمقراطيّة. في مراجعها ومثالاتها لا مكان لتجارب برلمانيّة في بريطانيا أو فرنسا. «الأوراق الفيدراليّة» الأميركيّة صحراء مجهولة عندها. ما استهواها، في المقابل، كان تجارب النقص والتعثّر الديمقراطيّ في ألمانيا وإيطاليا وروسيا، وصولًا إلى بلغاريا وألبانيا، وأخيرًا إيران. ما خاطبها من الحداثة ليس أبعادها المساواتيّة أو القانونيّة. خاطبتها الحداثة الأداتيّة، أي القوّة والتنظيم فحسب. خاطبها، تاليًا، الاستيلاء على السلطة والرهان على تحويل المجتمع بالقوّة ومن فوق.

هذا ما يوضحه أيضًا اللجوء إلى الانقلابات العسكريّة. صحيح أنّ الانقلابات لا تُختَصر في ثنائيّة أكثريّة ـ أقلّيّة، حيث هناك صعود الفئات الاجتماعيّة الوسطى، وتوسّع الجيوش والإدارات بعد الاستقلالات، والتحدّيات الخارجيّة... لكنْ، ليس مصادفةً أنّ الانقلاب العسكريّ، كشكل في التغيير، استهوى مغامري الأقلّيّات العسكريّين بنسبة تساوي، إن لم تزد، استهواء مغامري الأكثريّة العسكريّين.

الانقــلاب الأوّل فــي العــراق، وفــي العالــم العربــيّ، كان فــي ١٩٣٦. منفّــذه بكــر صدقــي كان كرديًّــا. رئيــس حكومتــه حكمــت ســليمان كان تركمانيًّــا. الانقــلاب كان يســتهدف السياســات العروبيّــة ـ السـنّيّة لرئيــس الحكومــة ياســين الهاشــمي ولشــقيقه وزيــر الدفــاع طــه الهاشــمي. الهــمّ الأيديولوجــيّ والسياســيّ للانقلابيّيــن كان توكيــد أولويّــة الوطنيّــة العراقيّة. الهــمّ مشــروع ومُلــحّ. الأداة إليــه، أي الانقــلاب، غيــر مشــروعة.

فــي ســوريا، حســني الزعيــم الــذي نفّــذ أوّل الانقلابــات العســكريّة، عــام ١٩٤٩، كان كرديًّــا. الزعيــم ســبق أن قاتــل مــع قــوّات فيشــي الموالية لألمانيــا النازيّــة فــي الحــرب العالميّــة الثانيــة.

فــي لبنــان، جــرت محاولتــا انقــلاب فاشــلتان: فــي ١٩٤٩، انقلــب القوميّون الســوريّون بقيــادة زعيمهــم أنطــون ســعادة. فــي ١٩٦١-١٩٦٢، انقلبــوا هــم أنفســهم ثانيــةً بقيــادة ضابطيــن مســيحيّين همــا شــوقي خيراللــه وفــؤاد عــوض.

هــذا كلّــه ســابق علــى ١٩٦٣، حيــن احتكــر البعثيّــون الانقلابــات «الاشــتراكيّة» و«التقدّميّــة» فــي ســوريا والعــراق. «اللجنــة العســكريّة» التــي اســتولت علــى الســلطة فــي ســوريا عــام ١٩٦٣ كان تركيبهــا نموذجيًّا فــي دلالتــه.

كــون الانقــلاب العســكريّ وســيلة التغييــر المزعــوم يثيــر مســائل عــدّة تحــضّ علــى التفكيــر والنقــاش. لكــنّ المؤكّــد أنّ هــذه «الوســيلة» تُعــدم ســلفًا كلّ «غايــة» فاضلــة يعلــن أصحابهــا عنهــا. لهــذا، يســتحيل مــن هــذه «الغايــة» المجهَضــة ســلفًا أن ينبثــق مــا «يبــرّر» «الوســيلة».

مــا يمكــن اســتخلاصه أنّ شــعبًا بــلا تجربــة ولا تقليــد ديمقراطيّيــن يصعب

أن ينتـج ديمقراطيّيـن، لا فـي الأكثريّـة ولا فـي الأقلّيّـات. كلّ طـرف منهما يبـرّر هربـه مـن بناء الوطـن ودمقرطتـه بطريقتـه الخاصّـة ولغتـه الخاصّـة، لكـنّ الاثنيـن يهربـان مـن هـذه المهمّـة، وغالبًـا مـا يهربـان بالقوميّـة، فـلا يفضّـل أيّ منهمـا الآخـر.

معظـم حـالات الاسـتبدال الأقلّـيّ للأنظمـة الأكثريّـة، احتفظـت بأفـكار الأكثريّـة فـي مـا خـصّ القوميّـة والعروبـة وفلسـطين، لكنّهـا شـحنتها بمزيـد مـن الحـدّة اللفظيّـة كمـا غيّـرت التركيـب الطائفـيّ للطـرف الـذي يُفتـرَض بـه أن يحقّقهـا. يصـحّ هـذا فـي علاقـة البعـث السـوريّ بحكـم الأعيـان الدمشـقيّين والحلبيّيـن. يصـحّ أيضًـا فـي علاقـة «حـزب اللـه» اللبنانـيّ بالمقاومـة الفلسـطينيّة. يصـحّ كذلـك فـي علاقـة نـوري المالكـي و«الحشـد الشـعبيّ» بصـدّام حسـين (ثنائيّـة أكثريّـة ـ أقلّيّـة تبقـى أشـدّ تعقيـدًا وتداخـلًا فـي العـراق، حيـث شـكّل السـنّة، حتـى ٢٠٠٣، أقلّيّـة عدديّـة وأكثريّـة سـلطويّة، فيمـا شـكّل الشـيعة أكثريّـة عدديّـة وأقلّيّـة سـلطويّة).

السجال الشهير في لبنان يوجز هذه الكارثة المُحكمة والعريقة:

الأقلّيّـات تقـول: نحـن المقاومـة. نحـن نصـون شـرف الأمّـة. الأكثريّـة تردّ: بـل نحـن المقاومـة، أنتـم مقاومـة زائفـة. نحـن مـن يصـون شـرف الأمّـة (بحسـب شـعار أكثـريّ شـهير عـن القـدس: «فتحهـا عمـر وحرّرهـا صـلاح الديـن»). مـا مـن أحـد ينافـس لاحتـلال الموقـع الأوّل فـي الديمقراطيّـة. شـرف الأمّـة يبتلـع شـرف أبنائهـا ثـمّ يتقيّـأه.

مؤسسة دَارالجَديْد
Dar al Jadeed

يوم كانت صحف...

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مبروك لـ «الأخبار»... وكلام كثير آخر(*)

يصعب، عن مزيج الخصومة السياسيّة والودّ الشخصيّ، أن يصدر قول ومعنًى. فالقائل، والحال هذه، يراوح مكانه، خطوةً إلى أمام وخطوةً إلى وراء، لا يكاد يتفوّه بـ «من جهة» حتى يستدرك فيُردف «من جهة أخرى». وتعثّرٌ كمثل هذا يُبقي صاحبه إلى اللعثمة، إن لم يكن التأتأة، أقرب.

لذا، لا بدّ من فصل وتبويب تنفكّ بهما عقدة اللسان.

ففي خانة الودّ الشخصيّ، مبروكٌ، وتهانينا. فكيف أنّنا، قبل أشهر خلتْ، عزّينا وعُزّينا معًا بحبيب غادركم كي يعود قريبًا إليكم، فلفظ أنفاسه بين يديّ؟(**) وهو ما ينشئ شراكة حزن وخسارة بيننا، نحن الذين شهد مطار بيروت، لحظةَ استقبالنا النعش، اختلاط دموعنا الساخنة. لكنْ، لمّا كانت الشراكة تقوم على الربح والسعي إليه، بتنا مدعوّين إلى التحديق في الخانة الأخرى، في السياسة وما تنطوي عليه من تبايُن وتضارُب.

(*) كُتبت هذه المقالة استجابةً لطلب من «الأخبار» (٢٠٠٨) بمناسبة الذكرى السنويّة لانطلاقتها.

(**) إشارة إلى استقبال جثمان جوزيف سماحة ـ الذي توفّي في بيتي بلندن ـ في مطار بيروت.

فأنتـم كأنّ ظهوركـم مُسـندة إلـى دعـوة لـم تملّ الحـركاتُ التوتاليتاريّـة تكرارهـا: اِبـدأوا البـكاء، فبعـد قليـل تصلكـم الأخبـار السـيّئة. ويتـراءى لـي أنّ جريدتكـم لـو اختـارت أن تفعـل مـا تفعلـه صحـف أخـرى مـن يانصيـب وقرعـة وهدايـا، لتدرّجـتْ هداياهـا بيـن سـيّارة إسـعاف ذات صفيـر قـويّ للفائـز الأوّل وسـكّين مطبـخ للفائـز الأخيـر.

فهـي ضاجّـة، صاخبـة، تذكّرنـي بقصّـة منفـيّ ليبـيّ كان كلّمـا اشـتاق إلـى بلـده، ثبّـت إبـرة الراديـو علـى محطّـة طرابلـس. غيـر أن الراديـو، كمـا قـال حزينًـا، كان لا يلبـث أن يسـخن ويتهـدّد بالانفجـار، بحيـث يبـرّده بشـيء مـن المحطّـة التونسـيّة المجـاورة.

ذاك أن التعبئـة، فـي عرفكـم، ينبغـي لهـا ألّا تسـترخي، والنـاس، مـا لـم يكونـوا جنـودًا، فجنـودٌ احتياطيّـون قـد يُسـتدعون، فـي أيّـة لحظـة، إلـى الخنـدق.

ومعروفـةٌ هـي أيضًـا حجّـة التوتاليتاريّيـن دفاعًـا عـن قرعهـم المتواصـل للطبـول تصـمّ آذان الحيـاة المدنيّـة وتنخـر روحهـا: أنتـم بورجوازيّـون، أو ضالّـون، أو خونـة، أو ـ بموجـب قامـوس الراديكاليّـات الدينيّـة ـ فاسـدون مسـكونون بالشـيطان، وفـي حالاتكـم جميعًـا، لا تكترثـون بظلـم مظلـوم أو بحـقّ صاحـب حـقّ. فالحجّـة، بالتالـي، ابنـة نظـرة تسـتقي تعريـف ذاتهـا مـن عـداوات تتّسـع وتتناسـل، فـلا تـرى إلـى الكـون إلّا مسـرحًا للكراهيـة متّصـلًا ولا إلـى الزمـن إلّا ألبومًـا عـن دمائهـا وأشـلائها.

وفـي ظنّـي، وفـي حـدود مـا أعـرف، أن مـا مـن ظلامـة عولجـت، ومـا مـن عدالـة اسـتُجيبت، إلّا فـي ظـلّ صمـت البنـادق واسـترخاء الأعصـاب. وهـي لا تُعالَـج ولا تُسـتجاب مـرّة واحـدة، وقـد يتخلّـل التعامـلَ معهـا انتـكاسٌ هنـا وتراجـع هنـاك. لكـنّ المؤكّـد، فـي المقابـل، أنّ الأمثلـة لا تُحصـى عـن حـركات التعبئـة والحـضّ التـي زعمـت الانتصـار لحـقّ، أو لعـدل، فأنشـأتْ للخطـأ والظلـم صروحًـا غيـر مسـبوق إليهـا.

والراهن أنّ المشاكل، إذ تُحَلّ بضغط يقلّ عن العنف، فهذا شهادة على أنّ البشر مهما خسروا من بشريّتهم بقي قدْر منها. أمّا الظنّ بأنّها لا تُحلّ إلّا بالعنف فخلفيّته شكٌّ عميق في تلك البشريّة وذئبيّةٌ لا مناص منها في نظر واحدنا إلى الآخر. ثمّ إنّ المنطق الأوّل يخلي مكانًا للارتباك والخطأ والتراجع، فيما الثاني عارف موقن نبويّ، يصنّف على نحو مبرم ويحدّد، بل يشتم من غير انقطاع، غافلًا عن أنّ أمورنا، بعد كلّ تلك الهزائم، تستدعي قدرًا من الحيرة أكبر. أمّا «النقد الذاتيّ» حين يأتي، إذا أتى، فتكون المقبرة قد ابتلعت نصف الأرض!

لكنْ، لمّا كان الكلام، هنا، عن جريدة ومهنة، جاز القول إن «الدعوة» الملحاح إلى العداوة، بل أيّة دعوة ملحاح، قد تصنع نشرة متقدّمة غير أنّها لا تصنع جريدة. وأمّا «الداعي» فيبقى مناضلًا أكثر منه كاتبًا أو صحافيًّا، ذاك أنّ المهنة، كلّ مهنة، لها أصولها، كما يقال، فيما النضال مهنة قائمة بذاتها. وهو ممّا لا تلتفّ عليه شطارة خلط المهنتين بـ «كولاج» توفّره صورة جميلة وإشارة متجرّئة وإخراج جيّد، بحيث يكون رتق البكارة برهاننا الوحيد على التحرّر وسعة الصدر أو على إجادتنا استخدام التقنيّة.

وأنتم، في الصور والإخراج والإشارات النبيهة والكثيرة حقًّا في جريدتكم، وهو ما تمتازون به عن سائر جرائدنا، مثل مَن يعبر المحيط كي يصل إلى الصحراء، بدل أن يعبر الصحراء لبلوغ الماء. وصحراؤكم مصنوعة من عودات ثلاث إلى المواضي التي تكمن فيها البراهين، ومنها يأتي المدد. فهناك ماضي اليسار بفولكلوريّاته ورموزه، محذوفًا منه تتويجه المريع في سقوط الاتّحاد السوفياتيّ ودروسه، أو في اختيار الصين «البروليتاريّة» رأسماليّةً هي بالعبوديّة أشبه. وهنا، في الحالتين، نتحدّث عن مئات الملايين لا عن

«كمشة» شافيزيّة وأخرى موراليسيّة غثّهما أكثر من سمينهما. وأمّا الماضي الثاني فماضي الإسلام (ولا بأس بشيء من هال العروبة في قهوته)، محذوفة منه ذروته الحاليّة في التربّص السنّيّ بالشيعة، والشيعيّ بالسنّة، وفي حركة السكاكين والسواطير التي تقيم حكم الله، عزّ وجلّ طبعًا، في العراق. هكذا، لا يبقى لنا ممّا أورثنا إيّاه الأسلاف الصالحون إلّا المذبحة تهدّدنا بالإطباق الشامل في ظلّ رايات خفّاقة.

وهي خلطة باتت مألوفة في شعبويّات «العالم الثالث» المتمادية، حيث يتمّ إجلاس كارل ماركس في حضن المهديّ عجّل الله فرجه، أو العكس. على أن الشورباء تلك لا تلبثون أن تكسروا فيها بيضة، هي ماضي المسيحيّة اللبنانيّة، وقد «مودَرَها» الجنرال عون.

وغنيّ عن القول أن جمع مواضٍ ثلاثة لا يصنع مستقبلًا بل، في أغلب الظنّ، يكثّر أدوات الشغب على المستقبل ويضاعف الحواجز في وجهه. فأنتم، وهو ممّا ينبغي أن يُقلقكم، خارج التيّار العريض للحياة الثقافيّة في بلدكم. وهو ما لا يُعوّض بـ «مثقّفين عرب» يهرفون في الشأن اللبنانيّ بما لا يعرفون، ويحبّون بيروت «قلعةً للمقاومة» فيكرّمونها بأن يختاروها، هي وحدها، للخراب «الجميل». ولا بأس بتذكيركم بأنّ الخروج من التيّار العريض للحياة الثقافيّة كان دائمًا مقدّمة لمناهضة الثقافة ولبَرَم بهذه «الضلالة المتحذلقة» من طينة نبويّة مرّةً، شعبويّة مرّةً، متعالية آنًا، مُسفّلةً ذاتها «تواضعًا» آنًا آخر.

وهي رائحة أشمّها في تجربة واحد من كتّابكم الشباب، كان في صحيفة «السفير» التي أتى منها واعدًا ورصينًا فاختار لنفسه، في ربوعكم، وجهًا آخر يحاكي فيه «الشعب» ويستلهمه.

لكنّ ما ينبغي أن يُقلقكم أكثر أنّ الذين تشتمونهم هم الذين

اغتيلـوا وقـد يُغتالـون. وهـذا، معـاذ اللـه، أن يكـون اتّهامًـا، أو شـكًّا، إلّا أنّـه قرينـة علـى اتّسـاع الرقعـة التـي تتقاطعـون فيهـا مـع القتلـة. ولـدى بعـض قبائـل البـدو عـادة ربّمـا كنتـم ضحاياهـا، هـي أنّ شـيخ القبيلـة يبنـي أفعالـه علـى أقـوال صغيـر القبيلـة الطلـق اللسـان. والشـيخ، كمـا لا بـدّ أنّكـم تعرفـون، يحنّـي شـاربيه، كلّ صبـاح، بالـدم. فليضبـط الصغيـر لسـانه إذًا.

والحـال، ونظـرًا إلـى هـذا التقاطُـع غيـر المقصـود، أنّ مـن يقـرأ اسـمه مهجـوًّا، مـرّة بعـد مـرّة فـي «الأخبـار»، يحـقّ لـه أن يتخفّـى بتغييـرٍ فـي عاداتـه أو بعمليّـة تجميـل، أو تبشـيع، وربّمـا غـادر البلـد نهائيًّـا. فيُستحسَـن، والأمـر علـى مـا هـو عليـه، ألّا تكونـوا إخبـارًا عـن مـوت قـادم، وألّا تحقّقـوا، فـي هـذا المجـال، «سـبَقًا صحافيًّـا» لـم تخطّطـوا لـه.

لقـد فوّتـتْ جريدتكـم فرصًـا كأنْ تكـون مثـلًا صحيفـة اشـتراكيّة ديمقراطيّـة تدخـل إلـى الحداثـة مـن يسـارها، بعيـدًا مـن الطوائـف والمواضـي والبنـادق. وأوّل الحداثـة أن يكـون لنـا وطـن، ليـس «مرقـد عنـزة» ولا «قطعـة سـما»، بـل مجـرّد مـكان غيـر مُهـدّد، عنـد كلّ منعطـف، بالاندثـار، مـكانٍ يسـتطيع، بفعـل تركيبـه السـكّانيّ المتعـدّد، أن يسـتنير وينيـر فـي محيطـه علـى نحـو لا يسـع بلـدًا آخـر فـي المنطقة إنجـازه. وهنـا، أيّهـا الأصدقـاء، فـارق كبيـر بيـن القـول أن لبنـان جـزء مـن المنطقـة، وهـو مـا يمكـن تخفيـف سـيّئاته وتوسـيع منافعـه، وبيـن دفعـه دفعًـا لأن يكـون جـزءًا مـن أسـوأ مـا فـي المنطقـة.

بيـد أنّ هـذا، كائنًـا مـا كان الأمـر، حقّكـم. وأنـا، وكثيـرون مثلـي ممّـن يخالفونكـم الـرأي، مسـتعدّون أن يدافعـوا، مـا وسـعهم الدفـاع، عـن حقّكـم ذاك. مـع هـذا، حاولـوا أنتـم أيضًـا أن توفّـروا للحـقّ إيّـاه مزيـدًا مـن المبـرّرات، بـألّا يلحـظ قارئكـم أن عمركـم سـنة واحـدة.

جريدة «السفير» وطلال سلمان

في يوم صيفيّ من عام ١٩٧٤، وكنت عائدًا من لندن، أخبرني جوزيف سماحة بأنّ «جريدة تقدّميّة ستصدر في بيروت»، قال إنّ تمويلها ليبيّ، وليبيا كانت يومذاك تناهض الشيوعيّة كما لم يناهضها جو مكارثي. غير أنّ صاحب المشروع، كما أضاف، «ناصريّ منفتح على اليسار». فطلال سلمان، وفقًا للرواية، سيفيد من فرصة أتاحها المال الليبيّ لإصدار جريدة «يحبّها قلبك».

«النهار» لم تكن جريدتنا. فهي لبنانويّة جدًّا ومسيحيّة جدًّا، فضلًا عن كونها بورجوازيّة ضالعةً في النظام بمعناه الأوسع. أمّا «المحرّر» التي عبّرت عن ناصريّة صارخة مشوبة بفلسطينيّة متوتّرة، فكنّا نحسّها جريدة آباء أنفقوا صوتهم المرتفع وتركوا لأبنائهم صمتًا لا يطلع منه كلام مفيد.

ولم ينقض يومان حتى وجدتُني في مكتب طلال سلمان، الرجل اللطيف والخجول الذي لم يتكيّف مع واقعه الجديد، صاحبًا لجريدة ورئيسًا لتحريرها، يقطّع عباراته القصيرة بضحكات مخنوقة وتنهّدات تُشركك سريعًا في همٍّ يعرضه باقتصاد يحيطه بالغموض. وهو، بسُمرته الحادّة، ذو طلّة وضحكة محبّبتين إنّما حمّالتا أوجه. فإذا ميّلناه يمينًا، بدا ذا ملمح خليجيّ، وإذا ميّلناه يسارًا، بدا شبيهًا بقادة «الجبهة القوميّة»، الموصوفين بالتطرّف اليساريّ، في اليمن الجنوبيّ.

وربّما بفعل ميل استفزازيّ لم يفارقني، أو لجلاء صورة ينبغي ألّا تلتبس لاحقًا، أقحمتُ في الكلام اسم الشيوعيّ فرج الله الحلو الذي «قتله عبدالناصر». وإذ تشاغل جوزيف مُحرَجًا بي، كما تشاغل ياسر نعمة، عرّاب الجريدة، ابتسم طلال بسمة فيها من الودّ حيال شابّ متحمّس ما فيها من الخبث حيال يافع غافل،

مستوعبًا عبارتي النافرة كأنّها لم تكن. وانتهت الجلسة بمطالبتي بأن أعدّ ملفّين طويلين اخترتُ موضوعيهما، واحدًا عن الكتائب اللبنانيّة، نُشر لاحقًا، والآخر عن الحزب السوريّ القوميّ، لم يُنشر.

وما إن ضمّتني الأسرة، حتى حُدّد لي معاش شهريّ من ٥٥٠ ليرة لبنانيّة كانت المبلغ الأوّل الذي أتقاضاه عن عمل. يومذاك، كانت لجوزيف «تأمّلاته» في المعاش، فقال لي إنّه كلّما التقى بطلال في ممرّات الجريدة ورآه عابسًا، تخيّل ذلك المعاش أوراقًا تتطاير في سماء بعيدة.

لكنّ طلال، الذي كثيرًا ما يُطْرِق، قليلًا ما يعبس. فمثلنا بدا متفائلًا برسالة نضاليّة تستحضر الفجر مرّتين، على الأقلّ، في كلّ ليل بهيم. وكان، إلى ذلك، مفتونًا بمهمّة مهنيّة، لم يصرّح عنها، لكنّها لا تقلّ عن انقلاب، ذاك أنّ ابن الدركيّ، كما كان يقول متباهيًا، هيّأ نفسه لإعادة تأسيس الصحافة اللبنانيّة من صفرٍ لم يسبقه تأسيس ولا زمن. فمنذ ذلك اليوم، وعلى شاكلة البيانات التي يذيعها الضبّاط بعد احتلالهم الإذاعات، بات هناك «صوت» للّذين «لا صوت لهم»، ووُلدت جريدة لـ «الوطن العربيّ في لبنان» ولـ «لبنان في الوطن العربيّ». وكان طلال يجدّ في سعيه هذا ويجتهد، فيكرّس له الوقت كلّه ويخدمه بحواسّه الخمس، قبل أن يستعير له حواسّ الآخرين وهممهم. غير أنّه، وهو سيّد الشعارات والعناوين الصارخة، كان يشارك العسكريّين الانقلابيّين تعثّرهم لدى شرح الانقلاب المهيب. فالبلاغة متروكة للشعارات، فيما يلهث الكلام المتعب للّحاق بها.

وفي «السفير»، نشأت تلك التسوية التي عملتُ بموجبها، وعمل كثيرون غيري، سنوات طوالًا: نضع المموّل بين هلالين، فلا نأتي على ذكره سلبًا ولا إيجابًا، ونستفيد من الحيّز المتاح كي نقول ما نريد قوله. هكذا، وربّما مستفيدين من تقليدنا العريق في التقيّة،

نكون نؤمن بكلّ ما نكتب، لكنّنا لا نكتب كلّ ما نؤمن به. وطلال، بدوره، لم يسأل أحدًا أن يكون غير ذلك.

وراودنا يومذاك هاجس عبّرنا عنه بلغة غالبًا ما أتت مداوِرة: كيف نُنهي سطوة «النهار» التي رأيناها عائقًا كالذي يراه الانقلابيّون في وزارة الدفاع؟ فإذا كان لبنان يتهاوى لمصلحة الثورة الفلسطينيّة، وإذا كانت البورجوازيّة تتهاوى، هي الأخرى، لمصلحة الطبقة العاملة، فلماذا إذًا لا تتهاوى «النهار» أمام «السفير»؟

وكان ما يشجّعنا أنّ واحدنا يأتي إلى الجريدة الوليدة من همٍّ عامّ تدلّ إليه حزبيّته وصلته ببضعة كتب وأفكار، همٍّ لا يُصرَّف إلّا بالكتابة والنشاط السياسيّ، فيما مُجايلونا في «النهار» يسعهم أن يعملوا أساتذة في التعليم أو موظّفين في مصرف، كما يمكنهم أيضًا العمل في الصحافة حين يقودهم إليها الحظّ أو سوؤه. وإذا كان الرأي الحاسم ما يميّز واحدنا، فتلطيف الرأي وتمويهه ما يميّز واحدهم. وهذا فضلًا عن حساسيّةٍ نفّرتنا دائمًا من «المصادر العليمة» و«الأسرار» التي لا يُعرف من أسرّ بها. أمّا «فخامتك» و«معاليك» فلغةٌ لسوانا، بينما نحن نسمّي «الكبار» و«القامات» من غير أن نرفق أسماءهم بـ «البيك» و«الشيخ» و«العميد».

لكنّ المشكلة أنّ مساعينا المضمرة إلى منافسة «النهار» محكومة بالهوى المصريّ الذي يعصف بطلال، ذاك أنّه كان يستقي البدائل والمثالات من بلد عُطّلت فيه الصحافة طويلًا وكُمّمت الأفواه. وهذا ما ربط أقدامنا في السباق بأطنان من الحجارة، إذ كيف نركض ونحن لا تستهوينا إلّا الأنظمة والتجارب المشهورة بلجم الصحافة وتقييدها؟

وعلى العموم، مال الهوى بنا إلى ما لا يستهوي الحرّيّة، ولا تستهويه، ولبنان كان أكثر بلدان العرب احتضانًا لها. وكم كان ياسين

الحافظ يُدهشنا ويضعضعنا حين يقترح علينا، إذ نلتقيه في ردهات الجريدة، «النضال للبننة العرب» بدل «النضال لتعريب لبنان».

فبينما كانت شوارع بيروتيّة كالحمرا وبلسّ والروشة تتباهى بأكشاك الصحف، كان لُعاب «السفير» يُسيله محمّد حسنين هيكل، الذي احتفظتْ له بلقب «الأستاذ» الحصريّ، وهو لم يستحقّ موقعه إلّا بفضل علاقته الوثيقة والشهيرة بحاكم ديكتاتور. وفي النخاع الشوكيّ للجريدة أقام «أولاد الحارة الطيّبين» وشعبويّات أخرى جيء بها من الأفلام المصريّة لا تفعل غير تحويل أصحابها جاليةً في بلدهم.

لكنّنا كنّا عائلة بما تنطوي عليه العائلات من مودّة ورفاقة، لكنْ أيضًا بما تنسجه من نكد ومكائد. وسريعًا ما تحوّل زملاء نهارنا ندامى سهر، خصوصًا بعدما اضطرّني اندلاع حرب السنتين إلى مغادرة بيت الأهل في الأشرفيّة والانتقال إلى شقّة مفروشة في الحمرا.

فجوزيف سماحة وشوقي رافع وناجي العلي وحسين حلّاق ووليد شقير وحلمي التوني وراشد فايد وسعد محيو ووليد نويهض وجورج ناصيف ونجاة حرب وفادية الشرقاوي وزينب حسّون وفيصل سلمان وسعيد صعب ومحمّد شقير ومعتزّ ميداني وعدنان الحاج وإيمان شمص وموفّق مدني وأمل حوّا وعصام الجردي ويوسف برجاوي وعمر الناطور، وآخرون يصعب إحصاء أسمائهم، كانوا نجوم النهار الذين ينقلب أكثرهم في الليل نجوم ليل. وكان ينضمّ إلينا في بعض تلك الأماسي، معلّمنا الحِرفيّ الدؤوب محمّد مشموشي، ومدير تحريرنا الذي يسير كأنّه ينزع لغمًا من تحت قدميه بلال الحسن، والمسرحيّ الرقيق والمتحفّظ سعدالله ونّوس، وإبراهيم عامر الذي يقيم فصلًا حادًّا بين أخويّة المقهى وتراتبيّة المكتب، ومصطفى الحسيني الذي يحمي دماثته وخجله بحسم مشبع باليقين. أمّا

ياسر نعمة، المدير الإداريّ اللبق، وباسم السبع، الذي استهواه منذ شبابه المبكر أن يكون «شيخ شباب»، فكانا مَن يمتصّان الأزمات التي تنشأ بين طلال وواحد من أهل البيت. وهما كانا يوحيان بأنّهما منقذا طلال من ضلال ألمّ به فجأة، وهو الإنقاذ الذي يجوز الشكّ في أن يكون طلال قد أراده، وإن كان قد أوحى بأنّه يريده.

والزملاء الأصدقاء هؤلاء، ممّن تراوحت أعمار معظمهم بين العشرين والثلاثين، كانوا خليطًا من أبناء الطبقة الوسطى وشرائحها الدنيا، ريفيّين مقيمين في المدينة ومدينيّين، سنّة وشيعة مع أقلّية من المسيحيّين الذين سيموا «وطنيّين»، مثلهم مثل آخرين، كسمير فرنجيّة وغسّان الخازن اللذين كتبا افتتاحيّات للجريدة من دون أن يعملا فيها. وكان أغلب أولئك الشبّان والشابّات إمّا شيوعيّين في الحزب أو شيوعيّين في المنظّمة. أمّا العرب غير اللبنانيّين بيننا فكانوا أكبر سنًّا وأكثر تجربة في سياسات القسوة التي عادت عليهم بالقهر والمرارة.

والمرارة وفدت إلينا من أبواب ونوافذ عدّة، ذاك أنّ الحرب التي ناضلنا بهمّة كي تقع، وقعت. وكم كنّا نتباهى بزميلنا المصوّر أكرم... الذي يغطّي الأحداث بيد تحمل الكاميرا وأخرى تحمل الرشّاش.

والحال أنّ الحرب تبقى الحقيقة الأشدّ تأثيرًا وفعلًا في «السفير». فهي ولدت قبل أشهر على اندلاعها، ما توأم الاثنتين جاعلًا واحدتهما، وإن على شيء من المضض أحيانًا، ضرورة للأخرى. لكنّ الحروب من طبعها تحويل الجرائد نشرات تعبويّة، فيما من طبع الجرائد مكافحة الحروب والنشرات.

هكذا، قُضِيَ مبكرًا على «السفير» أن تكون صوتًا نضاليًّا يعرف الحقيقة أكثر ممّا يُخبرها، وأحيانًا قبل أن تصير حقيقة، أو من دون

أن تصير. أمّا الحجج التي طابت لألسنتنا فسهلة تكرّ كرّ الماء بمجرّد فتح الحنفيّة، ذاك أنّ ثمّة «مصائر» ندافع عنها، و«مؤامرات» نحبطها، واحتلالًا لا نفعل إلّا الدفاع عمّن يستدعيه من أجل أن يقاومه. وكان سهلًا أن يقول واحدنا، حين يتظاهر بالبراغماتيّة، أنّ الجريدة تريد قرّاء والقرّاءُ معبّأون. أمّا أن نكون نحن قد عبّأناهم لكي يريدوننا ونريدهم على هذا النحو فأمر آخر. وفعلًا، امتلكنا القدرة على إيقاع الوقيعة بين زوج وزوجة متحابّين بذريعة أنّنا أردنا لهما أن يتحابّا أكثر، وأن يكونا مثال العائلة المشتهاة.

والرغبات هذه، التي رعتها براءة البعض، وجدت دائمًا مستعدّين لمدّها بالمال والسلاح اللذين كانا يتحرّكان في اتّجاهات شتّى. ومع اقتراب حرب السنتين من نهايتها وافتراق أهل «الخندق الواحد»، اختارت «السفير» الطرف الأقوى، وكان تلويث الحرب لمعظم الصحافة قد اجتاز شوطًا أبعد. فالجيش السوريّ دخل لبنان يومذاك من بوّابات كثيرة، منها مقتلة تلّ الزعتر، ومنها العدوان على الصحافة غير الموالية لدمشق وقتل صحافيّين وإسكات غيرهم. وتبدّى، حينذاك، كم كنّا أحرارًا وأقوياء حيال «البيك» و«الفخامة» بالقياس إلى ما صرناه حيال «سيادة العقيد».

بيد أنّ الأمور تغيّرت مع زيارة أنور السادات القدس. فقبل أن يستعيد أهل «الخندق الواحد» وحدتهم، كتب طلال بلسانهم أجمعين مانشيتّه الشهير «الساقط عند المغتصب»، وكانت لي في هذا الجنون مساهمة تُخجلني هي افتتاحيّة بعنوان «اقتلوه»، داعيًا إلى قتل الرئيس المصريّ قبل أن يصل إلى «الكيان الصهيونيّ».

يومذاك، وبغضّ النظر عن المضمون الرهيب لما كتبته، أتاح لي طلال سلمان أن أوقّع افتتاحيّة على الصفحة الأولى، وأنا في السادسة والعشرين، وهو ما تكرّر مرارًا بعد ذلك. وبهذا، وبمعاملة

كهـذه لكثيريـن غيـري، سـجّل طـلال لنفسـه ميـزة فريـدة، هـي أنّـه يرعـى ويشـجّع مـن يلـي مـن الأجيـال بعيـن واسـعة وقلـب كبيـر.

وبقـرار أو مـن دونـه، يُحسـب لـ «السـفير» أنّهـا المـكان الـذي أُسّسـت فيـه الكتابـة التحليليّـة فـي الإعـلام اليومـيّ اللبنانـيّ بعدمـا طغـت الكتابـة الإنشـائيّة طويـلًا.

فعلـى صفحاتهـا، مـا بيـن النشـأة والإغـلاق، كتـب مـن العـرب ياسـين الحافـظ وميشـال كامـل وأدونيـس وجميـل مطـر وفهمـي هويـدي وعزمـي بشـارة وميشـال كيلـو وياسـين الحـاج صالـح ولـؤي حسـين وثائـر ديـب وسـنان أنطـون وكثيـرون آخـرون. وفيهـا عمـل مـن اللبنانيّيـن فـوّاز طرابلسـي وجهـاد الزيـن وزيـاد ماجـد وحسـام عيتانـي ونهلـة الشـهّال وسـاطع نـور الديـن وإبراهيـم الأميـن وخالـد صاغيّـة ووسـام سـعادة ونصـري الصايـغ وربيـع بـركات وحسـين أيّـوب ونهـاد المشـنوق وغيرهـم. ولا أظـنّ أنّ أحـدًا مـن أصحـاب الأسـماء المعروفـة اليـوم لـم تسـتكتبه «السـفير». وإلـى هـؤلاء وسـواهم، حامـت دائمًـا أطيـاف لطيفـة فـوق مكاتبهـا، كمنـح الصلـح والسـيّد هانـي فحـص، ممّـن حملـوا إلـى تلـك المكاتـب تجاربهـم الغنيّـة وعباراتهـم الأنيقـة.

وفـي «السـفير»، أسّـس إبراهيـم العريـس، مطالـع ١٩٧٧، صفحـة ثقافيّـة احتضنـت أدبـاء سـائر المناطـق والطوائـف وفنّانيهـا، كاسـرةً تقليـد التمحـور حـول الجبـل المسـيحيّ، كمـا احتفلـت بـالأدب العالمـيّ بمـا يغايـر التعاطـي السـائد، اللبنانـويّ وشـبه السـياحيّ، مـع الثقافـة.

وأيضًـا، بيـن النشـأة والإغـلاق، ضمّـت «السـفير»، كتلـة معتبـرة مـن صانعـي الثقافـة اللبنانيّـة المعاصـرة. فإلـى عـرب شـغلوا مواقـع أساسـيّة، كسـعدالله ونّـوس ويسـري نصراللـه ورؤوف مسـعد، وطبعًـا ناجـي العلـي، أو اسـتُكتبوا فيهـا كهاشـم شـفيق ومحمّـد بنّيـس وسـواهما، أضـاء صفحـات «السـفير» شـاعر كعبّـاس بيضـون وروائـيّ كحسـن داوود، كمـا

اتّسـعت لكثيريـن حملـوا إليهـا نجوميّتهـم، أو اكتسـبوها فيهـا، فـكان منهـم محمّـد العبداللـه واليـاس خـوري وبـول شـاوول وشـوقي بزيـع ومحمّـد سـويد وعنايـة جابـر ومحمّـد علـي فرحـات ويوسـف بـزّي وسـامر أبـو هـوّاش وحسّـان الزيـن ويحيـى جابـر وجهـاد بـزّي ورشـا الأطـرش ونديـم جرجـورة واسـكندر حبـش وعبيـدو باشـا وسـحر منـدور وأحمـد بـزّون...

وفـي مـا يعنينـي خصوصًـا، عرّفتنـي «السـفير» إلـى صالـح بشـير، التونسـيّ الجـوّال الـذي جـاء إلـى بيـروت مناضـلًا وعمـل مترجمًـا، ثـمّ «تسـلّل» إلـى الكتابـة ليغـدو أحـد أبـرز الكتّـاب العـرب الذيـن عافـوا المتـون إلـى الهوامـش، وواحـدًا مـن أذكـى النـاس وأكرمهـم. ومـع صالـح، حوّلنـا الغرفـة المخصّصـة لصفحـة «الـرأي» امتـدادًا لسـاحة هائجـة فـي تظاهـرة بطهـران تشـتم الشـاه بألسـنة كثيـرة وتهتـف للخمينـي.

وواقـع الحـال أنّ «السـفير» كثيـرًا مـا شـابهت التظاهـرات: يأتـي طـلال متحمّسًـا، حيـن يبـدو لـه ولنـا الحـدث جلـلًا، فيوزّعنـا علـى المحـاور وتبـدأ المسـيرة. إلّا أنّهـا شـابهت الأحـزاب النضاليّـة أكثـر ممّـا شـابهت المهـن. ولاحقًـا، وفـي المعنـى هـذا، «انشـقّ» عنهـا «يسـارًا» جوزيـف سـماحة وإبراهيـم الأميـن ليُنشـئا «الأخبـار»، و«انشـقّ» سـاطع نـور الديـن «يمينًـا» ليؤسّـس «المـدن»، وهـذا بعدمـا كان باسـم السـبع وفيصـل سـلمان قـد بلغـا فـي «الانشـقاق» مـا يرقـى إلـى «ارتـداد».

أمّـا أنـا، فتغيّـرت مبكـرًا كمـا تغيّـرت «السـفير». فمنـذ أوائـل الثمانينيّات، وقـد أفضـت التجربـة الإيرانيّـة إلـى الثيولوجيّـة الحقـود التـي صارتهـا، لم يعـد يعنينـي أكثـر مـن اسـتقرار السـلطة المركزيّـة فـي بيـروت، كائنًـا من كان رمزهـا. وحيـن حـلّ الاجتيـاح الإسـرائيليّ وتباهـت جريدتنـا فـي واحد مـن مانشـيتّات طـلال الصارخـة بـأنّ «بيـروت تحتـرق ولا ترفـع الأعـلام

البيضاء»، كان المانشيتّ الذي يستهويني، وهو هرطقة لا تُكتب، أنّ بيروت ترفع الأعلام البيضاء كي لا تحترق.

لكنّ طلال، والحقّ يقال، تحمّل اختلافي طويلًا، وكان يشير إليه مداعبةً بتسميتي «الابن الضالّ». وهو احتملني سنواتٍ راح فيها افتراقي يتزايد عن فهم «السفير» لكلّ ما يدبّ على الأرض.

ولن يقوى النسيان، الذي يلتهم أشياء كثيرة، على التهام حوادث صغرى مؤثّرة. فحين جرت محاولة آثمة لاغتيال طلال، كنت مصابًا بزكام أخّر عيادتي له ثلاثة أيّام أو أربعة. لكنْ، حين زرته، عاتبني برقّة شديدة، تكاد تكون اعتذاريّة، ظانًّا أنّ الخلاف السياسيّ ما حال دون تفقّده. والحقّ أنّ الطرف الذي اتّهمه بمحاولة الاغتيال هو الطرف الذي كنت أدافع عنه في جريدته، لمجرّد أنّه رمز السلطة المركزيّة يومذاك. وكان الرأي الذي أميل إليه، أنّ قيام السلطة شرطٌ لمعارضتها، وإلّا دخلنا في همجيّة المعارضة من دون سلطة.

أمّا إبّان علاجه، فتبرّع صديقه أسعد المقدّم بأن يسدّ الفراغ الذي سبّبه احتجابه. وما لبث أسعد، بنواياه الحسنة وأفكاره البسيطة عن «مأسسة السفير»، أن انضمّ إلى فرقة العاملين على إنقاذ طلال من طلال. لكنْ هيهات!

فـ «السفير» وطلال سلمان يستحيل فهمهما، هما أيضًا، من دون العائلة ونظام القرابة، ومن أيّام الجريدة الأولى، وُجد من يسمّيها «شمسطراليا»، تدليلًا على عدد العاملين فيها من أبناء شمسطار، بلدة طلال. لكنْ أيضًا، وربّما أكثر من أيّ مكان آخر، كانت تنعقد زيجات في «السفير»، وتلد زميلات، وكثيرًا ما تستعرض أدراج الجريدة أطفالًا يحملهم آباؤهم وأمّهاتهم. وإذا كانت المؤسّسات الصحافيّة اللبنانيّة كلّها ملكيّات عائليّة، فإنّ «السفير» مشاعة عائليّة تقف مشاعيّتها، بطبيعة الحال، عند عتبة المُلكيّة. فالزواج والطلاق،

وكذلك التعيين والتوريث، أمور مفتوحة لنقاش الجميع وتداولهم. وطلال نفسه أكثر من يستضيفون الآخرين إلى همومه الشخصيّة والعائليّة، مستعينًا بالأصدقاء على حلّها، من دون أن يُتاح لهؤلاء الأصدقاء فهم دواخلها العميقة، ومن غير أن يكونوا هم أنفسهم مراجع تقليد في التربية والانتظام العائليّ.

وفي حدود التناقض بين «العائلة» و«المؤسّسة»، أمضى طلال سنوات يؤسّس المؤسّسة لفظًا ويمتّن العائلة التي هي «عائلة الجميع» بالمعنى الذي كان بيرون يزهو به في الأرجنتين. وفي ذلك، استعان بالنفوس الكثيرة والمتعارضة المقيمة في نفسه، هو الذي يحبّ أن يربح ويحبّ أن يخسر، وأن يبدو رابحًا وهو يخسر وخاسرًا وهو يربح، والحامل الإيمان القديم والمكتشف أنّه بات لزوم ما لا يلزم، والأب الذي يستهويه أن يكون صديقًا للأبناء، وأحيانًا ابنًا لهم، وابن الدركيّ الذي يخشى العقداء ويقصر تجرّؤه على ساسة يشاركونه، مثلنا جميعًا، الخوف من القتل.

وفي الحالات كافّة، نجح طلال سلمان في تحويل السفيريّين جيشًا عاطفيًّا في علاقته بـ «السفير»، ينفعل ويتعصّب لها، وقد يبكي منها وقد يبكي عليها. وهي بالتأكيد علاقة عائليّة بحت لا مثيل لها بين جريدة وعاملين فيها. وهذا ما عزّزته تلك العاطفيّة التخديريّة التي تزخر بها المخاطبات الشعبويّة، فـ «تُقنع» السامع بعكس ما يقوله العقل والمنطق والمصلحة. هكذا، كان من يدخل إلى مكتب طلال محتجًّا يخرج منه معزّيًا، في انتظار أن يتراجع مفعول المخدّر بعد ساعتين.

في تلك الغضون، كانت الثمانينيّات تطرح على «السفير» همًّا أكبر يتّصل بالمعنى الذي رسمته لنفسها. فالعروبة الأخويّة البسيطة بدأت تنشقّ إلى سنّة وشيعة، وفلسطينيّين ولبنانيّين. وما بين خطف

موسى الصدر في ليبيا وحرب المخيّمات الشيعيّة ـ الفلسطينيّة، راحت تتهاوى المعاني جميعًا، وراح يتّضح كم أنّ «جرح فلسطين» من طبيعة بلاستيكيّة.

وفي تلك المرحلة، أنجزتُ في «السفير»، وهو كان آخر ما فعلته قبل الانتقال إلى «الحياة» وإلى لندن، عددًا من المقابلات والتحقيقات عن النخبة السياسيّة المارونيّة في لبنان، شاركني فيها حسن السبع الذي يجتمع فيه من المزايا ما يصعب اجتماعه في شخص واحد. لقد كان حسن سيّد الطابق الأعلى، طابق الأرشيف، محاطًا بأصدقائه، ليلى حمّود، التي صارت زوجته، وصقر أبو فخر ومحمد سويد وزينب سلمان وحسن يوسف.

وكان حسن كثيرًا ما يقرأ المعلومة في أرشيفه ويقارنها بالتغطية في جريدته، ثمّ يهزّ رأسه ويستعيذ بالعليّ العظيم.

ومن لندن، استمرّ التلصّص على «السفير» وهي تسعى بشقّ النفس لأن تؤلّف معنًى لا يتألّف. فأمورها راحت تتدهور بسرعة فائقة، لا يحدّ منها إلّا مقالات قليلة ولوحات كثيرة لسعد حاجو. وسنة بعد سنة، جعل التضييق يتنامى على كتّابها المغايرين، كعبّاس بيضون وحسام عيتاني، حتى إنّ بعضهم لم يطيقوا البقاء فيها. وصار عليّ أن أبذل جهدًا بالغًا لإقناع من أُخبرهم كم كان طلال رحبًا طوال «انشقاقي» في الثمانينيّات. وفي ظنّي أنّ واحدًا من الأسباب يعود إلى اختلاف السلطة الفلسطينيّة في بيروت، ثمّ ما أعقب عهدها من فوضى واحتراب لترسيم الحصص، عن توطّد السلطة السوريّة وزمنها، فكيف وقد التقى «سيادة العقيد» و «سماحة السيّد» على طلبات واحدة ينبغي أن تُلبّى؟ وشمسطار، في آخر المطاف، ومثلها الحمرا، واقعتان في نطاق لا يتسامح معه المسدّس ولا تتعفّف عنه العبوة. ويبدو، إلى ذلك، أنّ

التمويـل الليبـيّ البعيـد أقـلّ تطلّبًـا مـن مصـادر تمويـل باتـت أقـرب وأكثـر داخليّـة.

لكـنّ التـردّي بلـغ حـدًّا أجـاز التعامـل مـع بهجـت سـليمان بوصفـه مفكّـرًا خطيـرًا، ومـع إيلـي حبيقـة بوصفـه قطبًـا سياسـيًّا، ناهيـك بنعـي ناعسـة الأسـد، والـدة حافـظ، بلغـة تشـبه لغـة كيـم إيـل سـونغ فـي حديثـه عـن أمّـه. ولئـن سبق لحـرب المخيّمـات أن أكّـدت أنّ «جـرح» فلسـطين صنـعُ عمليّـة تجميـل، فـإنّ إصبـع «السـفير» انضمّـت إلـى أصابـع لبنانيّيـن آخريـن فـي اللعـب بــ «جـرح» سـوريا وتوسـيعه.

وأحـدس أنّ أحـد الطـلالات التـي فيـه لا بـدّ اشـمأزّ مـن طـلال الآخـر، ذاك الـذي يتواطـأ مـع أشـرار يرسـلون إلـى سـوريا شـبّانًا مـن شمسـطار وجوارهـا، فيذهبـون قاتليـن ويرجعـون مقتوليـن.

والتـردّي هـذا وازاه تهافـت لـم يمكـن تجنّبـه: ذاك أنّ اسـتحالة رتـق الفجـوة بيـن الـكلام والواقـع، وبيـن بعـض الوقائـع وبعضهـا الآخـر، وبيـن العروبـة وإيـران، أفقـدت المبالغـةَ الدراميّـةَ التـي اشـتُهرت بهـا «السـفير» آخـر الجـدّ الـذي تبقّـى لهـا. وكـم بـدا مضحـكًا، ومحزنًـا أيضًـا، أن تجتمـع فـي سـنوات افتتاحيّـة هوائيّـة لسـعيد عقـل علـى الصفحـة الأولـى وعبـارة لجمـال عبدالناصـر لا يقرأهـا أحـد علـى الصفحـة الأخيـرة. وكانـت «السـفير»، منـذ يومهـا الأوّل، قـد دأبـت علـى أن تنشـر يوميًّـا عبـارة للزعيـم المصـريّ، حتـى غـدت أبـا هريرتـه، هـو الـذي لـم تطـل بـه الحيـاة كـي يقـول كلّ العبـارات المنسـوبة إليـه.

وتلـك أيّـام لا ينفصـل عنهـا تاريخنـا، أفـرادًا وجماعـات، بمـا أحببنـاه منـه ومـا كرهنـاه. أمّـا الذيـن يبحثـون عـن عِبَـر فلـن يفوتهـم أنّ لبنـان الـذي أمعنّـا فـي تمزيقـه لـم يعـد يعنـي الكثيـر لــ «الوطـن العربـيّ»، بينمـا الأخيـر انتهـى نكتـة لـم تعـد تُضحـك أحـدًا فـي لبنـان.

وإقفـال «السـفير»، فـي هـذا المعنـى، إشـارة إلـى زمـن أكبـر سـعينا جميعًـا إلـى إقفالـه. فهـو قـد يقـول شـيئًا عـن اقتصـادات العالـم وصحافاتـه، لكنّـه يقـول أكثـر كثيـرًا عـن جفـاف المـال السياسـيّ، أو بالأحـرى العسـكريّ. وهـو بالطبـع، يتّصـل بالمبيعـات والإعلانـات، لكنّـه أوثـق اتّصـالًا بانهيـار الـرأي العـامّ فـي لبنـان، مـع انهيـار الدولـة الـذي تكتّـم عليـه اتّفـاق الطائـف، لمصلحـة الآراء الخاصّـة الطائفيّـة التـي لا تعوزهـا صحـف.

وإقفـال «السـفير»، كائنًـا مـا كان الحـال، يبقـى حدثًـا محزنًـا، وأيّ إقفـال لأيّ صحيفـة حـدث محـزن. أمّـا الخـلاف السياسـيّ فسـبب آخـر كـي يتمسّـك واحدنـا بالأصـوات التـي يخالفهـا وتخالفـه، مقاومًـا اكتمـال التحـوّل إلـى صحـراء لا تصـدر عنهـا إلّا مونولوغـات متفرّقـة. وإذا صـحّ أنّ الصحافـة اللبنانيّـة، لا سـيّما النضاليّـة منهـا، فعلـت كلّ مـا فـي وسـعها كـي نصـل إلـى هـذه النتيجـة، التـي تدفـع هـي نفسـها ثمنهـا، فالدفـاع عـن لبنـان المتعـدّد يقتضـي الدفـاع عـن صحافتـه وإن رغمًـا عنهـا، ذاك أنّ الإقفـال ليـس العقـاب العـادل لأيّ كان، لا سـيّما أنّـه يطـاول مئـات الصحافيّيـن والمحرّريـن الذيـن سـيُلقَون علـى قارعـة البطالـة. وهـذا فضـلًا عـن كونـه انتصـارًا لصـورة البلـد كمـا أرادتهـا صحافـة تطحـن الوطـن بالقضيّـة، ظانّـةً أنّهـا سـتنجو مـن غـرق مجتمـع دفعتـه، بحسـن نيّـة أو سـوئها، إلـى الغـرق.

أمّـا أنـا، فالقليـل الـذي بـتّ أعرفـه وأُعـرَف بـه إنّمـا ابتـدأ فـي «السـفير» ومعهـا وبفضلهـا. وأوّل إيفـاء الديـن المسـتحقّ المصارحـة بالحقيقـة.

«النهار» وآل تويني

فـي السـتّينيّات والنصـف الأوّل مـن السـبعينيّات، باتـت قـراءة «النهـار» واجبًـا علـى اللبنانـيّ الـذي يقـرأ، بـل امتحانًـا للبنانيّتـه. فهـو إن لـم يفعـل، كان كمَـن لا يحـبّ أغانـي فيـروز أو أدب جبـران خليـل جبـران. لكـنْ، لئـن أمكـن حيـاةَ الأفـراد اليوميّـة أن تسـتغني عـن ذلـك الأدب وتلـك الأغانـي، فالاسـتغناء عـن «النهـار» كان يرسـم لصاحبـه وجـه المغفَّـل والمُفـوَّت.

الجرائـد التـي شـابهتها سياسـيًّا، كـ «الجريـدة» و«الصفـاء»، كانـت تـذوي فـي عالمهـا الحِرَفـيّ القديـم. «الحيـاة» كانـت عربيّـة جـدًّا. «الأنـوار» ناصريّـة جـدًّا. «لسـان الحـال» تصـدر ظهـرًا. «السـفير» لـم تكـن قـد وُلـدت بعـد.

لقـد بـدت هـي الجريـدة بألـف ولام التعريـف. قـد يكرههـا البعـض لكنّـه يقرأهـا، إمّـا لاضطـرار وظيفـيّ أو للتظاهـر بالإلمـام أو ربّمـا للـذّة مازوشـيّة.

«النهـار» خرجـت مـن حـرب ١٩٥٨ الأهليّـة لتواكـب، وإن بالمعارضـة، المشـروع الشـهابيّ. ففـي مـوازاة إنشـاء الإدارة والمـدارس وشـبكات الكهربـاء والطـرق التـي تقـرّب المناطـق واحدتهـا مـن الأخـرى، غـدت جـزءًا مـن هـذا المركـز البيروتـيّ الواحـد، منـه يطيـر ديكهـا الأزرق إلـى الأطـراف التـي «فتحتهـا» الشـهابيّة أمـام الدولـة. إنّهـا، إذًا، اللبننـة التـي اقتصـرت قبـلًا علـى جبـل لبنـان.

المهمّـة كانـت وطنيّـة، بمعنًـى غيـر فولكلـوريّ، وكانـت جدّيّـة، بـل جليلـة، بالنظـر إلـى العلاقـات التـي شـدّت تاريخيًّـا الأطـراف تلـك إلـى سـوريا وفلسـطين. وكان مـا ضاعـف الإلحـاح علـى إنجازهـا أنّ مواجهـة ١٩٥٨ الأهليّـة أضعفـت الصلـة ببيـروت عنـد الطرابلسـيّين والعكّاريّيـن

والبقاعيّين ممّن لم يكن حنينهم إلى دمشق وحمص قد خبا أصلًا. هكذا، بدت إعادة ربطهم بالمركز البيروتيّ شرطًا لجعل الوطن وطنًا، و«النهار» كانت قطعة من الحبل الرابط.

والتجديد كان سمة العصر، عصرذاك: هكذا، غرفت «النهار» من الجامعة اللبنانيّة الحديثة الولادة بعض كوادرها، واعتمدت مراسلين في المناطق النائية التي كان أبناؤها يعيشون أو يموتون بلا صدًى، قبل أن تعتمد مندوبين في العالم العربيّ، ثمّ في كبريات عواصم العالم. ومع كلّ تقدّم في الستّينيّات، كانت «النهار» تتقدّم: أنشأت صفحة رأي كتب فيها الروائيّ اللاحق أمين معلوف والناشر اللاحق رياض نجيب الريّس وسمير عطاالله ووفيق رمضان وفؤاد مطر وإبراهيم سلامة ورفيق معلوف وعبدالكريم أبو النصر والياس الديري وعلي هاشم وآخرون. وهؤلاء جمعوا بين كونهم كتّابًا معلّقين وكونهم محرّرين أو مراسلين في الخارج، فانكسر معهم ذلك الفاصل القديم والبائد بين الكاتب الذي يعمل بعقله والمهنيّ الذي يعمل بيده. ثمّ أنشأت صفحة ثقافيّة كاملة كانت، كصفحة الرأي، الأولى في الصحافة اللبنانيّة، عمل فيها الشاعر شوقي أبي شقرا والمسرحيّ عصام محفوظ والناقد نزيه خاطر وسواهم. وعبرها، ومن خلال سمير نصري، المصريّ المقيم في بيروت، تعرّفتْ أجيال من اللبنانيّين إلى السينما وأحبّتها. أمّا لوحة بيار صادق اليوميّة، الممتدّة على عرض صفحتها الأخيرة، فلم تكن أوّل الكاريكاتور في لبنان، ولا في مصر طبعًا، لكنّها جعلت الرسم أوّل مرّة ينافس الحَرف أو يفوقه أهميّةً وتداولًا. وحين كان يَجِدّ حدث كبير، محليًّا أو عربيًّا أو دوليًّا، كانت تخصّص له ملفًّا، هو كرّاس منفصل عنها وإن حمل اسمها. وبين ١٩٦٤، حين أُسّس ملحق أسبوعيّ شهير رأس تحريره الشاعر أنسي الحاج، أحد شبّان مجلّة «شعر»، و١٩٦٧، حين انبثقت من الجريدة دار نشر تولّاها

الشاعر يوسف الخال، أبرز وجوه «شعر» يومذاك، غدت «النهار» القابض الأبرز على الحياة الثقافيّة في لبنان. وهذا، مجتمِعًا، كان تقدّميًّا بقدر ما كان إمبراطوريًّا.

ويوميًّا، على الصفحة الأولى، كان ميشال أبو جودة ينشر عموده الذي تقول إحدى الروايات أنّ قراءته كانت من أوّل ما يفعله جمال عبدالناصر في الصباح. أمّا خليفته أنور السادات فذهب أبعد، إذ قرأ مقاطع من أحد أعمدة أبو جودة أمام مجلس الشعب فيما كان يستعدّ لزيارة القدس.

وأبو جودة بدأ نجمه يسطع لبنانيًّا بعد تعرّضه لضربة موسى تركت أثرًا واضحًا على خدّه، وذلك لكتابته مقالًا عنونَه «في حمى الأمير»، تعليقًا على اغتيال النائب الشمعونيّ نعيم مغبغب، عام ١٩٥٩، إبّان احتفال كمال جنبلاط برئيس الجمهوريّة الجديد «الأمير» فؤاد شهاب.

لكنّ أبو جودة وسّع الأفق النهاريّ فضمّ إليه اهتمامات عربيّة، صاغها بلغة بسيطة، موجزة ومكثّفة. فهو تنبّه مبكرًا إلى أنّ بيروت مقصد عرب كثيرين هاربين من انقلاباتهم، حاملين إليها حرّيّاتهم التي يمارسونها بصوت مرتفع في مقاهيها، وحاملين رساميلهم التي أودعوها مصارفها، وأنّ في بيروت فلسطينيّين يحلمون بالعودة إلى فلسطين ويخطّطون، فوق الأرض وتحتها، لذلك. وهذا فضلًا عن الجامعة الأميركيّة بأساتذتها ذوي البلدان واللغات والسحنات الكثيرة. والبيئات المذكورة كنوز للخبر والرأي والمعلومة، لكنّها أيضًا طرائق في النظر إلى المسائل، طرائق تُغني الطريقة الواحدة الموروثة والمألوفة لدى اللبنانيّين. وأغلب الظنّ أنّ اغتيال كامل مروّة في ١٩٦٦ وأثره السلبيّ على «الحياة» أناطا بـ «النهار» الأدوار العربيّة التي كانت تؤدّيها جريدة مروّة وفقًا لتقسيم عمل ضمنيّ بين

الصديقيـن مـروّة وتوينـي: لكـم الأولويّـة فـي الشـأن العربـيّ ولنـا الأولويّـة فـي الشـأن اللبنانـيّ.

هكـذا، بـدا لبنـان، مـع «النهـار»، بلـدًا جدّيًّـا، يصنـع نفسـه ولا يطيـق التعبيـر بأنّـه «صنيعـة الاسـتعمار»، تتلاقـى مناطقـه فـي عاصمتـه كمـا تصبّ فيهـا البلـدان المجـاورة التـي اسـتولى عليهـا العسـكر. فـوق ذلـك، وفيمـا كانـت الفئـات الوسـطى تتوسّـع ويتوسّـع معهـا البيـع والشـراء والاسـتيراد والاسـتهلاك، لاح البلـد سـوقًا شـبه مكتفيـة بذاتهـا وبدورتهـا التجاريّـة وعائدهـا الإعلانـيّ.

الـولادة الإسـميّة تعـود إلـى ١٩٣٣. حينـذاك، فـي ظـلّ الانتداب الفرنسـيّ، كان الطلـب كبيـرًا علـى الصحـف والأحـزاب والنقابـات، تلـك الأدوات التـي علّمهـا الاسـتعمار لمُسـتَعْمَريه فغـدت أدواتهـم فـي الاسـتقلال عنه. وكان الطلـب كبيـرًا أيضًـا علـى الطوائـف، مِللنـا ونِحلنـا التـي تحدّثـت وترسـلمت وصـارت، بعـد مجـيء الاسـتعمار، مؤسّسـات و«طوائـف».

والمسـيحيّون مـن الـروم الأرثوذكـس لـم يتلـكّأوا: ففـي الثلاثينيّـات والأربعينيّـات، عصـف بهـم حـراك هاجسـه الحـدّ مـن وطـأة الثنائيّـة المارونيّـة ـ السـنّيّة، والمشـاركة فـي تأثيـث البيـت اللبنانـيّ الجديـد: فـي ١٩٣٢، أنشـأ أنطـون سـعادة الحـزب السـوريّ القومـيّ بعمـود فقـريّ أرثوذكسـيّ وقاعـدة أرثوذكسـيّة غالبـة. فـي ١٩٣٣، كانـت «النهـار». فـي ١٩٣٩، أسّـس ناصيـف مجدلانـي «منظّمـة الغساسـنة» التـي أحياهـا قريبـه نسـيم مجدلانـي. فـي ١٩٤٤، أطلـق جـورج خضـر وألبيـر لحّـام «حركـة الشـبيبة الأرثوذكسـيّة». شـيوعيّو سـتالين كانـوا هنـاك أيضًـا، فـي المزرعـة ببيـروت والمينـا بطرابلـس وفـي الكـورة شـمالًا. أمّـا التقاطـع والازدواج فوُجِـدا كذلـك: جبـران توينـي، مثـلًا، انضـمّ إلـى «الغساسـنة». جـورج خضـر انتسـب إلـى السـوريّ القومـيّ... الأيديولوجيّـات القوميّـة، العروبـيّ منهـا والسـوريّ واللبنانـيّ، وكذلـك اليمينـيّ واليسـاريّ، لـم تكـن

هــي الموضــوع إلّا اســتطرادًا. الموضــوع، مُــدرَكًا أم غيــر مُــدرَك، كان الطائفـة وتعزيـز حضورهـا وزيـادة حصّتهـا فـي الدولـة والإدارة.

لكـنّ ولادة «النهـار» الفعليّـة حصلـت مـع حصـول لبنـان وتبلـوره شـهابيًّا. والحـال أنّ البلـد، كمـا صيـغ بعـد ١٩٥٨، كانـت تلـك الجريـدة مرآتـه الأدقّ، وهـي ظلّـت عقـودًا هكـذا: مدوَّنـة صعـوده، قبـل أن تنقلـب ورقـة نعيـه.

غسّـان توينـي، نجـل المؤسّـس جبـران والعائـد خرّيجًـا مـن هارفـرد، كان رمـز المشـروع وبطلـه. حبّـه للتجديـد وللمغامـرة وديناميّتـه ويقظتـه الحـادّة علـى الحـدث والطـارئ كانـت تدفعـه فـي الاتّجـاه هـذا.

بيـد أنّ العوامـل التـي تكبـح مشـروعه وتمتـصّ مضمونـه، أو تخفّفـه، كانـت لا تقـلّ قـوّةً.

ذاك أنّ توينــي لــم يُخــفِ عزمــه المبكــر علــى الانضمــام إلــى نــادي السياسـيّين التقليديّيـن. كان يـرى أنّ النجوميّـة الإعلاميّـة لا تكتمـل بغيـر النجوميّـة السياسـيّة، وكان يتوهّـم، بقـدر بـادٍ مـن الاعتـداد الـذي يصنعـه الوهـم، أنّ فـي وسـعه تحديـث سياسـة التقليديّيـن بصيرورتـه هـو نفسـه تقليديًّـا. أمّـا تجاربـه فـي الحكـم، وفـي السـعي إليـه، فحوّلتـه إلـى التقليـديّ الـذي أراد أن يكونـه مـن دون أن تُنتـج تحديثًـا يُذكـر.

فـي ١٩٥١، صـار نائبًـا، وكذلـك فـي ١٩٥٣، وفـي ١٩٥٧ غـدا نائبًـا لرئيـس المجلـس. وهـو وُزّر فـي ١٩٧٠ ثـمّ وُزّر فـي ١٩٧٥، وبيـن التاريخيـن خـاض انتخابـات ١٩٧٢ عـن عاليـه. وأخيـرًا، وبعـد طـول انقطـاع، عـاد، عـام ٢٠٠٦، إلـى البرلمـان ليحتـلّ المقعـد الـذي شـغر باغتيـال نجلـه جبـران. وإلـى النيابـة، عمـل فـي ١٩٦٧ سـفيرًا فـي الولايـات المتّحدة، ثـمّ، بيـن ١٩٧٧ و١٩٨٢، مندوبًـا فـي الأمـم المتّحـدة.

هــوس السياســيّ قــاده إلــى دماثــة مبالــغ فيهــا حيــال «الأقطــاب»

السياسـيّين، لا سـيّما الموارنـة منهـم، الذيـن يصـدر عنهـم رئيـس الجمهوريّـة، ثـمّ السـنّة الذيـن يأتـي مـن صفوفهـم رئيـس الحكومـة. فمعارضـة مـن عارضهـم، كبشـارة الخـوري أو فـؤاد شـهاب أو رشـيد كرامـي أو سـليمان فرنجيّـة، تسـتدعي بالضـرورة الاتّـكاء علـى كميـل شـمعون أو ريمـون إدّه أو صائـب سـلام، ومعهـم لاحقًـا موسـى الصـدر. هـؤلاء وحدهـم حجـارة البيـت، مـن دونهـم ينهـار علـى رؤوسـنا جميعًـا.

والسـلوك هـذا عبّـر عـن الطـور الجديـد للحساسـيّة الأقلّيّة والأرثوذكسـيّة، طـورِ مـا بعـد الاسـتقلال والاسـتقرار النسـبيّ فـي علاقـات الطوائـف وترسـيم حصصهـا، وتاليًـا الإقـرار بهـذا الترسـيم. فالرجـل الأوّل مارونـيّ حكمًـا، والثانـي سـنّيّ، والآخـرون سـادس وسـابع... أمّـا الأرثوذكسـيّ البارع والعـارف فمَـن ينجـح فـي تسـليك أرثوذكسـيّته وحساسـيّاتها وسـط تلـك الأدغـال، بحيـث يغـدو ضـرورةً قصـوى للمارونـيّ الأوّل أو للسـنّيّ الثانـي.

وتوينـي لـم يُنكـر مـرّةً الحساسـيّة هـذه. فهـو حيـن تحـدّث عـن الثلاثـة الأشـدّ تأثيـرًا فيـه، ذكـر والـده جبـران وأنطـون سـعادة وشـارل مالـك ممّـن لا يجمـع بينهـم إلّا مذهبهـم الأرثوذكسـيّ. كامـل مـروّة (غيـر الأرثوذكسـيّ)، الـذي كان يكبـره بـ١١ عامًـا، لـم يُذكـر فـي هـذا السـياق، مـع أنّ تأثيـره فيـه كان حاسـمًا كمـا يجـزم عارفـو الاثنيـن.

الاشـتغال فـي العمـل النيابـيّ، الطائفـيّ تعريفًـا، لـم يفعـل سـوى توطيـد هـذا الارتبـاط. هكـذا، كان لا بـدّ مـن صـلات وثيقـة بـ «سـيّدنا المطـران» وبـ «مفاتيـح» الطائفـة التـي أهداهـا توينـي أسـهمًا فـي «النهـار»، وإن احتفـظ لنفسـه وعائلتـه بقـرار هـذه الأسـهم والتصويـت عنهـا.

وفضـلًا عـن مصاهـرة لاحقـة بيـن «عائلتيـن سياسـيّتين أرثوذكسـيتيّن»، مثّلهـا زواج نجـل غسّـان توينـي وكريمـة ميشـال المـرّ، احتـلّ توينـي مواقـع أساسـيّة فـي مؤسّسـات «النظـام» الطائفـيّ المـوازي. ففـي ١٩٨٨، تـرأّس لجنـة متحـف سرسـق، كمـا تـرأّس، بيـن ١٩٩٠ و١٩٩٣، جامعـة

البلمند. وظلّت الافتتاحيّة الأسبوعيّة لمطران جبل لبنان الأرثوذكسيّ، جورج خضر، من معالم الجريدة وثوابتها.

وإذ استوطنت الطائفيّةُ الهواءَ اللبنانيّ، فوُجد مسيحيّون يأخذون على أبناء طوائفهم العروبيّين أنّهم صاروا «مثل المسلمين»، وُجِد مسلمون يرون في «النهار» مصنعًا قد يدخله القلائل من أبناء طوائفهم لكنّهم يخرجون منه مسيحيّين. أمّا الأوصاف هذه فكانت تستهدف السلوك والمظهر الخارجيّ ومدى استدخال الكلمات الأجنبيّة في الكلام، فضلًا عن القناعات السياسيّة طبعًا.

لكنّ الحدثين الصارخين في هذا السجلّ، وهما يتجاوزان التكهّن، فشهد عليهما عام ١٩٧٢: فقد انضمّ تويني إلى قادة الطائفة ورموزها في اعتراضهم على انتخاب نجاح واكيم نائبًا عن أرثوذكس الدائرة الثالثة في بيروت، ذاك أنّ واكيم ناصريّ آتٍ من خارج النادي المغلق الذي ينبغي أن يبقى مغلقًا وحصريًّا للأرثوذكس الأقحاح! لكنّ تويني خاض عامذاك معركة عاليه في لائحة واجهت لائحة القطبين الدرزيّين كمال جنبلاط ومجيد إرسلان، معبودَي طائفتهما. شبّان حَمْلَتِه وشابّاتها لبسوا قمصانًا مصنوعة خصّيصًا للمناسبة، كما وزّعوا أغنية عن «ترشّح غسّان | عمْحافظْتك يا لبنان». وهذه كانت تقنيّات في الحملات الانتخابيّة غير مألوفة يومذاك، فبدوا بسببها «حديثين» و«عصريّين»، كما يحبّهم تويني، يهاجمون «الإقطاع» و«التقليديّين». لكنّ المعركة أحدثت استقطابًا مسيحيًّا ـ درزيًّا بالغ الحدّة، رآه البعض لاحقًا مصدرًا بعيدًا من مصادر حرب الجبل في الثمانينيّات: أكثريّة الدروز الساحقة اعتبرت أنّ اللائحة التي ضمّت صاحب «النهار» مسيحيّةٌ جدًّا لا تمثّل الدروز. أمّا السؤال الذي لم يُسأل فكان التالي: لماذا ينبغي أن يحظى أرثوذكس بيروت بتمثيل يختارونه هم، وأن يُكتب لدروز عاليه تمثيل يختاره سواهم؟

وكان مـن المسـتحيل، ومـن غيـر المرغـوب فيـه أصـلًا، ألّا ينعكـس علـى «النهـار» هـذا القـران بيـن الأرثوذكسـيّة العميقـة والضعـف حيـال الزعامـة السياسـيّة، بشـروطها المتدنّيـة المعروفـة فـي لبنـان. المظهـر الأبـرز لـذاك القـران كان المحافظـة الشـديدة، ذاك أنّ «السياسـة»، كمـا درّجتهـا «النهـار»، هـي، بالضبـط، السياسـة اللبنانيّـة المعمـول بهـا. إنّهـا المعيـار الـذي تُقـاس بـه المعاييـر، والممارسـة التـي لا ممارسـة سياسـيّة غيرهـا. حتـى ألقـاب الزعمـاء، الرسـميّة منهـا (فخامـة، معالـي...) والأهليّة (بيـك، أفنـدي، شـيخ إلـخ...)، والمبالغـة فـي احتـرام المراتـب وتوزيـع الشـهادات الميّتـة عـن «الكبـار» و«القامـات» و«العمالقـة»، هـي ممّـا طبّقتـه مقـالات «النهـار» تطبيـق طالـب لكتـاب تعاليـم. صحيـح أنّ الطائفيّـة ظلّـت «داءً» يُنـدَّد بـه، ويُدعـى إلـى تجـاوزه، فـي المقـالات وفـي محاضـرات «النـدوة اللبنانيّـة» التـي شـارك فيهـا تويـنـي، إلّا أنّ رمـوز الطوائـف، الزمنيّيـن والروحيّيـن، أحيطـوا بالاحتـرام والتنزيـه. إذًا، كان الشـعار الضمنـيّ: كلّ اللعنـة علـى الطائفيّـة وكلّ الاحتـرام للطائفيّيـن.

أمّـا «الفضائـح» التـي كانـت تكشـفها الجريـدة، فـي بلـد يُعَـدّ سياسـيّوه البطـن الأخصـب لفضائحـه، فلـم يكـن يرتكبهـا أحـد. لقـد ظـلّ القـدر أنشـط مَـن يرتكـب الفضيحـة، لا تنافسـه فـي ذلـك إلّا المصادفـة...

وفـي هـذا التسـليم بمنطـق السياسـة اللبنانيّـة، والعجـز عـن تطعيمهـا بمعـانٍ أرقـى، أو اتّسـاعها لفئـات ونُخـب جديـدة، مارسـت «النهـار» تسـحيرًا للسياسـة لا ينزّههـا عـن العقـل التآمـريّ المتفشّـي فـي عمـوم المنطقـة. ففضـلًا عـن «المصـادر العليمـة» و «الأسـرار» و«أسـرار الآلهة»، هنـاك الوليمـة التـي يولمهـا سياسـيّ لسياسـيّ فتصيـر حدثًـا وخبـرًا، وهنـاك «الصالونـان» النهاريّـان لتوينـي وأبـو جـودة، حيـث يخضـع الشـأن العـامّ لتـداول السياسـيّين الكبـار، و«تُطبـخ» سياسـات ومواقـف بعيـدًا مـن «العامّـة».

وهـذا مـا بـدأ يعـرّض اللبنانيّـة النهاريّـة، المقـدودة بالتمـام علـى قـدّ لبنـان الصيغـة والميثـاق، لاهتـزازٍ مـا لبثـت السـنوات التاليـة أن فاقمتـه. فالحـرب حيـن وقعـت كانـت، وفقًـا لتسـمية غسّـان توينـي، «حـرب الآخريـن علـى أرضنـا»، ذاك أنّ بلـد الصيغـة والميثـاق منسـجم انسـجام الجنّـة، قـد يسـتهلك التناقـض إلّا أنّـه لا ينتجـه، وقـد يسـتورده مـن الخـارج، لكنّـه لا يصـدّر لهـذا الخـارج إلّا «مـا يُدهـش العالـم».

لبنـان البسـيط والمبسّـط هـذا، والـذي شـرع يتداعـى فـي الروايـة الرحبانيّـة عـن القريـة، هـو نفسـه مـا راح يتداعـى فـي «النهـار».

بدأ ذلك مع انطلاق القذيفة الأولى في ١٩٧٥.

لكـنّ «النهـار» ليسـت هـذا فحسـب. ففـي شـبابه، انتمـى غسّـان توينـي إلـى الحـزب السـوريّ القومـيّ، وتبـادل بضـع رسـائل مـع أنطـون سـعادة قبـل أن يطـرده الأخيـر الـذي لـم يحتمـل أدنـى «انحـراف» عـن جـادّة صوابـه. وتـردّد، بعـد ذلـك، أنّـه عـاد إلـى الحـزب ليطـرده ثانيـة جـورج عبـد المسـيح، تلميـذ «الزعيـم» ومقلّـده.

كائنًـا مـا كان الحـال، احتفـظ توينـي «الليبرالـيّ» بإعجـاب منقطـع النظير بـ «الزعيـم»، وبقـي بعـض القوميّيـن السـوريّين أقـرب أصدقائـه إليـه. فـوق هـذا، ظـلّ فـي لحظاتـه الحميمـة أسـير تثبّـتٍ لا يمـلّ علـى أخبـار ووقائـع أصابهـا الصـدأ عـن عبـد المسـيح وسـعيد تقـيّ الديـن وغسّـان جديـد يخترقهـم أحيانًـا اسـم هايدغـر...

هـذه العلاقـة عرفـت ذروتهـا خـلال ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢، أي مـا بيـن التحالـف القومـيّ السـوريّ ـ الشـمعونيّ، الـذي أدرج الطـرف الأوّل فـي متـن «الانعزاليّـة المسـيحيّة»، وسـحق فـؤاد شـهاب، محاولـةً انقلابيّـة مسـرحيّة نفّذهـا القوميّـون. أمّـا الجامـع يومـذاك، فـكان العـداء للطغيـان الناصـريّ الـذي يقتـرب مـن سـوريا ويُرعـب، فـي مـن يُرعـب، مسـيحيّي لبنـان.

القوميّون الذين اغتالوا الضابط عدنان المالكي في دمشق تعرّضوا لعمليّة استئصال لا رحمة فيها، ألجأت بعض رفقائهم إلى بيروت الشمعونيّة. وحين اندلعت مجابهة ١٩٥٨، وجدوا أنفسهم، إلى جانب الكتائب، يقاتلون في الخندق نفسه.

في هذا السياق، بدا التشديد القوميّ على العَلمانيّة ملائمًا لـ «النهار». فهو يميّزها من الطائفيّة الصريحة للأحزاب الطائفيّة المسيحيّة، أي المارونيّة، لا سيّما الكتائب الذي ظلّ طويلًا يستنفر في تويني أرثوذكسيّته وما استبقاه من قوميّته السوريّة. لكنّ هذه العلمانيّة تُبقي «النهار» في معسكر مسيحيّ عريض يناهض عبدالناصر الذي لاح حفيدًا للسلطان سليم الأوّل، يتقدّم نحونا، هذه المرّة، لا من الشمال الشرقيّ بل من الجنوب الغربيّ. أبعد من ذلك، أنّ الحزب القوميّ، «العَلمانيّ»، أنشط الأدوات التنظيميّة لطائفة الروم الأرثوذكس، والأشدّ استقبالًا لشبّانهم وناشطيهم الباحثين عن مكان لهم على هامش الثنائيّة المارونيّة ـ السنّيّة. يومذاك، درج القول الساخر: العلمانيّة اسم حركيّ للأرثوذكسيّة. علمانيّة «النهار» كانت مثلًا حيًّا على ذلك.

ومبكرًا، ظهرت آثار هذا التقاطع في الحيّز الثقافيّ، لا السياسيّ فحسب. ففي ١٩٥٧، تشكّلت في بيروت مجموعة «شعر» التي كان أشدَّها ديناميّةً مثقّفون سوريّون ولبنانيّون، مسيحيّون وعلويّون، قوميّون سوريّون ونهاريّون. هؤلاء عارضوا القَدامة الشعريّة بقدر معارضتهم الدعوات العروبيّة والوحدويّة التي تهبّ من دمشق والقاهرة وتجد حاضنها البيروتيّ في مجلّة «الآداب».

لكنّ محنة القوميّين في لبنان، عام ١٩٦٢، والتي أفقدت الطائفة الأرثوذكسيّة حزبها الأوّل، ربّما شكّلت بدايات ما بات يُعرف لاحقًا بـ «الطائفة المسيحيّة» العابرة للمذاهب. فالمسيحيّون

غير الموارنة بدأوا يلتحقون التحاقًا مباشرًا بالأحزاب والزعامات المارونيّة، وهي وجهة عزّزتها حرب السنتين في السبعينيّات قبل أن تكرّسها حرب الجبل في الثمانينيّات. وبدورها، صارت «النهار» الصوت الأبرز لمعارضة يقودها كميل شمعون، الزعيم المحبّذ دائمًا عند تويني، وريمون إدّه، المحبّب دائمًا لديه. تلك المعارضة وجدت تتويجها في انتخابات ١٩٦٨، حين نجح المذكوران في جذب بيار الجميّل إليهما وتشكيل «الحلف الثلاثيّ» الذي أطاح الشهابيّة.

أمّا القوميّون الذين كانوا لا يزالون في السجون، فتولّت «النهار» نشر مقالاتهم ذات الطابع الخطابيّ، والتي حملت أسماء مستعارة كسبع بولس حميدان لأسد الأشقر، وقيس الجردي لإنعام رعد، وعبدالله فرح لعبدالله سعادة. بهذا، دفعت آخر ديونها لأنطون سعادة وتابعيه الذين باتوا مُحرجِين لها. فهؤلاء الذين دخلوا السجن «يمينيّين» وحلفاء للهاشميّين، ما لبثوا، بعد تسوية عقدوها مع الأجهزة الشهابيّة، أن خرجوا منه «يساريّين». وحين تراخت قبضة الدولة الشهابيّة بعد حين، احتلّ عندهم ياسر عرفات وحافظ الأسد الموقع الذي كان يحتلّه كميل شمعون والملك حسين. أمّا «النهار» التي اعتصمت بلبنانيّتها الصارمة، وكانت الأرثوذكسيّة بدأت تندمج في مسيحيّة عريضة، فانقطع بينها وبينهم حبل السرّة. مع هذا، ظلّت صفحات الجريدة تستقبل أسماء قوميّة، وتتّسع لمحرّرين قوميّين، بنسبة تفوق كثيرًا نسبة باقي الأحزاب فيها، وبقي غسّان تويني يؤكّد أنّ الفرق بين الحزب القوميّ في زمن أنطون سعادة وبينه اليوم كالفرق «بين الأرض والسماء».

الأرثوذكسيّة العميقة وهوس السياسة الانتخابيّة وتأثير القوميّة السوريّة أنشأت تكوينًا غريبًا وبالغ التفاوت. فهي جعلت وظائف

«النهـار» مزدوجـة بقـدر مـا جعلـت وطنيّتهـا اللبنانيّـة المؤكّـدة ذات نصـل مثلـوم.

فـي سياسـتها الوطنيّـة العامّـة، مثّلـت «النهـار» دائمًـا حصنًـا مـن الحصـون القليلـة، والمتضائلـة، التـي تدافـع عـن لبنـان. فهـي لـم تهـرق مـاء وجههـا، لا أمـام «بندقيّـة المقاومـة» فـي السـتّينيّات والسـبعينيّات، ولا أمـام «بطـل تشـرين» فـي السـبعينيّات والثمانينيّـات والعقـود التـي تلـت. صحيـح أنّهـا، فـي مواجهـة غابة السـلاح وضمـور القانـون، اعتمدت التقيّـة أحيانًـا كثيـرة، وغالبًـا مـا عوّلـت علـى الفولكلـور والنوسـتالجيا اللبنانيّيـن فبـدت كمـن يطلـب الحمايـة مـن الجثـث. لكـنّ خطـف ميشـال أبـو جـودة إلـى سـوريا فـي ١٩٧٣، وهـو أبـرز معلّقيهـا وأحـد رئيسَـي تحريرهـا، والـذي نـمّ مبكـرًا عـن خـوف النظـام السـوريّ مـن الحرّيـات الإعلاميّـة فـي جـواره، كان اعترافًـا بأنّهـا المنبـر الأكثـر تجسـيدًا لتلـك الحرّيـات وللوطنيّـة التـي تنهـض عليهـا.

بيـد أنّ الوطنيّـة تلـك، وعمـلًا بتقديـس «النهـار» للسياسـة اللبنانيّـة المعمـول بهـا وبأمْثلَتهـا، ظلّـت ذات مضمـون رجعـيّ. فهـي ديمقراطيّـة فـي مواجهـة التجـاوز الشـهابيّ علـى الديمقراطيّـة المدعـوم بالتوسّـعيّة الناصريّـة، لكنّهـا حليفـة قـوى غيـر ديمقراطيّـة تعـارض الميـل الشـهابيّ إلـى بنـاء دولـة واحـدة. وهي علمانيّـة، شـريطة ألّا تتّجـه شَـفْرَة علمانيّتها صـوب رجـال الديـن، لا سـيّما الأرثوذكـس منهـم. وحينمـا انفجـرت الحرب اليوغوسـلافيّة فـي التسـعينيّات، شـكّلت «النهـار» جبهـة فرعيّـة للصـرب الأرثوذكـس، ودانـت أميـركا التـي تدعـم المسـلمين، مسـتعيدةً العـدّة إيّاهـا عـن مسـيحيّي الشـرق والمطامـح الإمبرياليّـة لليانكـي. و«النهـار» ليبراليّـة، إلّا أنّهـا فـي هـذا، كمـا فـي حالـة ريمـون إدّه، أغراهـا الدفـاع عـن حكـم الإعـدام وعـن السـرّيّة المصرفيّـة، ونطـق بلسـانها الاقتصـاديّ مـروان اسـكندر، أبـرز الاقتصاديّيـن النيوليبراليّيـن فـي لبنـان. حتـى

الوطنيّة اللبنانيّة نفسها كانت عندها من طينة قوميّة لا تتورّع عن معاملة اللبنانيّة بوصفها مرتبة أكثر منها جنسيّةً، ولا تخفي روابطها الوثيقة مع «الإمبراطوريّة» اللبنانيّة في المَهاجر ومع «النوابغ» الذين لا يكفّون عن التوالد هناك. وربّما كان ذا دلالة رمزيّة بعيدة على هذا الهوى القوميّ في الوطنيّة اللبنانيّة أنّ لويس الحاج، الذي علّم غسّان تويني الكتابة، وكان الحِرفيّ الرفيع الذي درّب أجيالًا من النهاريّين، كان مترجم «كفاحي» إلى العربيّة. حينذاك، في ١٩٦٣، كان حزب البعث يصل، أوّل مرّة، إلى السلطة في بغداد ففتحت سوق العراق الضخمة ذراعيها لكتاب هتلر الذي أعطى كتب ميشال عفلق أنيابًا تفتقر إليها.

ولم تقتصر اللبنانيّة النهاريّة على المواقف. الحياة الداخليّة للجريدة صُنعت أيضًا على مثالها. ففي مقابل الفرد الذي تحمله الكفاءة إلى حيث هو، هناك ثلاثة تجيء بهم الزبائنية العائلية أو الطائفية. وليس من غير معنًى نشوء ما يسمّيه بعض النهاريّين «قبائل النهار». فإلى غسان، تولّى إخوته، سامي وفؤاد ووليد، الإدارة الماليّة وشركة التوزيع والمطابع، ثمّ تولّى أبناؤهم هذه المسؤوليّات. وإلى لويس الحاج، عمل في الجريدة نجلاه أنسي وعدلي، كما عمل جهاد أبو جودة، شقيق ميشال. وبعدما تولّى لويس الحاج وميشال أبو جودة رئاسة التحرير، عُهد بها، في ١٩٩٢، إلى أنسي لويس الحاج، قبل أن تنتقل، في ٢٠٠٠، إلى جبران غسّان تويني، ومن بعده إلى ابنته نايلة. أما الوزير الحاليّ مروان حمادة، شقيق زوجة غسّان، الشاعرة ناديا تويني، فهو رئيس مجلس إدارة «النهار» ثم عضوٌ فيه.

ولأنّ غسّان يريد نفسه وجهًا سياسيًّا، فهذا ما أسّس أعرافًا في الجريدة: فهو حين يخوض انتخابات، كما في ١٩٧٢، تُعبّأ «النهار»

والعاملـون فيهـا لحملتـه. وهـو حيـن يُجـري مقابلـة مـع سياسـي، تُنشـر صورتـه مـع مُحـاوره، مـا يُحـرم منـه أيّ صحافـيّ آخـر فـي الجريـدة يقابـل سياسـيًّا.

وفـي «النهـار»، اسـتعرضت المراتبيّـة والطقـوس السـلكيّة نفسـها بتوسّـع. هكـذا، تبـدّى مراسـلو المناطـق الأبعـد شـغّيلة عنـد خواجـات أبنـاء المدينـة. وكان لــ «سـيّدات المجتمـع»، أي بنـات السياسـيّين وزوجاتهـم، موقـع محفـوظ تصدّرتـه الافتتاحيّـات الغاضبـة لعليـاء ريـاض الصلـح.

ودائمًـا، مثّـل المَلْبَـسُ والمظهـر الخارجـيّ، عنصـر تعييـن حـادّ للمكانـة. فربطـات العنـق، مثـلًا، تُشـاهَد فـي «النهـار» كمـا تُشـاهد فـي البنـوك والشـركات، لا فـي الصحـف. أمّـا البيئـة الجغرافيّـة الحاضنـة للملابـس والعلاقـات فـلا تتكتّـم علـى هويّـة طبقيّـة صارخـة: ذاك أنّ «النهـار» لا تقيـم إلّا فـي الشـوارع والمناطـق ذات الأمتـار المربعـة الأعلـى سـعرًا، كالحمـرا والوسـط التجـاريّ، فيمـا يقيـم تحتهـا مطعـم، قد يكـون البرمكي أو الـدي تـي، مـن أغلـى مطاعـم بيـروت. والحـال أنّ المطعـم والفنـدق، فضـلًا عـن الملبـس، يحتـلّان موقعًـا معتبـرًا فـي «التقاليـد» النهاريّـة، مـع مـا يرتّبـه ذلـك مـن إنفـاق، عُـرف بـه غسّـان ونجلـه جبـران، يشـبه بـذخ رجـال الأعمـال أو ملّاكـي الأراضـي أكثـر ممـا يشـبه إنفـاق الصحافيّيـن.

ولئـن اتّسـعت «النهـار» لصحافيّـات كثيـرات، عملـن محقّقـات ومخبـرات ومعلّقـات فـي الصفحـة الثقافيّـة أو صفحـة الـرأي، فـإن أيًّـا منهـنّ لـم تحتـلّ موقعًـا قياديًّـا أو تقريريًّـا فـي الجريـدة التـي شـاركت سـائر زميلاتهـا فـي طغيـان الطابـع الذكـوريّ. أمّـا نايلـة توينـي وأختهـا ميشـيل فتندرجـان فـي خانـة قرابيّـة وتخضعـان بالتالـي إلـى حسـاب آخـر.

إلـى ذلـك، ظـلّ الشـكل سـيّد «النهـار». فهـي اعتنـت بالمهنـة، بمعناهـا التقنـيّ، علـى نحـو غيـر مسـبوق أو ملحـوق فـي الصحافـة اللبنانيّـة، بـل العربيّـة. وقـد عرفـت «معلّميـن» للصنعـة وشـيوخ حرفـة يدرّبـون

ويمهّنـون الشـبّان والشـابّات، كان أبرزهـم فرانسـوا عقـل، سـليل عائلـة الصحافيّيــن التــي امتلكــت مبكــرًا صحيفــة «البيــرق»، وإميــل داغــر، فضـلًا عـن لويـس الحـاج. بيـد أن كثيـرًا مـن الجهـد صُـرف علـى رقابـة لغويّـة ميّتـة دفعـت شـوقي أبـي شـقرا، حيـن تسـلّم مسـؤوليّة الصفحـة الثقافيّـة، إلـى «تصحيـح» نـصّ للجاحـظ فاتَـهُ أنّ كاتبـه كبيـر العباسـيّين.

وهـذا الولـع بالشـكليّ، كامتـداد تعبيـريّ لشـكليّة التصـوّر النهـاريّ، مرفقًـا بالأمانـة للمهنـة، إنّمـا لبّـى همّيـن نهاريّيـن: فهـو أعلـن الانتسـاب إلـى تقليـد فـي الكتابـة مصـدره «النهضـة» اللبنانيّـة والمسـيحيّة فـي جبـل لبنـان، كمـا فـرز الكتابـة عمـا روّجـه طغيـان الصحافـة المصريّـة فـي الصياغـة والخبـر. وهـذان، تعريفًـا، همّـان أيديولوجيّـان، غيـر أنّهمـا يجعـلان اللغـة، وهـي رحبـة دائمًـا، سـجنًا تحرسـه قواعـد مقدّسـة وعيـن بوليسـيّة.

ومدرسـة «النهـار» تبقـى أكثـر تأدّبًـا ممّـا يسـتدعي النقـد. فهـي، مثـلًا، وعمـلًا بأبرشـيّة قرويّـة «قصيـرة اللسـان»، درّجـت عـدم انتقـاد صحيفـةٍ صحيفـةً زميلـة، ووسّـعت نطـاق «الشـخصيّ» الـذي لا يجـوز تناولـه، فشـمل ثـروات وتصرّفـات مصدرهـا عـامّ وسياسـيّ يتعـدّى «الشـخصيّ». أمّـا المقـدّس فينبغـي احترامـه دائمًـا، واسـتعارة مصطلحـات المـدارس الدينيّـة فـي وصفـه وعرضـه.

بيـد أنّ الشـكل يذهـب أبعـد: فالمقـالات الذكيّـة والرشـيقة لميشـال أبـو جـودة لـم يحالفهـا تعقيـد الواقـع دائمًـا، وكان يتبـدّى أحيانًـا أنّ عبارتهـا القصيـرة تبسّـط المعقّـد وتقصّـره. وعمومًـا، درجـت كتابـات كثيـرة فـي «النهـار»، بسـبب جاذبيّـة لبنـان وريفـه عليهـا، علـى محاكمـة العالـم مدفوعـة بتلـك الجاذبيّـة التـي تريّفـه. هكـذا، مثـلًا، تنشـطر «مواقـف واشـنطن» «رِجـلًا فـي البـور ورِجـلًا فـي الفلاحـة»، أو توصـف سياسـات دوليّـة متقلّبـة بــ «الهبّـة السـاخنة والهبّـة البـاردة». وإذ تناولـت ملفّـات

«النهـار» القضايـا الدوليّـة للسـتّينيّات، فقـد جـاء معظمهـا، خصوصًـا مـا يغطّـي الحـركات اليسـاريّة وتفاصيلهـا، أقـرب إلـى المشـاهدة البرّانيـة التـي لا تربطهـا إلفـة بمـا تتنـاول. ولئـن تميّـز كاريكاتـور بيـار صـادق بنظافـة الصـورة ومـا يقـارب المطابقـة الفوتوغرافيّـة بينهـا وبيـن صاحبها، فقـد اكتفـت الميـزة المتقادمـة هـذه بعالـم السياسـيّين اللبنانيّيـن ومـا يـدور فيـه، حائلـةً دون الانتبـاه إلـى قـوى ومشـاكل أخـرى. ومـن خـلال الطربـوش أو اللبّـادة أو المشّـاية أو اللهجـة المناطقيّـة ـ الطائفيّـة، نُمّـط السياسـيّون ونُمّطـت طوائفهـم ومناطقهـم علـى نحـو لا يتغيّـر.

أمّـا الجهـد اللامـع الـذي بذلـه سـمير نصـري لتعليمنـا السـينما، فغلـب فيـه التعريـف غلبـة شـبه مطلقـة علـى التحليـل. لقـد كتـب سـمير نصوصًـا جميلـة وحيّـة علـى هوامـش الأفـلام، إلّا أنّـه نـادرًا مـا غـاص فـي الأفـلام ذاتهـا، وأنـدرُ مـن ذلـك إدراجهـا فـي سـياقات اجتماعيّـة أو بسـيكولوجيّة أعـرض.

ولـم تبـرأ صفحـة الثقافـة النهاريّـة مـن آثـار اللبنانيّـة المعهـودة. هكـذا، اسـتوطنتها المناسـبات الاجتماعيّـة ولياقاتهـا حيـال سـيّدات الصالـون وأبنـاء الـذوات ورجـال الديـن حيـن يكتبـون أو يصـدرون كتبًـا. والأمـر ذاتـه يصـحّ فـي المناسـبات والمهرجانـات السـياحيّة، أو الأدب الحِرفـيّ والزجلـيّ الـذي لا تـزال تنتجـه القريـة فـي «متصرفيّـة» جبـل لبنـان. وكثيـرًا مـا نابـت الأوصـاف البسـيطة والمعانـي الإيجابيّـة التـي يُظـنّ أنّهـا ذات حمولـة إبداعيّـة (حلـو، مشـرقط، لمعـة...) عـن تعقيـد الموصـوف. أمّـا البطـل المضـادّ، مثلـه مثـل البشـع والمقـرف والكسـول والمريـض والمجنـون، فـكادت الثقافـة النهاريّـة تنفيهـم مـن فردوسـها.

وربّمـا كان «الملحـق»، الـذي توقّـف إصـداره منتصـف السـبعينيّات، درّة تـاج «النهـار» المثقّفـة. فهـو اتّسـع لأصـوات شـابّة ووفّـر لوافديـن جـدد منبـرًا لـم يتوفّـر قبـلًا. لكـنّ مقـالات رئيـس تحريـره أنسـي الحـاج التـي

عُرفت بعنوانها الجامع «كلمات»، وكانت أكثر ما يذكّر بـ «الملحق» ويتماهى معه، زوّدت «النهار» صوتًا اعتراضيًّا مرتفعًا كان يعوزها في الستّينيّات، عقد التمرّد الأوروبيّ والشبابيّ، والثورة الفلسطينيّة عندنا. غير أنّ الغضب الفائض الذي عبّرت عنه تلك المقالات، والذي استعير بعض مصطلحاته من القاموس القلق والمتوتّر لأفكار أوروبا ما بين الحربين، لم يُفهم له سبب أو علّة. أمّا «الثورة» المنشودة التي أريد لها أن تنشب فلم يُعرف الغرض منها، ولا أشيرَ، وإن تلميحًا، إلى طبيعتها وتمثيلها وقواها. ودافعت «كلمات»، إلى ذلك، عن مواقف رجعيّة كان من أبرزها الموقف من «استرجال» النساء ودخولهنّ سوق العمل ممّا طرحه التطوّر الاجتماعيّ اللبنانيّ يومذاك. لقد ردّ أنسي الحاج على تلك المسائل برومنسيّة الحبيب المعذّب والغاضب، وحين شاء أن يدلّنا على المرأة التي يعتبرها نموذجًا للنساء، عثر على صونيا فرنجيّة، كريمة الرئيس سليمان فرنجيّة وزوجة النائب عبدالله الراسي.

أمّا وراثة جبران تويني التدرّجيّة لأبيه فلم تكن مجرّد حدث بيولوجيّ. الأمر انطوى على امتداد بقدر ما انطوى على انقلاب يُستحسن البحث في التاريخ السياسيّ عن أسبابه.

فالشابّ، المولود في ١٩٥٧، المتأثّر ببشير الجميل، ثمّ بميشال عون، لم يعرف السنوات البرلمانيّة التي عرفها أبوه، ولم يعرف السياسة البرلمانيّة بالتالي.

غسان، مثلًا، كره بشير الجميل وكره ميشال عون، وغضب على نجله لميلِه إليهما، ما أضاف إلى علاقتهما الشخصيّة المأزومة بُعدًا آخر. وهو كان يعتدل ويُحجم حين تقترب نُذر الحرب الأهليّة: هكذا، وعلى رغم ولائه العميق لشمعون، شارك يوسف سالم وشارل حلو وبهيج تقيّ الدين وآخرين تأسيسهم «القوّة الثالثة» في ١٩٥٨. وفي

حـرب السـنتين، رفـض نقـل جريدتـه إلـى بيـروت الشـرقيّة، معتبـرًا أنّ انتقالهـا، كانتقـال الجامعـة الأميركيّـة، معنـاه التقسـيم.

جبـران، فـي المقابـل، كان يُقـدم: هكـذا، أحـلّ المسـيحيّة النضاليّـة محـلّ مسـيحيّة أبيـه الميثاقيّـة، وفـي هـذا شـيء مـن سـيرة بشـير الجميّـل نفسـه المكمّـل لأبيـه بيـار والمنقلـب عليـه فـي آن. وفـي وقـت لاحـق، أقـام جبـران مكتبـه فـي المنطقـة الشـرقيّة.

لكـنّ النجـل صـدر أيضًـا عـن الإحبـاط المـزدوج للوالـد بزعامتيـن مسـلمتين «معتدلتيـن» حالـت الحـرب دون «اعتدالهمـا»، كمـا حالـت دون كلّ «اعتـدال» آخـر.

أولاهمـا كانـت زعامـة صائـب سـلام الـذي جمعتـه بغسّـان توينـي بيروتيّة ذات ذاكـرة ومراجـع مشـتركة، وولـع بالاستشـهاد بمقـالات نُشـرت فـي «نيويـورك تايمـز» أو مجلّـة «تايـم». وسـلام حيـن نفـض عنـه ثيـاب «ثـورة ٥٨»، تحـوّل، بعـد مـودّة عابـرة لفـؤاد شـهاب وحكومـة واحـدة فـي ظلّـه، إلـى معـارض شـرس لـه ومعـارض مـداوِر للناصريّـة. لقـد صـار السـنّيّ «الناعـم» الـذي يواجـه فـي بيـروت «فتـوّات» الأحيـاء المدعومين مـن السـفارة المصريّـة و«المكتـب الثانـي» الشـهابيّ. وطـوال السـتّينيّات، بقـي معارضًـا للشـهابيّة إلـى أن تمكّـن مـن إسـقاطها، بمعونـة «الحلـف الثلاثـيّ» التـي تكتّـم عليهـا الطرفـان.

فـي عهـد سـليمان فرنجيّـة، شـكّل صائـب سـلام «حكومـة الشـباب» التـي ضمّـت صاحـب «النهـار»، لكـن اغتيـال القـادة الفلسـطينيّين الثلاثـة فـي فـردان، فـي نيسـان (أبريـل) ١٩٧٣، فجّـر النـزاع بيـن الرئيسـين. كلٌّ منهما اعتصـم بطائفتـه وصـار فجـأة مـن متطرّفيهـا. «النهـار» لـم تسـتطع أن تنـدرج فـي المعارضـة السـلاميّة المحكومـة باعتبـارات لا تستسـيغها، خصوصًـا أنّ حربًـا مصغّـرة بيـن الجيـش اللبنانـيّ والمقاومـة الفلسـطينيّة مـا لبثـت أن نشـبت فـي أيّـار (مايـو). و«النهـار» عانـت مـا عانتـه مـن

فرنجيّة الذي اعتُقل تويني في عهده، لكنّ هذا شيء والمعارضة السلامية ـ الإسلاميّة ـ الفلسطينيّة يومذاك شيء آخر.

بعد الاجتياح الإسرائيليّ في ١٩٨٢، تعاون سلام وتويني لدعم الشرعيّة الممثّلة آنذاك في أمين الجميّل. لكنّ كلّ شيء ما لبث أن انهار. بيروت صارت في قبضتَي «أمل» و«الاشتراكي». الجيش والأمن السوريّان عادا إليها. صائب سلام، المُسنّ والمحبط، غادر إلى جنيف، وفي ٢٠٠٠ رحل عن دنيانا.

الثانية كانت زعامة موسى الصدر. فالإمام الآتي من إيران، وعلى عكس الروايات اللاحقة، بدا في لبنان وزنًا يضاف إلى الوزن المسيحيّ في مقابل الوزن السنّيّ. «المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى» الذي ناضل لإنشائه كان حسمًا من حصّة دار الفتوى ومن نفوذها. وفي السياسات الإقليميّة، بدا الصدر أقرب إلى التوجّهات غير الراديكاليّة التي لم تهضم الناصريّة، ولا هضمت بعدها الثورة الفلسطينيّة. قوّته، منذ البدايات الأولى، كانت توحي بمركز قوّة يناظر المركز الفلسطينيّ الناشئ ويناهضه. سلوكه الشخصيّ المنفتح استهوى المسيحيّين، واستهوى «النهار». «الندوة اللبنانيّة» لميشال أسمر، معمل النخبة الميثاقيّة ومرآتها، أعطته منبرها. «النهار» أعطته صفحاتها. الأصدقاء المشتركون كانوا كثيرين، أبرزهم حسين الحسيني.

لكنّ المسلم المرغوب فيه الذي كانه الصدر لم يعمّر طويلًا بصفته هذه. فالتزمّت الذي واجهه به عهد فرنجيّة دفعه إلى راديكاليّة متزايدة. أمّا «فتح» والنظام السوريّ اللذان لا يبخلان بالتسليح والتدريب، فكانا ينتظران إشارة منه كي يسلّحاه ويدرّبا شبّانه. وقبل أن تنتهي السبعينيّات، وفيما الإمام يتخبّط بتناقضاته، خُطف في ليبيا.

بشير الجميل كان يصعد آنذاك. لأسباب كثيرة، منها العاطفة والحساسيّة والتجربة والسنّ، كان يستحيل على غسّان أن يلتحق بالشابّ بشير الجميل. كان هذا سهلًا على نجله جبران، ابن العشرين.

في تلك الغضون، جاءت الحروب، ابتداءً بحرب السنتين، قاسية على «النهار»، مثلها في ذلك مثل لبنان كلّه. ففضلًا عن صعوبات الصدور لأسباب أمنيّة وعن تقلّص عدد الصفحات وإغلاق «الملحق»، بدأت الجريدة تنزف كوادر أساسيّة آثرت الهجرة واحتلّت مواقع بارزة في صحف البلدان التي هاجرت إليها. الموجة الأولى في السبعينيّات ضمّت رياض الريّس وسمير عطاالله ورفيق معلوف وعبدالكريم أبو النصر وفؤاد مطر وسواهم، والموجة الثانية في الثمانينيّات شملت جورج سمعان وغسان شربل وعبدالوهاب بدرخان وخيرالله خيرالله وبشارة شربل وآخرين. بهؤلاء، شابهت «النهار» أيضًا لبنان بوصفه، حتى في أزمنة المحن، بلدًا وسيطًا ومصدرًا للكفاءات.

الجيش السوريّ احتلّ مكاتبها في الحمرا، وطرد منها المحرّرين والموظّفين. الوضعان الأمنيّ والسياسيّ صارا يضغطان على الصحف عمومًا و«النهار» خصوصًا. في ١٩٧٧، أنشئت في باريس، كاحتياط وكاستدراك، مجلّة «النهار العربيّ والدوليّ»، وكانت سبقتها إلى لندن «الحوادث» لسليم اللوزيّ، كما ظهرت في فرنسا «المستقبل» لنبيل خوري. آنذاك، في النصف الثاني من السبعينيّات، وفيما كانت أسعار النفط تشهد صعودها الصاروخيّ، هاجر المال العربيّ إلى أوروبا. الإعلام اللبنانيّ كان لا بدّ إذًا أن يهاجر.

الياس الديري ومروان حمادة أسّسا «العربيّ والدوليّ» ثمّ تولّاها جبران الذي كان يدرس الحقوق في باريس. المجلّة لم تكن فاشلة، وهي اتّسعت لنطاق من الأسماء، عربيّ ولبنانيّ، أوسع من البيئة

التقليديّة لـ «النهار». إلّا أنّها تعثّرت تحت ضغط أكلافها الماديّة، وانتصاف تحريرها بين لبنان وفرنسا. هكذا، انتقلت إلى بيروت أواخر ١٩٨١، ثم أقفلت عام ١٩٩٠. جبران، الذي جعلته «العربيّ والدوليّ» اسمًا عامًّا، غادر إلى باريس، حاملًا جرحين: المجلّة أقفلت، وميشال عون انهزم.

التسعينيّات كانت عقدًا مزدحمًا بالأحداث الكبرى التي كتبت الصحافةَ أكثر مما كتبتها الصحافة. إتّفاق الطائف افتتح عالمًا جديدًا: فهمُ لبنان تبعًا لمعايير الصيغة والميثاق، ولمركزيّة متصرفيّة جبل لبنان، أصبح تجهيلًا محضًا بلبنان. المسيحيّون مهزومون. ثنائيّة رفيق الحريري و«حزب الله»، أي التحرير والتعمير، تحكم البلد مكلّلةً برعاية سوريّة.

«النهار» وغسّان تويني تحديدًا أتاحا المجال لأصوات عدّة، الأمر الذي ربّما عاد، في ذلك الزمن الملتبس، إلى رغبة في اختبار ما لم تعرفه «النهار» قبلًا. الصوت الأقوى، كما بلوره خلط القديم بالجديد، كان ذلك المُعارض الذي تسكنه المرارة المسيحيّة، وفي جوارها مرارة أصغر لأفراد يساريّين أرّقهم صعود الدورين الماليّ والسياسيّ للحريري، بعد الهزيمة التي أنزلها السوريّون، عبر أتباعهم اللبنانيّين، بالفلسطينيّين وأتباعهم اللبنانيّين. فآثار حرب المخيّمات واغتيال الشيوعيّين كانت تغذّي النقمة على تركيبة ما بعد الطائف وتمنح الوجاهة للتشكيك في «عروبة لبنان» السوريّة.

أسماء غير نهاريّة تقليديًّا استقبلتها «النهار». في ١٩٩٢، أعاد غسّان تويني إصدار «الملحق» الذي تسلّم رئاسة تحريره الروائيّ الياس خوري، الآتي من «السفير» ومن العمل في مؤسّسات إعلاميّة وثقافيّة فلسطينيّة. خوري، الذي ساعده في التحرير منذ ١٩٩٧ الشاعر عقل العويط، فتح أبواب «الملحق» لأسماء هي الأخرى غير

نهاريّـة: للشـاعرين عبّـاس بيضـون وبسـام حجّـار وللروائـيّ محمّـد أبـي سـمرا والسـينمائيّ محمّـد سـويد والكاتـب بـلال خبيـز والناقـد والفنّـان محمـود زيبـاوي وسـواهم، ولكتّـاب سـوريّين وعـرب لـم تربطهـم مـن قبـل أيّـة إلفـة مـع الجريـدة البيروتيّـة.

هـذه التجربـة الجديـدة، التـي قدّمـت عبـر الكتّـاب المذكوريـن إضافـات ملحوظـة، حافظـت علـى الغضـب الإنشـائيّ القديـم لأنسـي الحـاج، لكنّهـا جعلتـه أقـلّ ميتافيزيقيّـة وأشـدّ تعيينًـا للمغضـوب عليهـم: الحريـري والنظـام السـوريّ وطبعًـا إسـرائيل.

فـي أواسـط التسـعينيّات، بـدأ سـمير قصيـر، الجامعـيّ اليسـاريّ المعارض للوصايـة السـوريّة، والمقيـم سـابقًا فـي باريـس، يكتـب فـي «النهـار». مقالاتـه الشـجاعة مثّلـت انعطافًـا عـن الميـل النهـاريّ القديـم إلـى التمويـه والتعميـة.

هـذه الوجهـة، التـي لـم تُثـر ترحيـب النهاريّيـن الأقحـاح، وعلـى رأسـهم جبـران، ذهبـت خطـوة أبعـد فـي ١٩٩٧، مـع انتقـال الكاتـب السياسـيّ جهـاد الزيـن مـن «السـفير» إلـى «النهـار»، مسـبغًا علـى مقالاتهـا جرعـة أعلـى مـن التحليـل والتدقيـق.

يومـذاك، بـدت «النهـار» أشـبه بفرقـة موسـيقيّة كلّ عـازف فيهـا يعـزف أغنيتـه.

لكـنّ رفيـق الحريـري كان أيضًـا يقتـرب مـن «النهـار» التـي تقتـرب، بدورهـا، منـه. فببـطء وتـدرّج، ومـن وراء ظهـر الوصايـة السـوريّة، نسـج رئيـس الحكومـة الراحـل علاقـة خاصّـة بالبطريـرك المارونـيّ نصراللـه صفيـر، محـاولًا أن يتفاهـم مـع الإحبـاط المسـيحيّ وأن يتفهّمـه، وفـي منتصـف التسـعينيّات، اشـترى حصّـة وازنـة فـي جريـدة آل توينـي.

الموضـوع النهـاريّ الطاغـي لـم يعـد نقـدًا مسـيحيًّا ـ يسـاريًّا لتعميـر

الحريـري. لقـد صـار نقـدًا مسـيحيًّا ـ حريريًّـا لثنائـيّ النظـام السـوريّ و«حـزب اللـه».

والتطـوّرات مـا لبثـت أن تلاحقـت، معـزِّزةً التقـارب بيـن المسـيحيّين والحريـري، مـا أثمـر لاحقًـا حركـة ١٤ آذار. فـي ١٩٩٨، انتُخـب إميـل لحّـود، خصـم الطرفيـن، رئيسًـا للجمهوريـة. فـي ٢٠٠٠، كان الانسـحاب الإسـرائيليّ الـذي لـم يعقبـه انسـحاب سـوريّ ولا تسـريح لـ «حـزب الله». ثـمّ فـي ٢٠٠١، وكان قـد رحـل حافـظ الأسـد، انعقـد لقـاء قرنـة شـهوان...

التقـارب الحريـريّ ـ المسـيحيّ صـار أكثـر فأكثـر إزعاجًـا لبشّـار الـذي حـلّ، فـي ٢٠٠٠، محـلّ أبيـه. كان مـن تعابيـر انزعاجـه، ومـن علامـات المطابقـة بيـن لبنـان القديـم و«النهـار»، أنّـه شـخصيًّا طالـب الحريـري بفـضّ الشـراكة مـع آل توينـي.

لكـنْ، فضـلًا عـن السياسـة المناهضـة للوصايـة، كان يجمـع بيـن الحريريّـة والنهاريّـة هـوًى اجتماعـيّ وأيديولوجـيّ، يقفـز فـوق التبايـن الطائفـيّ، هـوًى تعبّـر عنـه الكـوادر العليـا فـي المؤسّسـتين اللتيـن تعجّـان بالطامحيـن إلـى الترقّـي الاجتماعـيّ. هـؤلاء وأولئـك اسـتهواهم «السـيكت» الـذي يعيـش فـي «مجتمـع مضـادّ» يوحّـد بيـن أطرافـه المطعـم والفنـدق ومخـزن الألبسـة، كمـا يميّـزه مـن سـواه. لقـد بـدت عقيـدة الاسـتهلاك واسـتعراض الاسـتهلاك جسـرًا آخـر يجمـع النهاريّـة إلـى الحريريّـة.

فـي تلـك الغضـون التسـعينية، كان جبـران يتقـدّم. فـي مـوازاة عملـه فـي «نهـار الشـباب»، إبّـان ١٩٩٣ و١٩٩٤، راح يقتـرب مـن رئاسـة التحريـر التـي تولّاهـا مـع نهايـة العقـد.

زخـمُ «نهـار الشـباب» طفـا علـى الصفحـة الأولـى، لكـنّ الشـبّان المسـيحيّين كانـت الهجـرة تقلّـل عددهـم يومًـا بيـوم. التحميـس الجبرانـيّ، إذًا، بـدا فـي بحـث دائـم عمّـن يتحمّـس.

وجبران كان يملك من المواصفات الشكليّة للزعامة أكثر ممّا امتلك أبوه. فالأخير ظلّ أقرب إلى الأستاذ الجامعيّ الذي مارسه بشيء من التقطّع في الجامعة الأميركيّة ببيروت. أمّا نجله فكان مهيب الطلّة ومؤثّرًا، وهو بثيابه الداكنة وتصفيف شعره وشاربيه، شابهَ الأعيان المحافظين في أوروبا الجنوبيّة في الثلاثينيّات. وقد تحلّى بديناميّة فائضة تذكّر بديناميّة أبيه، وبحبّ للتحديث في حدود استخدام الكومبيوتر ونشر الصور الملوّنة بأحجام كبيرة على الصفحة الأولى. لكنّه كان بادي الاستعجال، بحيويّة قد تفوق حيويّة والده وبكفاءة تقلّ عن كفاءته. أحد النقّاد تراءى له أنّ تويني الشابّ هو الكاتب الوحيد في تاريخ الكتابة الذي يكتب مقالته وهو يمشي مسرعًا.

إنجاز جبران الأكبر كان الانتقال، عام ٢٠٠٤، من الحمرا إلى المبنى الجديد في البرج. لكنّ ٢٠٠٤ كان في حصيلته عامًا مشؤومًا. فيه، نشبت معركة التمديد للحّود التي أعقبها اغتيال الحريري في ١٤ شباط (فبراير) ٢٠٠٥. انتخابات ذلك العام أتت بجبران تويني نائبًا، وقد غدا أحد أقطاب حركة ١٤ آذار وصاحب «قَسَمها». لكنّ الإجرام كان قادرًا على أن يقلب عرس الانتصار مأتمًا: فالاغتيالات التي كرّت ما لبثت أن حصدته، بعدما حصدت سمير قصير وصوته الشجاع.

تلك الفاجعة التي نزلت بغسّان تويني، المعذّب بالكثير من الفواجع الشخصيّة والعائليّة، استحضرت أكثر وجوهه نبلًا: دعا إلى الصفح والتسامح، كما نُقل عنه قوله المؤثّر: لم يتركوا لي منه قطعة متماسكة أستطيع تقبيلها. لكنّ الوالد المنكوب والمُسنّ استجمع ما بقي له من قدرات وإصرار وحلّ في المقعد النيابيّ لنجله الفقيد.

لقد رافق غسان تويني «نهار» الصيغة والميثاق صعودًا وهبوطًا، في موازاة صعود لبنان الصيغة والميثاق وهبوطه. أمّا جبران فكان

شهادة على أمل الخلاص بـ١٤ آذار، ثمّ انقلاب الأمل وهمًا مكلفًا. رحلته كانت قصيرة ودمويّة. لكنْ، بعدها لم يعد هناك سوى اليباب.

العدوى الوراثية ضربت مجدّدًا واشتغلت على خطّين: نايلة، كريمة جبران، حلّت في رئاسة التحرير ورئاسة مجلس الإدارة، لكنّها حلّت أيضًا في المقعد النيابيّ ببيروت. أختها ميشيل باتت تشاركها كتابة افتتاحيّات الجريدة.

الكاتبتان تجهدان في استعارة أعمار وتجارب ليست لهما. تُطلّان من علٍ بقدر من الوعظ والخطابة. لكنّ ما تحاولان إظهاره وما تحاولان إخفاءه يظلّان أقوى من أن يُموَّها. وأغلب الظنّ أنّ القيادة الحاليّة لـ «النهار» بذلت جهدًا واجتهدت، لكنّ ما بات ينبغي الركض للّحاق به صار كثيرًا جدًّا، يستدعي همّة أكبر وساقًا أطول.

المال السياسيّ تقلّص. المال المقيم حصصًا في المؤسّسة تبخّر. الإعلان انكمش. القرّاء ضمروا، وفي حالة «النهار»، انتصفت القاعدة المسيحيّة، التي استندت إليها الجريدة تقليديًّا، ما بين ميشال عون و١٤ آذار. في المقابل، لم يتغيّر الإنفاق الباذخ للمعنيّين بالأمر، ولا فُكّر في الاهتمامات والمقاربات الجديدة للصحافة، ولا نشأت، بعد ١٤ آذار وتراخي حركتها، قضيّة عامّة يمكن التعويل عليها.

جريدة «النهار» اليوم، بصفحاتها المتضائلة ومحرّريها المسرّحين، أشبه ببيت تنقطع الكهرباء كلّ يوم عن واحدة من غرفه. لا نزال نستطيع أن نقرأ نصًّا في السينما، مشغولًا وعارفًا ودقيقًا، لهوفيك حبشيان، أو إحاطة مضيئة لسمير عطاالله، أو رأيًا إشكاليًّا لجهاد الزين، أو رسالة مفيدة من واشنطن لهشام ملحم، أو تعريفًا بوجه من الحياة السياسيّة الإسرائيليّة لرندة حيدر. ونلمس، لدى رموز الأجيال المتعاقبة على الجريدة، كيف استمرّ الجهد والمعنى

يكافحـان القالـب المحكَـم، وإن مـن داخلـه، وهـو مـا يصحّ فـي زمـلاء وزميـلات كثيريـن.

لكـنّ الانقطـاع النسـبيّ عـن العالـم الثقافـيّ والمعولـم للشـبّان والشـابّات الأصغـر سـنًّا، والرهـان علـى «المنوّعـات» والإثـارة مصـدرًا للخـلاص المالـيّ، وشـبهة العنصريّـة فـي السـنوات الأخيرة، لا سـيّما حيـال اللاجئين السـوريّين، وقضـم تعويضـات مسـتحقّة لزمـلاء مصروفيـن، بعضهـم أمضـى عشـرات السـنوات بيـن مكاتـب «النهـار» ومطابعهـا... حصيلـةٌ تشـكّل، فـي عمومهـا، مصيـرًا محزنًـا جـدًّا، ومؤلمًـا جـدًّا، لا «النهـار» تستحقّــه، ولا لبـنان، ولا روايتنـا عـن أنفسـنا مـن خـلال «النهـار»، وطبعًا لا تسـتحقّه الحرّيّـة.

«الأنوار» في بيت عمّي

فـي بيـت عمّـي كانـت «الأنـوار»، الصـادرة فـي ١٩٥٩، جريـدة البيـت. امـرأة عمّـي، المتشـدّدة فـي ناصريّتهـا، كانت تمقـت «النهـار» و«الصفاء» و«الجريـدة» وتعتبرهـا شـمعونيّة الهـوى. كان يكفيهـا أن تـرى، يوميًّـا تقريبًـا، صـورة كبيـرة لجمـال عبدالناصـر علـى صفحـة «الأنـوار» الأولـى. كافيًـا كان ذلـك كـي يجعـل يومهـا سـعيدًا.

كذلـك، كانـت «الصيّـاد»، الصـادرة فـي ١٩٥٤، مجلّـة البيـت الأسـبوعيّة. وكثيـرًا مـا كانـت شـخصيّة «أبـو خليـل» الكاريكاتوريّـة والفولكلوريّـة مـادّة لـكلام يثيـر التعليـق أو الضحـك. أمّـا «الشـبكة»، التـي ربّمـا كانـت الأوسـع انتشـارًا لاهتمامها بأخبـار الفنّانيـن والفنّانـات، فـلا أذكرهـا فـي بيـت عمّـي.

و«الأنـوار» كانـت حقًّـا صـوت الناصريّـة الوحيـد فـي لبنـان بعـد «ثـورة

٥٨». مع هذا، فقد احترفت مخاطبة الناصريّين القليلي التسيّس والكثيري البراءة، الذين يكفيهم مجد عبدالناصر، «رافع رؤوسنا» و«قاهر الاستعمار»، وكلّ تضخيم يحفّ باسمه بالضرورة. مانشيتّها يوم ٤ حزيران (يونيو) ١٩٦٧، مثلًا، كان: «٦٠٠ مليون صينيّ و٤٠٠ مليون هنديّ يؤيّدون مصر». لقد كانت «الأنوار» جريدة العائلات الناصريّة قياسًا بـ «المحرّر» التي أنشأها في وقت لاحق هشام أبو ظهر، فبدت أوثق صلة بالنضاليّة الناصريّة لشبّان صغار أطلّوا على الأحزاب والعقائد. بين هؤلاء الأخيرين مثّلت «حركة القوميّين العرب» الحضور الأقوى (ما حضّ البعثيّين على دعم «الكفاح» و«الأحد» الأسبوعيّة لرياض طه، وكذلك إنشاء «الصحافة» الأسبوعيّة، ثمّ «الأحرار» اليوميّة التي لم تعمّر طويلًا).

سعيد فريحة، الأرثوذكسيّ من رأس المتن والمتباهي بالعصاميّة وبماضٍ جمعه وهو شابّ برياض الصلح، اختلف عن الصيداويّين السنيّين هشام أبو ظهر، وشقيقه وليد. هؤلاء كانت ناصريّتهم جزءًا من التسونامي الواسع الذي جرف سنّة المدن في الخمسينيّات ونقلهم إلى مصر الناصريّة. هكذا، وطّد فريحة «الأنوار» و«الصيّاد» على تقاطع ناصريّ ـ كويتيّ، إذ عاشت الإمارة الخليجيّة الصغيرة على خوف من العراق، لا سيّما في عهد عبدالكريم قاسم، دفعها إلى الاحتماء بعبدالناصر، وطبعًا بالبريطانيّين. أمّا الشقيقان أبو ظهر فأقاما «المحرّر» على تقاطع ناصريّ ـ فلسطينيّ قبل أن ينجذبا لاحقًا إلى عراق صدّام، فكان بين أبرز نجومها، وإن بدآ شابّين صغيرين في مؤسّسات فريحة، شفيق الحوت الذي ما لبث أن مثّل منظّمة التحرير الفلسطينيّة في بيروت، وغسّان كنفاني الكاتب والروائيّ المنتمي إلى «حركة القوميّين العرب» ومحرّر ملحق «فلسطين» الذي أصدرته. كذلك، اختلف فريحة والأخوَان أبو ظهر في اختيار الطريق إلى الناصريّة: هو كان مرجعه مصطفى أمين، قبل أن

تكتشف المخابرات المصريّة أنّه «جاسوس»، فيما كان محمّد حسنين هيكل مرجع الأخوَين الصيداويّين.

لكنّ سعيد فريحة الذي خاض الانتخابات النيابيّة في «بيروت الثالثة» ضدّ نسيم مجدلاني ولم يسعفه الحظّ، كانت له اهتمامات «رسميّة» و«نجوميّة» توسّع المسافة التي تفصله عن متوسّط المناضل الناصريّ. فهو صديق السياسيّين والأغنياء والأمراء العرب، لكنّه أيضًا صديق الفنّانين والفنّانات و«الحسناوات»، تؤمّن له مجلّته «الشبكة» رعاية الصداقات هذه وتعزيزها. وهو، في هذا، كان منحازًا إلى صباح اللبنانيّة ـ المصريّة على فيروز اللبنانيّة فحسب، كما أنشأ «فرقة الأنوار» كي ينافس بها فِرق آل الرحباني. وفي محفل كهذا، حيث يختلط الجدّ بالمزاح والمبدأ بالغرض والإنجاز بالاستعراض، عُدّ فريحة من كبار «ظرفاء» لبنان، بالمعنى الذي كان يُحسب فيه نجيب حنكش «ظريفًا» كبيرًا.

وهذه اتّجاهات عزّزها الأبناء الذين ورثوا أباهم بعد رحيله في ١٩٧٨، مثلما عزّزوا ضمور السياسيّ والجدّيّ في الإمبراطوريّة الصحافيّة الموروثة. هكذا، وفي السبعينيّات والثمانينيّات، وفيما الاستقطاب يتعاظم من دون بوصلة ناصريّة، بات السؤال الفعليّ: لماذا لا تزال «الأنوار» تصدر؟ ذاك أنّ الافتتاحيّة الرصينة لرفيق خوري لم تعد تكفي لحمل امرأة عمّي ومَن يشبهونها على قراءتها.

... عن جوزيف أبو خليل بعد رحيله

تأخّر سداد الدَّين لجوزيف أبو خليل الذي غادرنا بعدما تجاوز التسعين. فاللبنانيّون اليوم تستهلكهم مسائل لا تتيح أداء العزاء في موعده، أو حتى كتابة القصّة التي تجمع بين رحيل الراحلين الأفراد واحتمالات الرحيل التي تحيق بوطنهم القديم. ولأبو خليل قصّة، وأنا لي قصّة معه ربّما استحقّت أن تُروى.

فإبّان «حرب السنتين»، كنت يساريًّا أعمل في جريدة «السفير». لكنّني، لغرض السجال، دأبت بلا انقطاع على قراءة افتتاحيّة «العمل»، الجريدة الناطقة بلسان حزبه. الإفتتاحيّة كان عنوانها الجامع «حصاد الأيّام»، وكاتبها كان صاحب اسم مجهول: جوزيف أبو خليل. ما كنت أعرفه عنه هو ما كان يعرفه كلّ شخص آخر: قياديّ في حزب الكتائب، يكتب التصريح اليوميّ لرئيسه بيار الجميّل. لكنْ، بينما كان هذا التصريح مُملًّا ووعظيًّا، كانت الافتتاحيّة تتلوّى في مراقَصة الحدث المتغيّر، يستوقفها التفصيل الصغير من غير أن تخون اللوحة الكبرى.

هكذا، أثارت افتتاحيّة «العمل»، فيّ وفي بعض مُجايليّ وبعض من يشبهونني سياسيًّا، شعورين متعارضين: التعالي والحسد. أمّا التعالي فمردّه إلى أنّنا كنّا مسكونين بالكتابات «النظريّة» الفخيمة للماركسيّين وتلاميذهم والمنشقّين عنهم، نزدري ذلك التناول «الصحفيّ» الذي نعدّه امتدادًا للكلام الشفويّ المتداوَل، أو «الحكي»، كما ننسبه إلى جيل قديم. وأمّا الحسد فمصدره أنّ تأثير تلك اللغة أكبر بمئات المرّات من تأثير ما نكتب، ظانّين أنّه يواكب «حركة التاريخ». كلام أبو خليل البسيط كان يذهب مباشرة إلى الموضوع، وهو، بقياس المعايير التي تحكم السجالات الدائرة حينذاك، يسلّح جمهوره بالحجج التي هو في أمسّ الحاجة

إليها. كلامنا، في المقابل، لم يكن معنيًّا بمصادقة القرّاء، دع جانبًا تسليحهم بالحجّة. وربّما كان أحد مفاتيح الاختلاف ما قاله لي ذات مرّة، وكانت معرفتي به توثّقت: «إنّكم تحاولون كتابة أفكار كثيرة في مقال واحد، كأنّكم تريدون القول إنّكم تعرفون. المطلوب، في رأيي، كتابة فكرة واحدة في كلّ مقال، فكرةٍ تبتغي التعريف بالفكرة نفسها، لا بمعرفة صاحبها... هذه جريدة وليست كتابًا».

افتتاحيّة أبو خليل اليوميّة لم تكن موقّعة، وهذا كان يشبهه بوصفه جنديّ الكتائب المجهول، ذاك أنّ الرجل تفانى في الولاء لما والاه، وكان صوفيًّا ذائبًا في محبوبه الكتائبيّ، بل الجميليّ أيضًا. فهو مَن سكّ تعبير «الجميليّة» محاولًا، بطموح غير مبرّر، تحويل حزبيّته إلى مذهب وism، ورسم مؤسّسها بيار الجميّل صاحبَ مدرسة تتعدّى الحزب ونطاقه. هكذا، كان مستعدًّا، شأنه شأن كلّ مؤمن يقينيّ، أن يسلخ صفات فاضلة عن نفسه وينسبها إلى سياسيٍّ جميليّ ما. يصحّ هذا بالطبع في المؤسّس بيار، ولكنْ أيضًا في نجليه أمين وبشير، ومن بعدهما أحفاده بيار وسامي ونديم. فهؤلاء، على رغم تناقضاتهم الكثيرة والمعلنة، لم يكونوا، في عرف جوزيف أبو خليل، يتناقضون. إنّهم محكومون بقدَر مسبق يطرد الانقسام عنهم، وباسمٍ عائليّ يستحيل ألّا يجمع المختلف.

وكان جوزيف، حين تعرّفت إليه، أوّل كتائبيّ ألقاه وجهًا لوجه. هذا ما وسّع رؤية الخصم وأنْسَنَها فأحلّ وجوهًا كثيرة حيث حلّ، من قبل، وجه واحد قبيح. من خصومته، تعلّمت فكرة الخصومة المتمدّنة التي تستبعد التشهير والتخوين وتعلو فوق شكليّات الخلاف الدارجة في حياتنا، كالمصافحة والظهور معًا أو تناول الطعام إلى طاولة واحدة. الخصومة هنا رحبة، تنحصر في السياسة، حيث تشوبها الحدّة والتشدّد، لكنّها تتّسع للسؤال عن الأحوال الشخصيّة والعائليّة وللكلام في مهنة يُفترض أنّها تجمعنا.

لقد كان أبو خليل فلّاحًا صلبًا من الشوف، مجبولًا بتاريخ الصراع الطائفيّ ومخاوفه الضاربة في القرن التاسع عشر، ومتلهّفًا إلى «تعايش» يسكّن تلك المخاوف. بيد أنّه كان مسكونًا أيضًا بوصفة وحيدة مستمدّة من صورة بسيطة للبنان. وأغلب الظنّ أنّ اللبنان الذي كان متحمّسًا لـ «استعادته» كـ «عصر ذهبيّ»، يمتدّ على مرحلتين: من متصرفيّة ١٨٦١ إلى تعطيلها في الحرب العالميّة الأولى، ومن نشأة «لبنان الكبير» في ١٩٢٠ حتى الحرب الأهليّة المصغّرة في ١٩٥٨. أمّا الشهابيّة فظلّت التباسه الأكبر، تمامًا كما شكّلت الالتباس الأكبر لحزبه. وفي الأحوال جميعًا، فمن أجل لبنانه ذاك، كان مستعدًّا لأن يتوجّه إلى سوريا وإلى إسرائيل، وإلى أيّ مكان يتوهّم أنّ الخلاص يقيم فيه. وهو توهّمَ كثيرًا، بيد أنّ توازنات القوى الضاغطة هي التي كانت تدفعه إلى التشبّث بحبال من هواء.

وإبّان عملي على كتابي «تعريب الكتائب اللبنانيّة»، أواسط الثمانينيّات، أجريت معه مقابلة طويلة تخلّلها شعور لديه، ظلّت تنكره الكلمات، من أنّ الماضي مضى. وهو، للمفارقة، بدأ يمضي مع انتخاب بشير الجميّل للرئاسة وسخريته من «الصيغة الفريدة» التي تشدّق بها والده، ثمّ مع مقتله والرئاسة البائسة لشقيقه أمين. وبعد تقلّص حزبه إلى فصيل صغير، وانعطاف أبناء كثيرين عنه، أبناءٍ ساهم جوزيف في تربيتهم التي تنصّل منها، فيما تنكّروا هم لها وله، جاءت ثورة تشرين تختم فصلًا طويلًا محزنًا، وبات سؤاله الأثير «أيّ لبنان نريد؟» مطروحًا بصيغ ودلالات تعصى على مُخيّلات الأقدمين.

فلتكن لجوزيف ولزمنه الراحة.

إعلام قديم وإعلام جديد: هل نستطيع أن نتوقّع؟

في ١٩٧٤، أسّس الزميل طلال سلمان جريدة «السفير» واختار لها شعارًا جذّابًا: «صوت الذين لا صوت لهم». قبله بـ٧٣ سنة، وصف فلاديمير لينين صحيفة «إيسكرا» التي ولدت في ١٩٠٠ بأنّها «ليست مجرّد دعائيٍّ جماعيّ ومحرّض جماعيّ، بل هي أيضًا مُنظِّم جماعيّ».

فقط، قبل عقدين، وُضعت تلك الأقوال موضع التنفيذ، لا في موسكو وطبعًا ليس في بيروت. حدث هذا في الولايات المتّحدة، مع الإعلام الاجتماعيّ الذي لبّى الوظائف اللينينيّة جميعًا، فإذا مَن هو بلا صوت صوتُ نفسه إلى سواه، وكذلك المُصوِّر الذي يعمّم ما يلتقط ويختار من صور وفيديوات.

من دون مال وحزب ومؤسّسة، ولكنْ أيضًا من دون ورق ومطبعة وقسم تصوير ووكلاء توزيع وطائرات شحن ومسؤولي إدارة ومال، بات أيٌّ كان يستطيع أن يراسل العالم. وإذا كانت الصحيفة لا تصدر إلّا عند الفجر، فهو «يُصدر» ما في نفسه حين يشاء. فإذا أخطأ في معلومة أو تأويل، صحّح فورًا أو استدرك. الجريدة لا تتيح ذلك إلّا في عدد اليوم التالي على شكل «تصحيح» و«اعتذار».

إذًا، مات الوقت: إنّ «عدد» الإعلام الاجتماعيّ (السوشل ميديا) يُجهَّز في أيّ وقت وفي أيّ وقت يُقرأ.

ما لا شكّ فيه أنّ التطوّرات التقنيّة التي أنتجت الإعلام الاجتماعيّ مَكسبٌ صافٍ للحرّيّة والمبادرة. واحدنا هو مُشغّل نفسه وسلطة نفسه. عبارة هيغل الشهيرة عن «مطالعة الصحيفة اليوميّة» بوصفها «صلاة الصباح للإنسان العصريّ»، باتت عبارة أرشيفيّة وخبرًا عن زمن سابق.

والحقيقـة الأولـى فـي هـذا المجـال، أنّنـا أمـام تطـوّر لا يُـردّ، كائنًـا مـا كان رأينـا فيـه. «إيمرسـيز»، كبـرى شـركات التسـويق العالميّـة المسـتقلّة، أجـرت اسـتقصاء جـاء فيـه التالـي: فـي ٢٠١٩، بلـغ عـدد مَـن يسـتخدمون وسـائل التواصـل الاجتماعـيّ يوميًّـا، لهـذا الغـرض أو ذاك، ٣,٢ بليـون فـرد، أو ٤٢ فـي المئـة مـن سـكّان المعمـورة! هـؤلاء «يتسـاوون» هنـا فـي معـزل عـن اختـلاف بلدانهـم وألوانهـم وأديانهـم وطبقاتهـم الاجتماعيّـة.

مدعومًـا بشـقيقه التليفـون الذكـيّ المحمـول، حيـث تُقـرأ كمّيّـة هائلـة مـن مجمـوع المـوادّ المقـروءة، حقّـق الإعـلام الجديـد انتصـارًا كاسـحًا علـى سـلفه. الانتصـار هـذا هـو مـا سـمح لدونالـد ترامـب أن يسـمّي الصحافيّيـن «أعـداء الشـعب» ويسـمّي صحفهـم وتلفزيوناتهـم مصـدر «الأخبـار الزائفـة». التحقّـق ممّـا يـرد فـي تغريداتـه لـم يحـلْ دون اسـتمراره، غيـر هيّـاب، فيهـا.

جـاي روزن، الكاتـب والناقـد الأميركـيّ، روى قصّـة شـيّقة عـن بـؤس الصحافـة القديمـة: كان الرئيـس الأميركـيّ حيـن يـزور الخـارج، يصطحـب وفـدًا مـن الصحافيّيـن الأميركيّيـن، وفـي نهايـة الزيـارة يعقـد مؤتمـرًا صحافيًّـا مـع الحاكـم المُضِيـف. هنـاك، يوجّـه لـه صحافيّو بلده أسـئلة في غايـة القسـوة تكـون بدورهـا عيّنـةً علـى اشـتغال الديمقراطيّـة الأميركيّـة، وقـد تؤثّـر كنمـوذج إيجابـيّ فـي العـادات السياسـيّة للمُضيفيـن. أخيـرًا، حيـن زار ترامـب الصيـن، لـم يُعقـد مثـل هـذا المؤتمـر. الصيـن لـم ترغـب. أميـركا لـم تكتـرث.

والحـال أنّ الانتصـار باتـت تُلمَـس نتائجـه فـي عقـر دار الإعـلام القديـم نفسـه: صحـف كثيـرة تسـتقي اليـوم عناوينهـا وتبوّبهـا تبعًـا لحجـم تداولهـا فـي الإعـلام الاجتماعـيّ. وإن كانـت المـادّة كاذبـة أو تشـهيريّة، فـإنّ علـى الصحافـة التقليديّـة أن تنقلهـا كخبـر يسـتحيل تجنّبـه. الأمـر أشـبه بـ «الغـزو» إذًا.

تطوّرٌ في ضخامة الإعلام الاجتماعيّ، لا يقف أثره عند حدّ. في حالة اللغة مثلًا، والعربيّة حصرًا، لاحظ المؤرّخ والكاتب اللبنانيّ أحمد بيضون كيف يتولّى التواصل الجديد «جلاء الفصحى عن مناطق المُشافَهة». فوسائله أتاحت «توجّه العموم إلى العموم بلسان العموم»، كما سمحت «باعتماد العامّيّة لغةً مكتوبة لكلام كان يُفترض فيه أن يقال مُشافهةً». وعن هذا، سوف ينجم نوع من التفاعل يكون «مفيدًا للّغة العربيّة ولعلاقتنا بها».

هذا كلّه لا يعفي من إشكالات يثيرها الإعلام الاجتماعيّ، أوّلها يتناول وصف «الاجتماعيّ» ذاته. فهو يطاول سهولة التواصل بين الباثّ والمتلقّي والمدى المفتوح لشيوع الكلام. لكنّ علامة استفهام كبرى تلفّ الأحداث التي «تجمعنا» و«نجتمع» حولها وتكون، بالتالي، اجتماعيّة، ذاك أنّ تصنيف أهمّيّة الأحداث ينبع، والحال هذه، من اعتبارٍ شخصيّ جدًّا تنعدم معه المعايير المشتركة. إنّ «صناعة التاريخ» تغدو هنا سماجة أبويّة بائخة، لا سيّما أنّ معظم الموادّ التي تُتَداول لا تقارع القناعات الأصليّة التي يبثّها «الكاتب»، بل تؤيّدها، أو في أحسن الحالات، تعتمد الحياد تجاهها.

وإذا كان انحسار المادّة التي نقرأها «كلّنا» ونناقشها، أكانت جريدة أم مقالة أم نشرة إذاعيّة وتلفزيونيّة، يُضعف النقاش العامّ، فهو يدفعنا أيضًا إلى التساؤل: هل نحن حيال صعود آخر تحقّقه الفرديّة، أم حيال انتكاسة عنوانها تذرّر الأفراد؟ أمامنا، بضع ظاهرات شهيرة ومقلقة على تفاوت أحجامها، من ظَفَر الشعبويّة إلى «الذئاب المتوحّدة»، فضلًا عمّا يزكّيه التواصل الاجتماعيّ من انكفاء اجتماعيّ، أو من نرجسيّة يتلذّذ صاحبها بما يعتبره آخرون اقتحامًا للخصوصيّات.

وهناك، تاليًا، المسؤوليّة. فحتى لو استبعدنا سوء النيّة أو الغرض

الحزبـيّ والسياسـيّ، وهـو اسـتبعاد مسـتحيل رغـم ادّعـاءات الموضوعيّـة، تبقـى الجوانـب الإجرائيّـة والعمليّـة: فكاتـب الصحيفـة ومقـدّم أخبـار التلفزيـون مُلزَمـان بمعاييـر معيّنـة، فيمـا تُعـرض مادّتهمـا علـى مسـؤول تحريـر يضبـط معلومـة غيـر دقيقـة أو ينبّـه إلـى مـا قـد يتعـارض مـع قوانيـن مرعيّـة... وهـذا مـا لا يفعلـه فيسـبوك أو تويتـر، حيـث تـزول كلّ رقابـة بالمعنـى الحَرفـيّ. الـكاذب والتشـهيريّ يمـرّان كمـا يمـرّ غيرهمـا.

وقـد يقـال أنّ وسـائل التحقّـق مـن صحّـة مـادّة التشـهير المنشـورة تزايـدت أيضًـا. بيـد أنّ المـادّة هـذه تكـون قـد فعلـت فعلهـا، أو معظـم فعلهـا، لا سـيّما فـي البيئـة الشـعبويّة التـي يسـتهويها الـكلام السـهل مـن غيـر أن تُعنـى بالتمحيـص والمراجعـة. فالشـعبويّة تكتفـي بحجّـة شـفويّة بسـيطة وتنفـر مـن التركيـب والتناقـض نفورهـا مـن الإطالـة، أمّـا السياسـيّ الشـعبويّ فيتغلّـب علـى منافسـه بإطـلاق الأحـكام كيفمـا اتّفـق، تـاركًا لـه البراهيـن «المضجـرة». أسـوأ مـن ذلـك، تزايُـد القـدرة علـى إخفـاء الأسـماء الفعليّـة للكتّـاب فـي الإعـلام الاجتماعـيّ. وهـذا، وفقًـا لمـا رأتـه الكاتبـة الأميركيّـة سـاندرا نيومـن، يقـرّب اسـتخدام وسـائل التواصـل مـن اسـتخدام الشـعوب البدائيّـة الأقنعـةَ التـي تُخفـي الوجـوه وتحـرّر المـادّة المبثوثـة مـن كلّ اعتبـار، بينمـا تزوّدهـا جرعـة قـوّة سـحريّة كالتـي يظنّهـا فـي نفسـه واضـع القنـاع.

يضـاف إلـى هـذا كلّـه، القانـون. فالقوانيـن لا تـزال تلهـث للّحـاق بالإعـلام الجديـد. بلـدانٌ كأسـتراليا وكنـدا وبريطانيـا وسـواها تقدّمـت فـي معاقبـة أصحـاب خطـاب الكراهيـة والإرهـاب وفـي حمايـة الصغـار مـن البورنوغرافيـا. بلـد كألمانيـا فـرض عقوبـات مشـدّدة. وثمّـة مشـكلات لا حصـر لهـا اليـوم بيـن الحكومـات الأوروبيّـة وأقطـاب الإنترنـت كـ «غوغـل» و«فيسـبوك» وسـواهما. وبدورهـم، بـات الأخيـرون يفرضـون «تنظيمًـا ذاتيًّـا» يتعهّـدون التزامـه بـلا انقطـاع، مـن دون أن يتراجـع

مُتّهِموهـم بالعشـوائيّة والانتقائيّـة، كمـا بالتجـاوز علـى الحرّيّـات.

وعلـى العمـوم، فالتحـرّكات الرسـميّة وغيـر الرسـميّة لـم تحقّـق، رغم ذاك الضجيـج، إلّا نجاحـات متواضعـة يزيدهـا تواضعًـا المعارضـة التـي تبديهـا الصناعـات التقنيّـة وشـركات الميديـا وبعـض القانونيّيـن، خصوصًـا لجهـة المسـاس بالحرّيّـة الفرديّـة، وبالأخـصّ فـي الولايـات المتّحـدة.

لقـد أعادنـا المحلّـل الألمانـيّ ـ الأميركـيّ ياشـكا مونـك إلـى سـنوات قليلة خلـتْ ظُـنّ فيهـا أنّ صعـود الإنترنـت والإعـلام الاجتماعـيّ سـيؤثّر إيجابًـا فـي الثقافـة والنظـام السياسـيّين. استشـهد بـلاري دايمونـد، الكاتـب الأميركـيّ المتحمّـس للديمقراطيّـة، الـذي كتب عـن «تكنولوجيـا التحرير» فـي تلاعُـب ضمنـيّ علـى تعبيـر «لاهـوت التحريـر». دايمونـد جـادل بـأنّ الأدوات الرقميّـة الجديـدة سـتمكّن «المواطنيـن مـن نقـل الأخبـار، وكشـف الأفعـال الخاطئـة، والتعبيـر عـن آرائهـم، وتعبئـة الاحتجـاج، ومراقبـة الانتخابـات، والتدقيـق فـي أعمـال الحكومـة، وتعميـق المشـاركة وتوسـيع آفـاق الحرّيّـة». مقالتـه التـي نُشـرت فـي ٢٠١٠، سـريعًا مـا وجـدت مِصداقهـا فـي الثـورات العربيّـة. خمسـة بلـدان انفجـرت ضـدّ حكّامهـا، ووسـائل التواصـل حضـرت فيهـا كلّهـا وإن بتفـاوت. تنظيـم التجمّعـات وفوريّـة التقـاط صـور الاعتـداءات وتعميمهـا وتبـادل الآراء، حملـت نيكـولاس كريسـتوف علـى أن يكتـب فـي «نيويـورك تايمـز» عـن «عصابـات الحكومـات التـي تطلـق الرصـاص» مقابـل «مقاومـة الشـبّان الذيـن يطلقـون التغريـدات». نحـن إذًا حيـال «قـوّة التنظيـم دون تنظيمـات» كمـا قـال عنـوان لكتـاب متفائـل صـدر حينـذاك. خالـد سـعيد ووائـل غنيـم كانـا اسـمين صارخيـن فـي تمثيـل هاتيـن العلاقـة والمرحلـة.

لكـنْ، بينمـا كانـت الثـورات تتخبّـط فـي مواجهـة القمـع الرسـميّ والانقسـامات الأهليّـة، مـن غيـر أن يسـعفها الإعـلام الاجتماعـيّ، أو أيّ

إعلام آخر، إذا بدونالد ترامب يصل إلى البيت الأبيض، حاملًا تويتره. تلك كانت الصدمة الكبرى. لقد ضُربنا من بيت أبينا.

التجارب التي تلاحقت، دلّت على أنّ قدرة الشعبويّين على استخدام الإعلام الاجتماعيّ أكبر من قدرة الديمقراطيّين وأنجح. في مقالته المذكورة، توقّف ياشكا مونك عند إخفاقات الديمقراطيّة التمثيليّة التي شجّعت الإعلام الاجتماعيّ وسهّلت استثماره شعبويًّا. فـ «التصويت» اليوميّ، بالـ «لايك» والـ «شير»، يجعل العمليّة الانتخابيّة واستجابة المؤسّسات لها تبدوان بطيئتين ومترهّلتين، ومعقّدتين أيضًا. ثمّ إنّ الديمقراطيّة كانت تُلهب المخيّلات حين كانت الأنظمة المطلقة لا تزال طريّة في الذاكرة، وكان تهديدها لا يزال قائمًا. هذا زال، أقلّه في المجتمعات الغربيّة. كذلك، زاد التجرّؤ على إعاقات الديمقراطيّة ونواقصها، كمجلس اللوردات البريطانيّ، أو دور المال المتعاظم في سائر الديمقراطيّات، فيما تراجع الخوف على تأثّرها هي نفسها بذلك. فوق هذا، إذا كانت إحدى صعوبات الرجوع إلى الديمقراطيّة الأثينيّة المباشرة أنّ الناخبين اليوم لن يجتازوا ٥٠٠ ميل كي ينتخبوا، ولن يجدوا آغورا يجتمعون كلّهم فيها، حسبما قال مرّةً جون أدامز أحد «الآباء المؤسّسين» لأميركا، فإنّ الإعلام الاجتماعيّ يوفّر الساحة الافتراضيّة التي تُغني عن الساحة الماديّة. إذًا، فلتكن ديمقراطيّة مباشرة بأدوات أخرى.

لقائل أن يقول إنّ الإعلام الاجتماعيّ، الذي تفوّق الشعبويّون في استخدامه، قابل للاستخدام في اتّجاه آخر يعزّز الديمقراطيّة. فهو بذاته ليس صاحب هويّة مغلقة ومطلقة، إلّا أنّ استخدامه البديل مرهون بتحوّلات تقع خارجه، في السياسة والاقتصاد والثقافة، وتنعكس تاليًا عليه. والسؤال الأكبر هنا: هل يمكن جعل الحياة السياسيّة نفسها أسرع استجابةً لمطالب الناس وأعرض نطاقًا في

تمثيلهـم، خصوصًـا متـى آلـت تجـارب الحـكّام الشـعبويّين إلـى فشـل واضـح؟ والسـؤال هـذا يلـد سـؤالًا آخـر: كيـف يمكـن ذلـك فـي ظـلّ فقـدان الدولـة الكثيـر مـن وظائفهـا الاقتصاديّـة والخدميّـة التـي تربـط بهـا مواطنيهـا وتؤثّـر فيهـم؟

فـي العالـم العربـيّ، سـبق أن رأينـا كيـف تتـوازى مراحـل تاريخيّـة كبـرى مـع تطـوّرات إعلاميّـة كبـرى: الراديـو واكـبَ الاسـتقلالات، والترانزيسـتور رافـقَ الناصريّـة والانقلابـات، والتلفزيـون كان تـوأم الانتفاضة الفلسـطينيّة الأولـى، ثـمّ حـرب تحريـر الكويـت، والصحـون اللاقطـة لازمـت فقـدان الأنظمـة غيـر الديمقراطيّـة وإعلامهـا كلّ صدقيّـة. لكـنّ اجتيـاح الإعـلام الاجتماعـيّ يبـدو جـزءًا مـن اجتيـاح «الجديـد» الغامـض والمتناقـض الـذي تنتجـه التقنيّـة والاجتمـاع معًـا، علـى الأصعـدة جميعًـا وبسـرعة وكثـرة لا سـابق لهمـا فـي التاريـخ كلّـه. إنّهمـا السـرعة والكثـرة اللتـان أقلقتـا الشـاعر اللبنانـيّ حسـن العبداللـه، فدعـا سـاخرًا إلـى «إغـلاق بـاب الاجتهـاد» فـي هـذه الابتـكارات الجديـدة. ومـن يـدري، فربّمـا لـم يتبـقّ لنـا حيـال هـذا التعـادل الـذي يصعـب الحسـم فيـه، ويصعـب علينـا نحـن خصوصًـا، إلّا الاعتصـام بعبـارة «واللـه أعلـم».

مِمّا عِشْتُهُ أو عَرَفْتُهُ

مؤسسة دَار الجَديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَار الجَديد
Dar al Jadeed

الانتخابات اللبنانيّة في تجربة بيتيّة

كلّما اقتربت انتخابات نيابيّة، أو شاعت في صددها التكهّنات، زارتني أيّام قديمة ومحزنة. فقد عشت الانتخابات من قرب بين دورة ١٩٥٧، وكان لي من العمر ٦ سنوات، ودورة ١٩٦٨، وكان لي منه ١٧ سنة. كلّ واحدة منها بدأت لعبًا وانتهت بكاءً. التوقّعات ترتفع، تزيدها الأجواء الاحتفاليّة ارتفاعًا. تظهر النتائج فنسقط من مكان شاهق.

وخالي كان يهوى خوضها على نحو لا تردعه عنه الهزائم. لقد ترشّح في ١٩٥٧ و١٩٦٠ و١٩٦٤ و١٩٦٨ و١٩٧٢ (ولم أكن حينذاك في لبنان)، ورسب فيها جميعًا، منفردًا وعضوًا في لائحة أو على رأس لائحة. مرّةً ضدّ «الإقطاع» ومرّة بالتحالف معه. مرّة بعباءة ناصريّة ومرّة ضدّ نفوذها. وأظنّ أنّه لو لم يُقتل في ١٩٧٤، لخاض المزيد منها ولرسب فيها. وراء ذلك، كان السبب الأبرز بسيطًا: إنّه مرشّح «مسلم» يسعى لتمثيل الروم الأرثوذكس. وهذا، في نظام طائفيّ محكم وعميق، وصفة للخسارة على الطرفين.

العطلة الطويلة والعنف القليل... أمّا أنا، فانتخاباتي كان أوّلها العطلة، ذاك أنّ انشغال الأهل بها يشغلهم عنّي، فلا يعودون يعرفون ما إذا كنت أذهب إلى المدرسة أم لا. وبما أنّ الحملة

الانتخابيّة تستغرق أسابيع، بمهرجاناتها وزيارات القرى العكّاريّة الكثيرة في مواكب تضمّ عشرات السيّارات، كنت أرفل طويلًا بنعمة الغياب عن المدرسة. العلم نور؟ ربّما. لكنّ الجهل بدا أنور.

في تلك الغضون، تُستعرض الحماسات في عرس مفتوح، ومعها تُستعرض الحزازات: فهذا «لا يحلب صافيًا معنا»، وذاك «خائن» ولو كان جارًا. وحين يتبيّن أنّ ثمّة «بروتوس» بيننا، يروح الهجّاؤون يتبارون: واحد يقول إنّه «كشفه من زمان ولم يبح بالأمر كرمى لأهله»، وآخر يقول إنّ عائلته «لئيمة من أصلها» ويستشهد بأخبار تُنسب إلى جدّه. أمّا لُعَب الاحتفال فبعضها زمامير ترفع معنويّاتنا وتستفزّ الخصوم، وبعضها هتافات مسجّعة؛ لكنّ أشدّها حميميّة تلك الصور الملوّنة لخالي التي تتكوّم في غرف البيت قبل أن يتولّى «الشباب» تعليق بعضها على جدران القرية وإرسال بعضها إلى قرًى مجاورة. وحتى اليوم، لا تزال رائحة ورقها تقيم في جزء صغير من أنفي الكبير.

لكنْ، لئن خلت الانتخابات من العنف، فالقليل من هذا العنف كان يحصل إبّان تعليق الصور، حيث تَحتلّ مساحات لا يُسأل أصحابها عن رغبتهم، فيروحون يردّون الاعتداء عن انتهاك مجالهم الحميم، أو تَحتلّ جدرانًا عامّة للبلديّة فيستنفر الخصوم من أهل البلديّة نفسها كي لا يُحسبوا تابعين لمن يكرهون.

وكان للانتخابات اقتصادها بالطبع، وإن كان أشدّ أوجهها سرّيّةً، لا تصل أخباره إلّا عبر تنصّت الصغار على أهلهم، أو من خلال زلّةٍ زلّتها ألسنة الكبار. فهناك أكلاف اللائحة، ما يعني توفير المبلغ الذي يطلبه «القطب» رشوةً له، وهناك أكلاف السيّارات التي يتشكّل منها الموكب، وكذلك الولائم التي لا بدّ أن تولَم للّائحة وجمهورها

المتنقّل. ولم يخلُ الأمر من مبالغ صغرى تُدسّ في جيب «فقير» له «دالّة» على أصوات أقارب وجيران كثيرين.

١٩٥٧ علاقتي بالانتخابات تبدأ في ١٩٥٧. عامذاك، ولم يكن خالي قد بلغ الثلاثين، خاضها في عكّار مرشّحًا عن مقعد الأرثوذكس. قبل عامين، كان قد عاد من واشنطن، حاملًا شهادة دكتوراه في الحقوق، بعد تخرّجه في دمشق، فأقام مكتبه للمحاماة في طرابلس وبدا مُصرًّا إصرارًا حديديًّا على «خدمة الشعب». جدّي وباقي الأقارب لم يستطيعوا إقناعه بالتوقّف عن «خدمة الشعب»، وبأنّ الشعب يستطيع أن يتدبّر أمره بنفسه. نصحوه بأن يقيم مكتبه في بيروت، وأن يحاول الحصول على تمثيل بعض الوكالات التجاريّة، لكنّه لم يعبأ.

يومذاك، كان الأرثوذكس في عكّار يتمثّلون بنائب من أربعة، أمّا الثلاثة الآخرون فمارونيّ وسنّيّان أحدهما زعيم المنطقة التقليديّ، ذاك أنّ الزعامة انقسمت بين «قطبين» هما رئيسا اللائحتين المتنافستين: سليمان العلي وبشير العثمان الذي خلف محمّد العبّود في الزعامة، والثلاثة ينتمون إلى عشيرة آل المرعبيّ ذات الأصول الكرديّة. يومذاك، كان بعض العكّاريّين حين يقارنون العلي بالعثمان يقولون إنّ الثاني «آدميّ وما بيأذي» فيما الأوّل «مجرم»، ما يحملهم على التصويت له من غير تردّد.

وبدورهم، توزّع الأرثوذكس على حزبيّتين، واحدة توالي رؤوف حنّا، والأخرى توالي يعقوب الصرّاف. والمذكوران يمثّلان عائلتين كبريين في قريتيهما اللتين عُدّتا من أكبر قرى عكّار: رحبة ومنيارة.

لقد صدرا عن أسرتين مالكتين للأرض، والأرجح أنّ أموال الهجرة ما أتاح ذلك لحنّا، فيما الوظيفة الإداريّة في عهد الانتداب وفّرتها

للصـرّاف. لكـنّ رؤوف كان أمّيًّـا، ارتبطـت باسـمه دعابـة ربّمـا نُسـبت إلـى زمـلاء آخريـن لـه حلّـوا نوّابًـا فـي برلمانـات الخمسـينيّات ولـم يفوقـوه علمًـا أو ذكاء. فقـد شـاع أنّـه كان يغفـو فـي جلسـات البرلمـان فـلا يُسـمع صوتـه إلّا حيـن يحتـجّ، لأنّ الشـمس المتسـلّلة مـن النافـذة يشـتدّ وهجهـا عليـه: «أزيحـوا السـتارة فـي ذاك الاتّجـاه، لا فـي هـذا»، كان يصـرخ متذمّـرًا.

الصـرّاف، فـي المقابـل، كان طبيبًـا. لكـنْ، لـم يُعـرف عنـه الكثيـر. أبـرز صفاتـه التـي تـردّدت شـعبيًّا أنّـه «مـع الدولـة»، لكنّـه فـي أواخـر العهـد الشـمعونيّ، لـم يعـد «مـع الدولـة» لأنّ «الدولـة» لـم تعـد «معـه». فهـو لا يستسـيغ التطـرّف المنسـوب إلـى كميـل شـمعون، لإدراكـه أنّ أكثريّـة المقترعيـن فـي عـكّار سـنّةٌ يعارضونـه. وهـذا فضـلًا عـن أنّ خصمـه رؤوف حنّـا كان مقرّبًـا جـدًّا مـن الرئيـس الراحـل. هكـذا، انضـمّ الصـرّاف إلـى «أنصـار السـلم» وبـات الشـيوعيّون يحسـبونه صديقًـا ويصنّفونـه، بطريقتهـم، «شـخصيّةً ديمقراطيّـةً». وكان الرائـج عنـه أنّـه يملـك «الشـرعيّة الطائفيّـة»، لأنّ مطـران الأرثوذكـس يؤيّـده ظالمًـا أو مظلومًـا، وأنّـه «قصيـر اللسـان» لا يهاجـم أحـدًا فـي القريـة أو المنطقـة أو لبنـان. مـع هـذا، كان الصـرّاف فـي بعـض مجالسـه القرويّـة يهاجـم «الحلـف الأطلسـيّ»، فيتأكّـد الشـيوعيّون، وهـم كثيـرون نسـبيًّا بيـن الـروم، أنّهـم وضعـوا ثقتهـم فـي أيـدٍ أمينـة، ويصوّتـون لـه بحماسـة.

أفـراد عائلـة الصـرّاف كانـوا يوصفـون بمهـارة اسـتثنائيّة فـي اسـتمالة الخصـوم أو تحييدهـم. فـكان يُقـال إنّهـم حيـن يسـمعون الشـتيمة توجّـه إليهـم يتظاهـرون بالطـرش. وعلـى عكـس خالـي الـذي كان لسـانه يلعلـع فـي الاتّجاهـات كلّهـا، نُسـب إلـى الصـرّاف وعائلتـه أنّهـم ممّـن يجيـدون السياسـة، تبعًـا لقدرتهـم علـى إخفـاء آرائهـم وانفعالاتهـم. فهـم، بسـبب ألسـنتهم، يحوّلـون أعداءهـم أصدقـاء، فيمـا نحـن، وفقًـا لأحـد أقاربنـا

«الواقعيّين»، نحوّل الأصدقاء أعداءً بسبب لسان خالي المدعوم بألسنتنا النشطة.

لقد كان سلوكهم أرثوذكسيًّا نموذجيًّا في منطقة لا يزيد أرثوذكسها عن ربع السكّان، يُرضون الجميع، مَسوقين بحدّة إحساسهم بالعدد وتوازناته. أمّا خالي، فعمل وفق فلسفة أخرى: صحيح أنّ قريته بينو أصغر من قريتَي رحبة ومنيارة، فيما عائلته نفسها من أصغر عائلات بينو، بحيث إنّ الذين كانوا يؤيّدونه في القرية لم يتجاوزوا ثلث سكّانها. مع ذلك، كان يتصرّف كما لو أنّه يملك قوّة تعادل قوّة أيّ زعيم مسلم، الأمر الذي عاد جزئيًّا إلى تضخّم في الأنا، وجزئيًّا إلى نزعته العروبيّة المناهضة لشمعون. هكذا، لم يتصرّف تصرّف المسيحيّ الذمّيّ المُطالَب بإرضاء القطب المسلم في كلّ شيء. عبدالناصر كان قطبه الضمنيّ الأعلى.

اللوائح الثلاث... على أيّة حال، تشكّلت لوائح ثلاث في عكّار عام ١٩٥٧. الأولى، التي أسماها الناس «لائحة الدولة» وفازت، كان على رأسها بشير العثمان وضمّت عبدالكريم القدّور ورؤوف حنّا وميشال الضاهر. لقد وُصف الأربعة الفائزون بالشمعونيّة. أمّا اللائحة الثانية فضمّت جود الإبراهيم وعبدالكريم مراد ويعقوب الصرّاف وألبير الحاجّ، ممّن لم يكونوا مناهضين لشمعون، إلّا أنّ الأخير فضّل اعتماد اللائحة الأولى لأنّ أعضاءها، خصوصًا حنّا والضاهر، مجاهرون في شمعونيّتهم. وبدورها، فاللائحة الثالثة التي كان في عدادها خالي، عانت نقط ضعف أساسيّة: رئيسها المفترض سليمان العلي موضوعٌ رهن الإقامة الجبريّة في «فندق ريجنت» في بيروت، حيث جريدة «النهار» اليوم، ذاك أنّ العلي وشقيقه مالك حُكما بالتحريض على اغتيال الزعيم العكّاريّ المنافس محمّد

العبّود. وبالفعل، ففي صيف ١٩٥٣، اغتيل العبّود أمام مدخل القصر الجمهوريّ.

وعلى رغم العلاقة الوثيقة بين العلي وشمعون، كان من المُحرج تجاهل ما فعله الأوّل، فأُنزلت به عقوبة مخفّفة، ما ألجأ عائلته إلى ترشيح الأخ الثالث، ناصر. لكنّ الشيء الوحيد الذي عُرف به الأخير أنّه يفرق شَعره في منتصف رأسه، ما لم يكن مألوفًا بتاتًا. أمّا حين يتحدّث، فيغمزه رجل مسنّ، كلّفه سليمان الوصايةَ على أخيه الأصغر، بأن يصمت. وبدورهم، كان الثلاثة الآخرون علي عبدالكريم وميشال عبّود وخالي.

والحال أنّ المرشّحين السنّة الستّة على اللوائح الثلاث كانوا ملّاكي أراضٍ، خمسة منهم من المراعبة الذين شكّلوا ثلث مجموع السنّة العكّاريّين، فيما السادس، عبدالكريم مراد، ينتمي إلى البيت الوحيد في عكّار الذي لُقّب بالبكويّة من دون أن يكون مرعبيًّا. وإذ انقسم المرشّحون الأرثوذكس الثلاثة إلى مَلّاك أراض وطبيب ومحامٍ، فالموارنة الثلاثة كانوا طبيبًا ومحاميًا وملّاكًا. هكذا، عبّرت خريطة التمثيل الاجتماعيّ عن واقع الطوائف، حيث تُرك ثلثا السنّة من فلّاحين ومزارعين مقصيّين تمامًا عن السياسة.

ولأنّ سليمان العلي كان رهن الإقامة الجبريّة، أُتيح لخالي، العضو في لائحة «بيت العلي»، أن يتمادى في مناهضته شمعون، علمًا أنّ أسبابه لا صلة لها بمشكلة الأخير مع العلي.

لكنّ الخال ذهب أبعد: فقد راح يهاجم «الإقطاع» بضراوة، ويردّد أنّ «الأرض لمن يفلحها». ولتأثّره بأصداء صينيّة بعيدة، وبأكرم الحوراني وتجربته في ريف حماة، أصدر كرّاسًا صغيرًا أراده، على عكس المألوف، برنامجًا انتخابيًّا. لقد حضّ برنامجُه على توزيع ملكيّات الأرض الكبرى على الفلّاحين. لكنْ، حين كان يسأله أحد

النبهاء القليليـن عـن عضويّتـه فـي «لائحـة بيـت العلـي»، وهـم أكبـر «الإقطاعيّيـن»، كان يخـرج بفتـوى لا تُقنـع إلّا الضالعيـن فـي ريفيّـة ذلـك الزمـن: البكـوات «أوادم» و«زعـران، وآل العلـي «أوادم».

ولـم يكـن البرنامـجُ الانتخابـيّ الجديـدَ الوحيـد فـي انتخابـات ١٩٥٧، ذاك أنّ الخـال، واسـمه خالـد، كتـب فـي أسـفل صورتـه بيتَـي شـعر لعمـر أبـو ريشـة ينحـاز فيهمـا إلـى خالـد بـن الوليـد فـي نزاعـه مـع عمـر بـن الخطّـاب:

لا تقلْ ذلّتِ الرجولةُ يا خالـدُ　　واستسلمتْ إلى الخذلانِ

إنّما قادةُ القطيعِ إلى المرعى　　رعاةٌ جريحةُ الوجــدانِ

أمّـا أنـا الـذي حفظـت البيتيـن، فكانـت مهمّتـي الانتخابيّـة أن ألقيهمـا كلّمـا رأيـت عشـرة أشـخاص متجمّعيـن. واليـوم، لا أشـكّ فـي أنّ كثيريـن ممّـن عبّـروا عـن استحسـانهم، كانـوا فـي سـرّهم يسـتهجنون ثقـل الـدم الـذي انطـوى عليـه ذلـك الولـد المتبجّـح الـذي كنتُـه.

مـا كان ممتعًـا، هـو الهتافـات المسـجّعة التـي كان يهتفهـا أنصـار المرشّـحين، بلهجـة عكّاريّـة حـادّة تطحـن الألـف وتحوّلـه واوًا. فالذيـن يهتفـون لخالـي، مثـلًا، كانـوا يقولـون:

خولد بيكْ لا تهتمّْ | عندك زلمْ بتشرب دمّْ

وكـان الأكثـر تفـاؤلًا بينهم يهتفـون:

خولد بيكْ خولد بيـكْ | والنِيَابِـي لعينيك

١٩٥٨-١٩٦٠ لكـنْ، قبـل أن تمـرّ سـنة علـى الانتخابـات التـي عُرفـت بتزويرهـا، اندلعـت التظاهـرات التـي سـبقت حـرب ١٩٥٨ الأهليّـة. خالـي الـذي حُكـم بالإعـدام وفـرّ إلـى سـوريا، أقـام فـي حمـص، ومنهـا راح

يرسل أسلحة إلى عكّار أو يستقبل فيها شبّانًا عكّاريّين يقصدونه عُزّلًا ويعودون مسلّحين. هكذا، صرنا نتعثّر بالرصاص في ممرّات بيت جدّي، ولم يكن من غير العاديّ أن يلمّ واحدنا «مشط رصاص» عن الأرض ليضعه في مكان أعلى. لكنّ المدهش أنّ بعض السلاح والرصاص المرسلَين كانا يصبّان في خزائن بيت العلي المناوئين لـ «الثورة».

هذا السلوك لم يُفهم سببه إلّا بعد عامين. ففي ١٩٦٠، وكانت «الثورة» انتهت فيما انتُخب فؤاد شهاب رئيسًا، أجريت انتخابات عامّة أخرى. وقد بدا يومذاك أنّ خالي سيكون عضوًا في لائحة العلي الذي طالت حيرته وتردّده بين اختياره واختيار الصرّاف. فالخال زوّده بالسلاح قبل عامين، واكتسب شعبيّة معتبرة بين المسلمين بسبب دوره في «الثورة»، كما بسبب صورة وُزِّعَت تظهره وهو يصافح جمال عبدالناصر في دمشق. لكنْ، إذا كانت الشهابيّة تهضم عروبيًّا في منطقة غير حدوديّة، فهي لا تهضمه في منطقة تبعد أميالًا من سوريا، فكيف إذا كان مسيحيًّا.

لقد أدرك العلي أنّ اصطحاب الصرّاف على لائحته يؤمّن له «عطف الدولة» الذي يخسره باصطحاب خالي. هكذا، ضمّت اللائحة، فضلًا عنه وعن الصرّاف، علي عبدالكريم ورشدي فخر الذي كان ضابطًا سابقًا تجمعه صداقة متينة بقائد الجيش الذي كانه شهاب. أمّا اللائحة المقابلة التي شكّلها بشير العثمان فضمّت بهيج القدّور ورؤوف حنّا وميشال الضاهر. وبدوره، خاض الخال الانتخابات منفردًا.

ومن دون أن تردعها، هذه المرّة، أيّة عضويّة في لائحة يرأسها «إقطاعيّ»، انطلقت الحملة على «الإقطاع». وإلى الحملة، كان يتواصل، في القرى المسلمة، دون المسيحيّة، التذكير بأمجاد «ثورة ٥٨» والشراكة، من موقعين مختلفين، فيها.

علـى أنّ البهجـة لـم تطـل. فمـا كادت تنقضـي سـاعتان علـى بـدء الاقتـراع، حتـى أعلـن المرشّـحون جميعًـا، مـا خـلا لائحـة العلـي، مقاطعـة الانتخابـات. لقـد طالبـوا مؤيّديهـم بالامتنـاع عـن التصويـت احتجاجًـا علـى مـا يمارسـه «المكتـب الثانـي» مـن تزويـر لمصلحـة «سـليمان بيـك» ولائحتـه.

يومـذاك، تـداول بعـض العكّاريّيـن قصصًـا شـتّى عـن طائـرات هيليكوبتـر، وكانـت الكلمـة جديـدة علـى أسـماعنا، تنقـل الصناديـق مـن القـرى النائيـة إلـى حلبـا، مركـز القضـاء، كـي تُفـرَز الأصـوات فيهـا. أمّـا العبـارة الذائعـة، فهـي أنّ ناقلـي الصناديـق مـن العسـكريّين كانـوا يُتلفـون كلّ ورقـة إن لـم تكـن تحمـل أسـماء العلـي ولائحتـه.

وبالفعـل، حـلّ الأخيـرون فـي البرلمـان الشـهابيّ الأوّل، فيمـا تولّـى سـليمان العلـي وزارة الاقتصـاد فـي الحكومـة الموسّـعة التـي شـكّلها صائـب سـلام. لكـنّ القطـب العـكّاريّ مـا لبـث أن انضـمّ إلـى المعارضـة، مـا أفقـده حظـوة الشـهابيّة وأجهزتهـا. هكـذا، اسـتُعيد الغـزل بينـه وبيـن خالـي الـذي أطـلّ عليـه عـام ١٩٦٣ إطلالـة مشـرقة. ففيـه، اسـتولى البعثيّـون علـى السـلطة فـي سـوريا وشـكّل صـلاح الديـن البيطـار حكومـة ضمّـت عـددًا مـن أصدقائـه وزمـلاء صفّـه أيّـام الدراسـة فـي دمشـق. ولمّـا كان قـد انحـاز إلـى البعـث بعـد انفجـار خلافـه مـع الناصريّـة، حليفـة الشـهابيّة، باتـت مسـاحة التلاقـي مـع العلـي أوسـع وأعـرض.

فـي تلـك الأثنـاء، اعتُقِـل ضابـط سـوريّ اسـمه جـلال مرهـج، اتّهمتـه الدولـة اللبنانيّـة بأنّـه تسـلّل للقيـام بأعمـال تخريبيّـة فـي لبنـان. ووفقًـا للاتّهـام، كان شـريكه فـي هـذه الأعمـال قحطـان حمـادة، السياسـيّ الشـوفيّ المقـرّب مـن كميـل شـمعون، والـذي حـلّ إبّـان عهـده، فـي انتخابـات ١٩٥٧، فـي المقعـد الـذي حُـرم منـه كمـال جنبـلاط.

وإذ تولّـى الخـال الدفـاع عـن مرهـج واتّهـام «المكتـب الثانـي» الشـهابيّ

والسـفارة المصريّـة فـي بيـروت باختـلاق المسـألة، ضاقـت المسـافة التـي تفصلـه عـن شـمعون، وبـات ممكنًـا طـي صفحـة الــ ٥٨ وخصومتها. وبتأثيـر سـليمان العلـي ومحسـن سـليم، النائـب المعـارض يومـذاك عـن دائـرة بيـروت الثانيـة، والمحامـي البـارز الـذي كان خالـي يعتبـره زميـلًا وصديقًـا كبيـرًا، بـات يحضـر اجتماعـات المعارضـة التـي يتصدّرهـا شـمعون. وقـد فهمـت لاحقًـا أنّ دمشـق كانـت مرحّبـة بهـذه الخطـوة يخطوهـا «صديـق الحـزب»، ومتمهّلـة فـي قيـام صديقـه عبدالمجيـد الرافعـي بمثلهـا. فالأخيـر حزبـيّ، لقـاؤه المعلـن بشـمعون لا بـدّ أن يسـتخدمه الناصريّـون للتشـهير بالبعـث ونظامـه الجديـد.

١٩٦٤ فـي ذلـك المنـاخ، أجريـت انتخابـات ١٩٦٤ التـي قـرّر فيهـا شـهاب سـحق المعارضـة المسـيحيّة التـي بـات العلـي محسـوبًا عليهـا. وبالجذريّـة نفسـها التـي اعتمدهـا شـمعون فـي سـحقه المعارضـة المسـلمة فـي ١٩٥٧، حيـن رسّـب صائـب سـلام وأحمـد الأسـعد وكمـال جنبـلاط، رُسِّـبَ كميـل شـمعون وريمـون إدّه.

أمّـا فـي عـكّار فتشـكّلت ثـلاث لوائـح، أولاهـا، وهـي التـي فـازت، ضمّـت بشـير العثمـان وبهيـج القـدّور ويعقـوب الصـرّاف وفخـر فخـر الـذي حـلّ محـلّ أخيـه المتوفّـى رشـدي. وبدورهـا، ضمّـت الثانيـة، إلـى العلـي وخالـي، كلًّا مـن علـي عبدالكريـم والمحامـي مخايـل الضاهـر، فيمـا ترشّـح، فـي اللائحـة الثالثـة، محمّـد الأسـعد، قريـب الراحـل محمّـد العبّـود، وجـود الإبراهيـم ورؤوف حنّـا وميشـال الضاهـر.

أمّـا التمثيـل الاجتماعـيّ فلـم يتغيّـر عمّـا كان، ذاك أنّ المرشّـحين السـتّة مـن السـنّة مراعبـة وملّاكـو أراضٍ، فيمـا تتزيّـن كلّ واحـدة مـن اللوائـح بمحـام أو طبيـب مسـيحيّ، أو ثـريّ جنـى ثروتـه فـي المهجـر، كـرؤوف حنّـا وميشـال الضاهـر.

لكـنّ لائحـة العلـي ضمّـت محاميـن كلّ منهمـا مشـكلة، حتـى قيـل أنّ معرفـة العلـي المسـبقة بـأنّ شـهاب لـن يسـمح بفـوزه هـي التـي حملتـه علـى هـذا الضـرب الانتحـاريّ باصطحابـه هذيـن المحاميـن. فالخـال كان متّهمًـا بالبعثيّـة، وكان غالبًـا مـا يُذكَّـر بدفاعـه عـن جـلال مرهـج وكثـرة تـردّده علـى دمشـق، فيمـا اتُّهـم مخايـل الضاهـر بالقوميّـة السـوريّة لدفاعـه عـن فـؤاد عـوض، أحـد الضبّـاط الثلاثـة الذيـن نفّـذوا محاولـة الانقـلاب القومـيّ فـي ليلـة رأس السـنة ١٩٦١-١٩٦٢. ولتأكيـد الإصـرار علـى إسـقاط لائحـة العلـي، شـاعت روايـة تفيـد بـأنّ «المكتـب الثانـي» هـو الـذي شـكّل اللائحـة الثالثـة كلائحـة «تفطيـس»، تنتـزع مـن لائحـة العلـي أصواتًـا «تفطّسـها» وتفضـي إلـى فـوز لائحـة العثمـان.

لكـنْ، إبّـان الحملـة الانتخابيّـة، وفـي يـوم اسـتضافة اللائحـة فـي بيتنـا فـي بينـو، وجـدتُ خالـي يجذبنـي مـن يـدي إلـى الغرفـة التـي عُـزل فيهـا العلـي وأفـراد اللائحـة عـن الجمهـور المحتشـد فـي الخـارج. لقـد أراد أن يُسـمعه مـن خلالـي ـ أنـا ابـن الثالثـة عشـرة الـذي لا يؤاخَـذ علـى كلامـه ـ شـيئًا لا يسـعه هـو نفسـه أن يقولـه مباشـرة. وحيـن أصبحـت وجهًـا لوجـه أمـام البيـك، طلـب منّـي الخـال أن أتلـو قصيـدة عـن «الإقطـاع»، فألقيـت قصيـدة لسـليمان العيسـى تتوعّـده بمزابـل التاريـخ. لقـد صفّقـوا، وضحكـوا لـي وضحكـوا علـيّ فـي الوقـت عينـه، ثـمّ ناداني البيـك وقبّـل خـدّي، فيمـا قـال خالـي، هـازًّا رأسـه هـزّة توحـي بمعـانٍ متضاربـة: «يـا عمّـي، كيـف طالـع هالجيـل!»، طالبًـا منّـي أن أغـادر الغرفـة.

١٩٦٨ لـم تلبـث العلاقـة بيـن العلـي والخـال أن تردّت بعـد انتخابات ١٩٦٤. فنهايـة العهـد الشـهابيّ واختيـار شـارل حلـو رئيسًـا، جعـلا البيـك العـكّاريّ يعتـدل، ذاك أنّ معارضـي الشـهابيّة بـدأوا يراهنـون علـى انزيـاح

بطيء عنها يُحدثه الرئيس الجديد. ورهانهم كان في محلّه، إذ حلّت في تلك الغضون هزيمة الناصريّة في ١٩٦٧، وتسلّم سليمان فرنجيّة وزارة الداخليّة التي أجرَت الانتخابات بعد عام، مسجّلة الفوز الساحق لـ «الحلف الثلاثيّ» في الجبل.

أمّا خالي فاختلفت حساباته، ذاك أنّ دمشق، خصوصًا بعد انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦، راحت تتطرّف أكثر فأكثر. لقد صار تحالفه كمُتَّهم بالبعثيّة مع «البيك الشمعونيّ» سليمان العلي موضع استبعاد الطرفين، وهو ما راحت الأيّام تخصّب العداوة التي فيه. هكذا، خيضت الانتخابات بلوائح ثلاث، اثنتان منها ترأّسهما البيكان التقليديّان، العلي والعثمان. بيد أنّ الأوّل لم ينجح في أن يحقّق، في عكّار، ما حقّقه زملاؤه في جبل لبنان. هكذا، رسب العلي، ومعه على لائحته، جود الإبراهيم ورؤوف حنّا ومخايل الضاهر، فيما فاز العثمان، مصحوبًا ببهيج القدّور ويعقوب الصرّاف وفخر فخر. أمّا اللائحة الثالثة فضمّت إلى خالي بيكين ثانويّين هما عبدالكريم مراد ومحمّد عبدالكريم، والمارونيّ ميشال الضاهر. يومذاك، قال لفيف آل العلي أنّ هذه الأخيرة هي «لائحة التفطيس» التي اعتمدها «مكتب ثانٍ» يترنّح.

في تلك الانتخابات، ذبح العمّ نسيم ديكًا داخل سيّارته «التَونِس»، وراح يجوب القرى المسلمة والمسيحيّة، فيقول في الأولى إنّ «جماعة العلي ذبحوا شيخًا في سيّارته، وهذا دمه»، ثمّ يقول في القرى الثانية أنّ الجماعة نفسها ذبحت كاهنًا. ولئن لم تتسبّب حملة العمّ نسيم في أيّ تحوّل نوعيّ في نتائج الانتخابات، وكان هذا شهادة لمصلحة الوعي والحصافة، فإنّ ما لم يكن كذلك إقدامُ أحمد على التلويح بعصاه حين التقى موكبا اللائحتين المتخاصمتين في طريق ضيّق من طرقات بلدة عكّاريّة نائية. في تلك اللحظة، وقعت على

أحمـد عيـن الخـال، فطلـب منـه بحـدّة وعصبيّـة أن يرمـي عصـاه وألّا يضـرب بهـا أحـدًا ممّـن تطـلّ رؤوسـهم مـن سـيّارات الموكـب الآخـر. لكـنّ أحمـد الـذي يؤمـن بـأنّ العصـا التـي تُرفـع ينبغـي أن تُسـتعمل، شـاء، منعًـا للعـار، أن يخبـط بهـا رأس أخيـه. يومـذاك، نُقـل أخـوه إلـى المستشـفى، ومنـه إلـى المصـحّ، وبعـد ذلـك انقطعـت أخبـاره.

إلـى الـدم... فـي مقابل ما كان يحصل في دمشـق، أواخر السـتّينيّات، بـدأ أغنيـاء بيروتيّـون ومقيمـون فـي بيـروت يسـتثمرون فـي سـهل عـكّار. وهـم اسـتثمروا بوسـائل أرقـى مـن التـي كانـت سـائدة ومتوارثـة جيـلًا عـن جيـل وأحـدث. هكـذا، راحـت تتجمّـع علامـات تصـدّع اجتماعـيّ وتذمّـرات فلّاحيّـة وجـدت فـي البكـوات المحلّيّيـن أعداءهـا المباشـرين. ومـا بيـن ١٩٦٩ و١٩٧١ كان خالـي محامـي الفلّاحيـن، كمـا بـات مكتبـه فـي طرابلـس خليّـة نحـل لمطالبهـم. قضيّـةٌ محقّـة أخـرى ومتفجّـرة أيضًـا تولّـى الدفـاع عنهـا آنـذاك، هـي تجنيـس «عـرب وادي خالـد» الذيـن لـم تـؤدّ إقامتهـم المديـدة فـي «الـوادي» إلـى منحهـم الجنسـيّة اللبنانيّـة.

لكـنّ طرائـق الدفـاع عمّـا هـو مُحـقّ ليسـت بالضـرورة مُحقّـة دومًـا. فآنـذاك، كانـت الأسـلحة التـي يهرّبهـا «الشـباب» مـن سـوريا تتكـدّس فـي القبـو الواسـع وراء مطبـخ بيـت جـدّي. وكانـت «دبّابـات صـلاح جديـد»، كمـا كان البعـض يسـمّونها، تختـرق الحـدود اللبنانيّـة بإيقـاع أسـبوعيّ تهتـف لـه أرواحنـا لأنّهـا «تخيـف حكّامنـا» و«تهـدّد البكـوات». وتحـت طبقـات الضجيـج، كانـت تتـردّد ثرثـرات تفيـد بـأنّ حركـة «فتـح» الفلسـطينيّة تسـلّح «الإقطاعيّيـن» السـنّة، فيمـا «الصاعقـة» السـوريّة تسـلّح فلّاحـي السـهل، لا سـيّما العلويّيـن المقيميـن فيـه والمهاجريـن حديثًـا إليـه.

فـي هـذه الأجـواء الحـادّة والمحتقنـة، أجريـت انتخابـات ١٩٧٢ التـي

لـم أشـهدها. بيـد أنّ أخبارهـا كانـت تصلنـي تفصيـلًا تفصيـلًا، ليـس لسـبب بيتـيّ فحسـب، بـل أيضًـا لأنّنـي كنـت أسـمّي نفسـي «ماركسـيًّا لينينيًّـا» معنيًّـا بالأمـر، وحيـن كنـت أُسـأل عـن علاقتـي بخالـي كنـت أقـول متفاصحًـا إنّهـا «تأييـد نقـديّ»، ذاك أنّـه، وفقًـا للغـة ذلـك الزمـن، «بورجـوازيّ صغيـر» بجميـع المثالـب التـي حمّلتهـا الماركسـيّة لحاملـي هـذه التسـمية. إلّا أنّـه، مـع هـذا، خـاض مغامـرة وكسـر مألوفًـا.

ففـي تلـك الانتخابـات، تـرك كلّ مـن العلـي والعثمـان مقعـد الـروم الأرثوذكـس شـاغرًا علـى لائحتيهمـا. أمّـا السـبب فـأنّ سـليمان فرنجيّـة، الـذي فـاز برئاسـة الجمهوريّـة قبـل عاميـن، رشّـح صهـره المهاجـر عبدالله الراسـي للمقعـد الأرثوذكسـيّ فـي عـكّار. وإرضـاءً للرئيـس، تشـاركت اللائحتـان المتنافسـتان فـي ترشـيح الصهـر الـذي أجمـع عليـه البيـكان.

ردًّا علـى ذلـك، لـم يكتـف الخـال بالترشّـح، بـل شـكّل لائحـة ضمّـت، أوّل مـرّة فـي تاريـخ عـكّار، مرشّـحين سـنّيّين همـا موظّفـان بسـيطان فـي التعليـم وفـي وزارة الزراعـة، اسـتقالا مـن عملهمـا كـي يخوضـا المعركـة. أهـمّ مـن ذلـك أنّ هذيـن الشـريكين، محمّـد أحمـد البعرينـي ومعـن ملحـم، لـم يكونـا مرعبيّيـن، فيمـا ترشّـح النقيـب فـؤاد عـوض، صاحـب الانقـلاب السـتّينيّ، عـن المقعـد المارونـيّ.

فـي تلـك الانتخابـات، كان التذكيـر بــ «ثـورة الفلّاحيـن» فـي سـهل عـكّار قويًّـا ويوميًّـا، ومـا كادت تنتهـي الانتخابـات التـي فـازت فيهـا لائحـة العلـي، كمـا فـاز الراسـي بأصـوات لائحتيـن، حتـى بـدأ الاقتـراع بالرصاص: علـى مقربـة منّـا، فـي طرابلـس، أقـام المدعـوّ أحمـد القـدّور، مدعومًـا مـن «حركـة فتـح» مـا سُـمّيَ «دولـة المطلوبيـن» فـي أسـواق المدينـة، وتلاحقـت اغتيـالات ومحـاولات اغتيـال، توّجهـا مصـرع الخـال فـي واحـد مـن أيّـام ١٩٧٤. آنـذاك، كانـت الانتخابـات، فـي لبنـان كلّـه، تسـلّم تاجهـا للـدم.

حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ في لبنان

إلى فادي الأمين

فـي أواخـر الأربعينيّـات، بعـد عـام علـى «النكبـة» الفلسـطينيّة، وفيمـا المشـرق يبحـث عـن معنًـى لـه، ظهـر «حزب البعـث العربـيّ الاشـتراكيّ» فـي لبنـان. كان ذلـك بعـد سـنتين علـى التأسـيس الرسـميّ لـ «حـزب البعــث العربــيّ» فــي ســوريا، حــزب ميشــال عفلــق وصــلاح الديــن البيطـار، وقبـل أربـع سـنوات علـى الاندمـاج مـع «الحـزب الاشـتراكيّ العربـيّ» لأكـرم الحورانـيّ.

وكان علـي جابـر، المولـود فـي ١٩٢٣، أوّل المقبليـن علـى الدعـوة وأوّل الأمنــاء القُطريّيــن، بحســب القامــوس العقائــديّ والتنظيمــيّ للحــزب. وجابـر ابـن عائلـة مـن التجّـار والأعيـان المتوسّـطين فـي مدينـة النبطيّـة، درس الطـبّ فـي دمشـق، وبصفتـه هـذه حضـر مؤتمـر ١٩٤٧ التأسيسـيّ. فحيــن عــاد إلــى لبنــان، أقــام عيادتــه فــي النبطيّــة، واســتقطب إلــى البعـث فلّاحيـن شـبّانًا منهـا ومـن قـرى محيطهـا المجـاور.

ولمّـا كانـت الجامعـة الأميركيّـة فـي بيـروت مقصـدًا لطـلّاب عـرب، بينهـم بعثيّـون كالعراقـيّ سـعدون حمـادي، الـذي اضطلـع بـدور نشـط في نشـر الدعـوة فـي لبنـان، والبحرينـيّ علـي فخـرو، والأردنـيّ جمـال الشـاعر، والســوريّ عاطــف دانيــال، فقــد انجــذب إليهــم اللبنانــيّ الصيــداويّ وطالـب الاقتصـاد، والاقتصـاديّ لاحقًـا، محمّـد عطاالله، وكلّهـم ولـدوا علـى ضفّتـي ١٩٣٠.

والحال أنّ الجامعة الأميركيّة كانت، بعد دمشق، المهد الأوّل للبعث اللبنانيّ، وإن قلّ دورها هذا عن دورها في انبثاق «حركة القوميّين العرب». ففي وقت يرقى إلى ١٩٥٢، دعا بعثيّو الأميركيّة إلى «مهرجان جماهيريّ» لمناسبة «عيد الشهداء» في السادس من أيّار (مايو)، على أن يقام في مدرسة المقاصد الإسلاميّة في صيدا تحت عنوان «شهداء العرب». هناك، رُفِعَت شعارات الحزب الوليد وكان الخطباء هم طلبة الجامعة الأميركيّة البعثيّين إيّاهم.

وبدورها، غدت مقاصد صيدا، بعد المهرجان المذكور، مهدًا آخر. ففي المقاصد، انتمى طلّاب كمصطفى الدندشلي من صيدا، وعاصم قانصوه من بعلبك، وفؤاد ذبيان من مزرعة الشوف، ورياض رعد من ضاحية بيروت الجنوبيّة. لكنّ لولب البعث في المقاصد كان الصحافيّ والمحامي اللاحق غسّان شرارة من بنت جبيل.

وبعثيّة الأخير، المولود في ١٩٣٣، جاءت ثمرة البيت أيضًا. فوالده الشاعر موسى الزين شرارة، الذي عُرف بقصائده المندّدة بعهود الاستقلال، كان يرعى في منزله حلقات ذات طابع أدبيّ وسياسيّ ينسجم مع توجّهاته العروبيّة. هكذا، مال غسّان إلى الرسالة العفلقيّة، ومثله فعل ابن عمّه طلال، المحامي ورجل الأعمال اللاحق، ومعهما آخرون من الأقارب، حتى عُدّ البعث، في بنت جبيل، حزب آل شرارة.

لكنْ، إذا كانت الجامعة الأميركيّة قد وسمت البعث بميسم طبقيّ وثقافيّ ما، فإنّ عالم المدارس التي كان يكثر تلامذتها كما يتضاعف معلّموها، وسمه بميسم طبقيّ وثقافيّ آخر. وهذا ما لم يُعدم مضموناه الطبقيّ والطائفيّ اللذان خرجا لاحقًا إلى النور، وإن بقدر من التحوير والمداورة.

وقد يجوز القول إنّ تاريخ البعث اللبنانيّ هو تاريخ محاولات التوفيق بين مصالح ورؤًى متضاربة لم يكن البعث، بخطابته العروبيّة ووحدويّته البسيطة، كافيًا لتذويب تضاربها. أمّا قيام نظامين بعثيّين في سوريا والعراق، ابتداء بـ ١٩٦٣، وتناحر البعثين المتروبوليّين ابتداء بـ ١٩٦٦، فلم يتأدّ عنه سوى تفجير ما تبقّى من وحدويّة الحزب الوحدويّ، بل من وجوده ذاته.

طلّاب وأساتذة على أيّة حال، فمنذ البدايات الأولى راح الوزن الذي يشكّله المعلّمون الرسميّون وتلامذتهم يتنامى. وقد نشط إنعام الجنديّ في مجال نشر الدعوة في الوسط هذا، وهو الكاتب البعثيّ السوريّ المقيم في لبنان، والعامل في التدريس والصحافة معًا.

كذلك، حضر أساتذة البعث الكبار. فقد جاء انتقال عفلق والبيطار والحوراني إلى بيروت، أوائل الخمسينيّات، هربًا من ديكتاتوريّة أديب الشيشكلي، بمثابة تأسيس لمحطّة مرجعيّة يحجّ إليها المحازبون الأوائل ويسألونها فتاواها. وطوال سنوات لاحقة، استُخدمت بيروت مطبعةً للبعث في سوريا، ومكانًا للقاء «الأساتذة» بالصحافيّين الأجانب، فضلًا عن توفيرها البيت والفندق والمقهى لبعثيّيها حين يهربون من حكّامهم العسكريّين. وهذا ما جعل عفلق وصحبه يتباهون بفهم الخصوصيّة اللبنانيّة، ويحرصون على توكيد المرونة في معاملة لبنان.

على أنّ هذا الطور التأسيسيّ نفسه سجّل استقبال الحزب قياديّين شابّين وفدا من «الحزب التقدّميّ الاشتراكيّ»، الجنبلاطيّ، هما المحامي البيروتيّ جبران مجدلاني، المولود في ١٩٢٨ لأبرز العائلات السياسيّة الأرثوذكسيّة في منطقة المزرعة، والذي كان ابن عمّه نسيم مجدلاني يتهيّأ لوراثة حبيب أبو شهلا وتزعّم مسيحيّي بيروت

الأرثوذكس، وموريس صقر، الكاتب الصادر عن الجرود الوسطى لجبيل المارونيّة، والذي امتهن الصحافة وعمل في «الأوريان» الناطقة بالفرنسيّة. فهذان، ومعهما كلوفيس مقصود، اعتبروا أنّ عروبة كمال جنبلاط أقلّ من المطلوب فيما لبنانيّته أكثر من المرغوب فيه، فانشقّوا عنه ليتّجه مجدلاني وصقر إلى البعث.

مراتب وطاقم حكم وفي مناخٍ شكّله الصعود الناصريّ عربيًّا ما بين حرب السويس في ١٩٥٦ والوحدة المصريّة ـ السوريّة في ١٩٥٨، معطوفًا على الافتقار التقليديّ إلى حزب يلتفّ حوله مسلمو لبنان، ولا تلبّيه «النجّادة» و«الطلائع» وما يماثلهما من أحزاب حانوتيّة، حضر البعث في معظم مناطق لبنان المسلمة، ولم يُعدم الوجود في طوائفه المسيحيّة. هكذا، ظهر في بيروت وطرابلس وصور وبنت جبيل والنبطيّة وبعلبك، كما ضمّ مئات الشبّان الصيداويّين ممّن عبروا مَطهر المقاصد، وخاطب شبكة واسعة من أساتذة التعليم الرسميّ، لا في صيدا فحسب، بل في الجنوب كلّه.

وكان ممّن انتسبوا من طرابلس، الطبيب العائد من سويسرا عبدالمجيد الرافعي، وهو من مواليد ١٩٢٧، ومن بيروت الجامعيّ عبدالوهاب شميطلّي، الذي تخرّج في اليسوعيّة وكان يصغر الرافعي بثلاث سنوات فيما يشاركه الانتماء إلى عائلة مشايخ دينيّين. كذلك، انتسب من بعلبك الوجيه والمحامي وابن العائلة السياسيّة غالب ياغي، المجايل لشميطلّي، ومن صور طالب العلوم السياسيّة العائد من الولايات المتّحدة علي الخليل، المولود في ١٩٣٣، وهو قريب الزعيم الصوريّ كاظم الخليل وخصيمه، وكذلك المحامي خالد العلي من عكّار، المولود في السنة ذاتها لأسرة أعيان قرويّين صغار. أمّا في

صيدا، فبعد محمّد عطاالله، استقطب البعث وجوهًا من عائلاتها السياسيّة والتجاريّة المؤثّرة، كالمحامي خالد لطفي، نجل شفيق لطفي، أحد مؤسّسي «حزب النداء القوميّ» وصديق آل الصلح، والاقتصاديّ هشام البساط، وكذلك النقابيّ حسيب عبدالجواد، المولود في ١٩٣٥ لأب فلسطينيّ الأصل وأمّ هي أخت صلاح البزري، أحد أبرز وجهاء صيدا عهدذاك.

وكان ممّا يُلاحَظ في نسبة عالية من الصيداويّين البعثيّين أنّهم درسوا في مصر بعد المقاصد الإسلاميّة، جريًا على تقليد استولى على المسلمين، السنّة والشيعة، الحداثيّين والقوميّين في الخمسينيّات. وبالفعل، ومن خلال غسّان شرارة، سيطر البعثيّون، حتى ١٩٦٠، على رابطة الطلّاب اللبنانيّين في القاهرة.

وجعل الحزب يضوي أفرادًا من ذوي الخلفيّات الأهليّة والعائليّة المتينة، على تعدّدها واختلافها، كالدكتور بشير الداعوق، سليل الأسرة البيروتيّة المعروفة ومؤسّس «دار الطليعة» للنشر وصاحبها، والطالب ثمّ المحامي فايز قزّي، ابن العائلة الكبيرة في الدامور والجيّة، وجهاد كرم، من قرية حامات المحيَّرة بين الكورة والبترون، المولود في ١٩٣٥، والذي تخرّج أيضًا في الجامعة الأميركيّة. وبمجدلاني وصقر وكرم وقزّي، غدا للبعث، فضلًا عن وجوهه المسلمة، وجوه مسيحيّة. وإلى فؤاد ذبيان، انضمّ وجه درزيّ آخر هو عصام نعمان، المحامي والوزير اللاحق، المولود في ١٩٣٧ والذي درس في الجامعة الأميركيّة أواخر الخمسينيّات، مثله مثل ليلى بقسماطي، التي اقترنت لاحقًا بالرافعي، وباسل عطاالله ونقولا الفرزلي، المهندس المدنيّ المولود في ١٩٣٨ والذي أكمل دراسته في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وابن العائلة الأرثوذكسيّة الموزّعة على الفرزل والقرعون وجبّ جنين. ولئن غدا شقيقه الياس الفرزلي

أقرب المقرّبين إلى عفلق، فابن عمّهما المحامي أديب الفرزلي كان قد دخل البرلمان منذ ١٩٤٨ نائبًا عن البقاع، وصار بعد ذلك نائبًا لرئيسه. كذلك، انتسب طالب الاقتصاد السياسيّ في الجامعة الأميركيّة، ثمّ أستاذه، زيد حيدر، المولود في بعلبك في ١٩٣٤. وفي عداد المنضوين المبكرين كان المهندس الفلسطينيّ ـ اللبنانيّ خالد يشرطي، ابن الأسرة المشيخيّة والشاذليّة المعروفة وخرّيج الجامعة الأميركيّة.

فحين انعقد المؤتمر التأسيسيّ الأوّل للحزب في لبنان، عام ١٩٥٦، والذي هيّأت له قيادة مركزيّة موقّتة على رأسها علي جابر، كان أكبر البعثيّين في أوائل ثلاثيناتهم وأصغرهم على تخوم العشرين. وقد انبثقت من المؤتمر المذكور قيادةٌ كان جابر أمين سرّها، فيما الأعضاء شميطلّي وياغي ومجدلاني والسوريّ إنعام الجنديّ والطرابلسيّ حسّان مولوي.

وكان الكثيرون من البعثيّين من أبناء أعيان ووجهاء ومشايخ باتوا أصحاب مهن حديثة، لا سيّما محامين، يليهم المهندسون والأطبّاء. وقد توزّع هؤلاء، الجامعون بين «الأصالة» و«الحداثة»، ريفيّين ومدينيّين، سنّةً وشيعةً، مع قليل من المسيحيّين ذوي المنابت الاجتماعيّة الوسطى والوسطى ـ العليا، معظمهم من خارج جبل لبنان أو من أطرافه.

وبفعل هذه الخلفيّة الطبقيّة، ولكنْ أيضًا بسبب تقديم البعثيّين أنفسهم ورثةً لـ «عصبة العمل القوميّ» ولـ «حزب النداء القوميّ» معًا، نموا على مقربة من مواقع ومؤسّسات ووجوه ليسوا عديمي الصلة بالنظام السياسيّ واحتمالاته ولا بالمراتب العائليّة وفُرصها.

فقد رعاهم واحتضنهم آل الصلح، حتى عُدّ الكاتب والسياسيّ منح

الصلح واحدًا منهم، يقترح عليهم ويتتلمذون عليه. وكانوا في بنت جبيل، وثيقي الصلة بالنائب علي بزّي، صديق موسى الزين شرارة، يتجنّدون لحملاته الانتخابيّة، وهي العلاقة نفسها التي ربطتهم في صور بالنائب جعفر شرف الدين، نجل المرجع الشيعيّ البارز عبدالحسين شرف الدين، والذي عُدّت مدرسته «الجعفريّة» معقلًا بعثيًّا منيعًا بدأ، مطالع الستّينيّات، يحلّ محلّ مدرسة المقاصد في صيدا، التي غزّتها «حركة القوميّين العرب»، في احتضان البعثيّين.

ومثلما كان تلامذة المقاصد من غير الصيداويّين ينقلون الدعوة إلى أريافهم في الإجازات وعُطل الصيف، غدا تلامذة الجعفريّة غير الصوريّين يفعلون الشيء نفسه، فيشعّ نور «الرسالة الخالدة» في قرى قلقة على غدها المُسرع والملتبس.

وكمثل العلاقة ببزّي وشرف الدين، مُدّت، في منطقة النبطيّة، جسور أخرى بين البعثيّين والشيخ علي الزين، المؤرّخ الحِرفيّ وابن العائلة الموزّعة على شحور وجبشيت وكفر رمّان، حيث زعامة يوسف الزين وأنجاله، فتعاطف معهم وحضّ المدرّسين والمتعلّمين الجدد على اعتناق عقيدتهم. وفي الحزب، انضوى المحامي الجنوبيّ المتخرّج في دمشق مالك الأمين، سليل الأسرة الدينيّة ذات الملكيّات الزراعيّة، فضلًا عن توزّع إقامتها على قرى شقرا والصوّانة ومجدل سلم وديركيفا. وبسبب زيد حيدر، وصل البعث مبكرًا إلى بيوت من آل حيدر البقاعيّين، الموزّعين على بدنايل وبعلبك واللبوة، وكانت للعائلة المذكورة زعامة سياسيّة بدأت بإبراهيم حيدر، ثمّ توّجها على صعيد القضاء النائب والوزير سليم حيدر، كما كانت لها مداخلات في الشأن القوميّ بدأت مع سعيد حيدر، أحد قادة ثورة ١٩٢٥ السوريّة، ورستم حيدر، المقرّب من فيصل الأوّل في دمشق.

وبيـن بقاعيّيـن، أعيـان متوسّـطين وصغـار، وفـدوا إلـى الحـزب، كان عبدالله سكّريّة مـن الفاكهـة فـي البقـاع الشـماليّ، وحسـين دلّـول مـن شمسطار، ومـا لبـث أن سـلك طريقهـم حسـين عثمـان الـذي رأس لاحقًـا المجلـس البلـديّ فـي مدينتـه بعلبـك، وألبيـر منصـور المولـود فـي ١٩٣٩، والـذي مـارس التعليـم الجامعـيّ والوظيفـة قبـل أن يغـدو نائبًـا ووزيـرًا، وهـو مـن جهـة الأمّ حفيـد لفـارس غنّـام، أحـد وجهـاء بلدتـه رأس بعلبـك وجوارهـا.

ولـم تنقـص البعثيّيـن الصداقـاتُ المتينـة مـع طامحيـن سياسـيّين جـاؤوا مـن خلفيّـات طبقيّـة مشـابهة، كأحمد سـويد فـي حاصبيّـا، وخالـد صاغيّة فـي عـكّار، وشـكيب جابـر فـي عاليـه. ولئـن كان الثلاثـة محاميـن، فـإنّ نقيـب المحاميـن التاريخـيّ فـي الشـمال، شـوقي الدندشـي، الصـادر عـن منطقـة حدوديّـة متداخلـة السـكّان فـي عـكّار، رعـى البعـث هـو الآخـر.

وليـس مـن المبالغـة القـول، فـي نظـرة إجماليّـة، إنّ الحـزب العفلقـيّ امتلـك، حتـى مطالـع السـتّينيّات، مـا يشـبه الطاقـم الحديـث مهنيًّـا والمرشّـح مبدئيًّـا أن يكـون بديـلًا مـن الطاقـم الحاكـم، وكان فـي عـداده الكثيـرون مـن أبنـاء العائـلات السياسـيّة المَقصيّـة عـن السـلطة، ومـن الأشـخاص الثانيـن فـي العائـلات المتربّعـة فـي السـلطة أو الزعامـة.

وكمـا فـي حـالات الخليـل وحيـدر والفرزلـي ومجدلانـي وسـواها، ظهـر الحـزب بيـن عشـائر البقـاع، حيـث انتسـب إليـه ابنـا العـمّ مفلـح ومفضل علـوّ، وهمـا نجـلا وجيهيـن يحـلّان فـي المرتبـة الثانيـة بعـد وجيـه العائلـة الأوّل حسـين محمّـد علـوّ. والشـيء نفسـه يقـال عـن الخيـام، حيـث انتسـب محمّـد العبداللـه، نجـل المفتـي، وهـو حفيـد الزعيـم السياسـيّ لعائلتـه قبـل أن يبـدّد نجلـه ووالـد محمّـد، المنصـرف إلـى الديـن والإفتـاء، هـذه الزعامـة التـي اسـتقرّت فـي بيـت آخـر مـن بيـوت آل العبداللـه.

ويُلاحَظ في نموّ البعث أنّ الأفراد الذين انتموا إليه يشملون بعضًا من الصادرين عن عائلات تعدّدت مراكز إقامتها، كعائلات حيدر والأمين والزين والفرزلي وقزّي. وربّما في شَبَهٍ ما مع تجربة آل الأشقر المتنيّين و«الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ»، تراءى لهؤلاء، على نحو غير موعى بالضرورة، أنّ الحزب إنّما يوحّد أطراف العائلة المشتّتة السكن ويمكّنها كقوّة سياسيّة.

أمّا أيديولوجيًّا، ففي هذه البيئات جميعًا وعلى أطرافها، زوّد البعثيّون المحافظون المناهضون للشيوعيّة مادّةً سجاليّة «تقدّميّة» يحتاج إليها المحافظون. فالشيوعيّون، مع أنّهم مطعونون أصلًا في عدائهم لإسرائيل، بسبب تقسيم ١٩٤٧، وعلى رغم انتهاكهم المحرّم الثاني بمعارضتهم وحدة ١٩٥٨ المصريّة ـ السوريّة، ثمّ تحالفهم مع عبدالكريم قاسم في العراق، خصم عبدالناصر وعموم القوميّين العرب، بقيت سيطرتهم على الأفكار والصياغات مطلقة أو تكاد.

عبدالمجيد الرافعي عهدذاك، في أواخر الخمسينيّات، كان التحالف مع الناصريّة يُغني عن قاعدة جماهيريّة اقتصرت على آلاف قليلة بدت كافية لأن تفيض عن قدرة الحزب على التأطير. وهؤلاء استمدّوا تثقيفَهم البسيط من كتب عفلق ومن صحيفتين عابرتين حملتا اسمي «صوت الطليعة» و«الأمان». قبل أن يصدر البعث في ١٩٥٨، صحيفة أسبوعيّة أسماها «الصحافة»، كان مجدلاني وشميطلّي صاحبي امتيازها، وصقر رئيس تحريرها. وقد درجت «الصحافة» على تعريف نفسها، على جاري اللغة المستعارة من القاموس الشيوعيّ، بأنّها «جريدة الطليعة العربيّة».

وبالفعل، شارك الحزب في سائر النشاطات السياسيّة والعنفيّة في

الخمسينيّات بوصفه جزءًا لا يتجزّأ من الكتلة الناصريّة العريضة. فبالصفة هذه، تظاهر أفراده ضدّ حلف بغداد ومشروع أيزنهاور، وبالصفة ذاتها سقط لهم جلال نشوئي في طرابلس في مواجهات ١٩٥٨.

عمومًا، عجّ الحزب بوجوه شابّة ومتعلّمة وطامحة تبوّأت زعامته ولم يَفد أيٌّ منها تقريبًا من شرائح الهرم الاجتماعيّ الدنيا. وبين هؤلاء الشبّان، حظي عبدالمجيد الرافعي بوضع مميّز. فهو طبيب إنسانيّ يقدّم الخدمات لفقراء الأحياء الشعبيّة، وسليل عائلة دينيّة وثقافيّة في مدينة طرابلس التي كانت تغلي ضدّ كميل شمعون وعهده، رافعةً عاليًا رايات العروبة واسم جمال عبدالناصر. فوق هذا، أوحت زعامة آل كرامي، وهو إيحاءٌ لا يلبث في الوهلة الثانية أن يبدو مضلِّلًا، بأنّ عِتقها آيلٌ بها إلى موت وشيك، ما شجّع الطامحين على التجرّؤ عليها.

وقد رشّح البعثيّون الرافعي لانتخابات ١٩٥٧، فعاد بنتيجة متواضعة، إلّا أنّه في انتخابات ١٩٦٠، ولم يكن الخلاف البعثيّ مع عبدالناصر قد ظهر إلى العلن، هدّد بخرق لائحة رشيد كرامي في سابقة طرابلسيّة. وقد تردّد يومذاك أنّ الطبيب البعثيّ فاز بالنيابة فعلًا، كما هنّأه محافظ الشمال بفوزه، إلّا أنّ تدخّل «المكتب الثاني» لدى فرز الأصوات أدّى إلى إسقاطه.

بيد أنّ المنافع التي درّها على البعثيّين تحالفهم مع عبدالناصر، ما لبثت أن انقلبت أكلافًا باهظة بسبب الخلاف بين زعيم العروبة الذي كان يحكم سوريا إبّان الوحدة في ١٩٥٨-١٩٦١ وحزب العروبة في دمشق.

وثمّة أساس صلب للجدل بأنّ النزاع مع الزعيم المصريّ، بدأ يحدّ من النموّ البعثيّ بين السنّة فيما يوسّعه بين الشيعة، الأمر

الذي أحلّ جعفريّة صور محلّ مقاصد صيدا، مؤدّيًا قبيل منتصف الستّينيّات إلى رجحان الوزن الشيعيّ في الحزب على ذلك السنّيّ.

أمّا على جبهة أخرى، فكان للخلاف مع عبدالناصر أن فتح الباب لبعض شبّان البعث كي يُبدوا تأثّرهم بخلائط انتقائيّة من الأفكار الماركسيّة واللينينيّة. وهذا ما سبق أن مهّدت له مقدّمتان سوريّتان: ذلك أنّ خروج جلال السيّد «الرجعيّ» والمعتدّ بـ «القبيلة العربيّة» من الحزب، وحلول أكرم الحوراني «الاشتراكيّ» والزعيم الفلّاحيّ محلّه، أطلق تعاطفًا غامضًا مع يساريّةٍ كان الحزب يكتفي بزعمها لفظيًّا. ثمّ وجّه انفصال ١٩٦١ السوريّ عن دولة الوحدة، ضربة للصوفيّة القوميّة والوحدويّة الفقيرة، فتسلّل إلى خطاب «الأمّة الواحدة» البعثيّ تركيب وتعقيد نسبيّان تستوقفهما طبيعة النظام وانحيازات السلطة وتضارب المصالح.

وبالفعل، أصدر البعث اللبنانيّ في ١٩٦١ نشرة أسماها «الاشتراكيّ»، كما تعاظم اهتمامه بالمسائل المطلبيّة لقطاعات اجتماعيّة تقيم في النصف الأدنى من الهرم الاجتماعيّ. لكنْ، في ذلك العام نفسه، وبحسب «إحصائيّات جزئيّة» جمعها «مكتب العمل القُطْريّ بالاستناد إلى تقارير مكاتب العمل»، تبيّن أنّ الطلّاب لا يزالون أكثر من نصف أعضاء الحزب. ولئن شكّل «العمّال» ما بين الربع والثلث، بقي أنّ تعبير «عمّال»، في استخدامه البعثيّ، شمل المستخدمين في المحالّ التجاريّة والأُجراء في المكاتب.

حركة القوميّين العرب منذ فجر الستّينيّات، راح يحتدم التنافس القائم أصلًا بين البعثيّين و«حركة القوميّين العرب» ويتحوّل إلى عداوة، تبعًا لالتحام الحركة بالناصريّة وابتعاد البعث منها. والحال أنّ التنظيمين العروبيّين، اللذين تجمع بينهما الدعوة

القوميّـة والوحدويّـة، اختلفـا فـي أمـور أخـرى. فبفعـل النشـأة، كان طريـق البعـث إلـى العروبـة سـوريًّا، بالتالـي كانـت حساسـيّته الأولـى سـوريّة، فيمـا، وبفعـل النشـأة أيضًـا، كان طريـق الحركـة وحساسـيّتها فلسـطينيّين. وقـد عـرف البعـث مـن بداياتـه، فضـلًا عـن سُـنّته والقليليـن مـن مسـيحيّيه، حضـورًا شـيعيًّا لـم يقـلّ مـرّةً عـن الحضـور السـنّي، قبـل أن يبـزّه لاحقًـا. كمـا وُجـد فـي المناطـق الحدوديّـة المحاذيـة لسـوريا، والمتداخلـة معهـا، كالهرمـل وعـكّار وشـبعا، لا سـيّما بعـد «ثـورة» ١٩٥٨ التـي متّنـت صـلات تلـك المناطـق بمدينـة حمـص علـى حسـاب الصلـة الهشّـة حتـى ذلـك التاريـخ بالمركـز البيروتـيّ. أمّـا «الحركـة» فطغـى عليهـا الوجـود السـنّي، البيروتـيّ والطرابلسـيّ والصيـداويّ، وإن أحدثـت اختراقـات شـيعيّة في صـور خصوصًـا، بفعـل التأثيـر الـوازن للموضـوع الفلسـطينيّ هنـاك.

ثـمّ إنّ البعثيّيـن كانـوا، طبقيًّـا واجتماعيًّـا، أعلـى كعبًـا مـن الحركيّيـن، وأوثـق صلـة بمؤسّسـات التعليـم الأجنبـيّ كمـا ببيـوت القـرار السياسـيّ. وهـم، إلـى ذلـك، بـدوا أقـلّ تشـدّدًا فـي إسـلامهم وفـي الالتـزام الأخلاقـيّ والسـلوكيّ الـذي يُفتـرض أن يترتّـب عليـه. وأخيـرًا، لـم يشـارك البعثيّـون الحركيّيـن، القائليـن بالـدم والحديـد والنـار والثـأر، إعجابهـم بالقـوّة والعسـكرة المسـتوحى، ولـو عبـر ترجمـات متعثّـرة، مـن النمـاذج الفاشـيّة، مفضّليـن التشـديد علـى «الاشـتراكيّة العربيّـة».

وفـي التنـازع هـذا، حـاول رمـوز فـي الحركـة، كمحمّـد الزيّـات فـي صـور، وبدرجـة أقـلّ مصطفـى الصيـداوي فـي طرابلـس، أن يقدّمـوا لـ «الشـارع المسـلم» قيـادات بديلـة عـن القيـادات البعثيّـة، كالرافعـي فـي طرابلـس، أو القريبـة مـن البعـث كجعفـر شـرف الديـن فـي صـور.

غيـر أنّ الحركـة لـم تكـن مؤهّلـة، بفعـل الشـروط اللبنانيّـة، لاسـتثمار الضربـات التـي كالتهـا الناصريّـة للبعـث، إذ عزلتـه وحوّلـت البعثيّيـن

طائفــةً صغيــرةً مســدودة الآفــاق، لا ســيّما أنّ البيئــة المســيحيّة التــي شــاركوا فــي قتالهــا عــام ١٩٥٨، واســتمرّوا يصمونهــا بالانعزاليّــة، كانــت موصــدة تمامًــا فــي وجوههــم.

وفــي الغيتــو هــذا، وتحــت وطــأة الشــعور بالإهانــة والإلغــاء، تعاظــم العــداء لعبدالناصــر واحتقــن، فــكان لافتًــا أن ينجــذب بعثيّــون ومعظــم قادتهــم إلــى أطروحــات أكــرم الحورانــي الــذي انشــقّ عــن البعــث وأيّــد بحماســة الانفصــال الســوريّ عــن مصــر وصــار مــن أقطابــه. هكــذا، وبالتضامــن مــع خلافــات تنظيميّــة ومطالبــات بتوســيع صلاحيّــات القيــادة القُطريّــة حيــال القيــادة القوميّــة، عــرف البعــث اللبنانــيّ، بعــد المؤتمــر القومــيّ الخامــس أواســط ١٩٦٢، والــذي انعقــد فــي مدينــة حمــص، انشــقاقه الأوّل أو زلزالــه الأوّل، بحيــث حــلّ عفلــق «قيــادة قُطــر لبنــان»، مُبعــدًا «المتآمريــن» مــن الجســم الحزبــيّ.

فعلــى الضــدّ ممّــا كان يحصــل فــي البلــدان العربيّــة، حيــث راح ينشــقّ «ناصريّــو» البعــث عنــه، ارتبــط الانشــقاق فــي لبنــان بتوكيــد أولويّــة الديمقراطيّــة علــى الوحــدةَ العربيّــة، والتحفّــظ عــن عبدالناصــر وطرائقــه الديكتاتوريّــة فــي الحكــم. وكان مــن قــادة الخــطّ هــذا غسّــان وطــلال شــرارة وغالــب ياغــي وعبدالوهــاب شــميطلّي وفــؤاد ذبيــان وحســيب عبدالجــواد وألبيــر منصــور وفــؤاد شــبقلو وحســين عثمــان. وكان للخــطّ هــذا أن خاطــب مَــن هــم أوثــق صلــة بالقواعــد، وأقــلّ انشــدادًا إلــى الصالــون البيروتــيّ، كالقيــاديّ النقابــيّ علــي حومانــي، رئيــس نقابــة عمّــال المرفــأ، وخليــل بــركات، رئيــس بلديّــة كفــر دونيــن الجنوبيّــة، وإن عــاد أدراجــه لاحقًــا إلــى البعــث، مثلــه فــي ذلــك مثــل حســين عثمــان.

ضــدّ عبدالناصــر والحــال أنّ صــورة التعــارض تــزداد وضوحًــا لــدى مقارنــة الوجهــة التــي اختطّهــا البعــث اللبنانــيّ بوجهــة البعثيــن الأردنــيّ

والعراقيّ اللذين انشقّ وطُرد قائداهما المنحازان إلى الرئيس المصريّ، عبدالله الريماوي وفؤاد الركابي. ولم يكن بلا دلالة أنّ البعثيّين العرب المتحوّلين إلى الناصريّة، بمن فيهم السوريّون الذين أنشأوا «حركة الوحدويّين الاشتراكيّين»، لم يتركوا أثرًا ملحوظًا على رفاقهم اللبنانيّين يتعدّى انشقاق مَن لم يتجاوزوا عدد أصابع اليد الواحدة، وقف على رأسهم سامي الرفاعي، شقيق نائب بعلبك السنّيّ حسن الرفاعي.

أكثر من هذا، سجّل المؤتمر القوميّ الخامس صراع الخطّ الأردنيّ، ذي الغلبة الفلسطينيّة، المُطالب بإعادة الوحدة مع مصر فورًا، والخطّ اللبنانيّ المتشدّد حيال عبدالناصر والرافض التعاونَ معه، فيما وقف عفلق بين الخطّين لا يؤيّده من أصل أحد عشر مندوبًا لبنانيًّا حضروا المؤتمر سوى علي جابر وجبران مجدلاني.

وأغلب الظنّ أنّ ما حكم وجهة البعث اللبنانيّ كان تضافرًا بين عاملين، أحدهما موقع «الحرّيّة» من الثقافة السياسيّة اللبنانيّة عمومًا، والذي تعزّز في أجواء الصدام مع الدولة الشهابيّة وأجهزتها، والثاني توسّع الحضور الشيعيّ في الحزب، والذي أوصل البعث إلى بعض النقابات وضاعف حضوره في أطراف جنوبيّة وبقاعيّة كان الشيوعيّون يحتكرون محاولات تسييسها.

لكنْ، إذا كانت ناصريّة البعث حتى أواخر الخمسينيّات مصدر الاحتضان السنّيّ له، فقد اختلفت المؤثّرات العميقة، العاطفيّة أو المصلحيّة، عند الشيعة. ففي بعلبك والبقاع، كان باديًا أثر الجوار مع سوريا، وهو متعدّد الأوجه يسنده ماضٍ «وحدويّ» قريب. أمّا في الجنوب، فخاطبت سوريا الحزب العفلقيّ إحساس جبل عامل بأنّ جبل لبنان همّشه في «لبنان الكبير». إلّا أنّ تلك السوريّة كانت أيضًا تستحضر دمشقيّةَ الارتباط الشعوريّ بفيصل الأوّل، بوصفه

سليل أهل البيت، هو الذي دغدغت دولته العربيّة السريعة الزوال مشاعر التحفّظ الصلب عن لبنان. ولئن كانت «العصابات» الجنوبيّة علامة على متانة الصلة هذه، فإنّ عائلات جنوبيّة كثيرة رحلت مع فيصل وانتهى بها المطاف إلى الاستقرار في الأردن، في ظلّ شقيقه عبدالله، الأمير ثمّ الملك. ولمّا كان البعث «تمرّدًا على الحدود»، فإنّه تراءى دواءً يسكّن الجرح النرجسيّ للشيعة، إن لم يعالجه كلّيًّا.

أمّا في وقت لاحق، فكان لإقامة أحد أبرز مراجعهم الدينيّة، اللبنانيّ والجنوبيّ محسن الأمين، في العاصمة السوريّة، وعلى مقربة من مقام السيّدة زينب، أن عزّز تلك المشاعر. ولأنّ الأمين حرّم اللطم في عاشوراء، واستحقّ بفعله هذا عداء المؤسّسة الشيعيّة الإيرانيّة، الموغلة في المحافظة، بدا سهلًا أن يعاد تأويله داعيةً عروبيًّا وتقدّميًّا في وقت واحد.

ولئن لم تملك الناصريّة أصولًا حميمة كهذه، هي المصريّة البعيدة والسنّيّة «الأُخرى»، فإنّ الشيوعيّة كانت لا تزال تئنّ تحت وطأة إعاقاتها. فلقد وَسِعَها أن تناشد من هم أفقر وأكثر استبعادًا، لكنْ بدا من الصعب أن تلبّي التطلّب الثقافيّ والروحيّ لأُسَر تعتدّ بموقع نافذ لها في السياسة أو الثقافة والدين أو في العدد والمكانة. وإلى ذلك، فالموقفان السالبان للشيوعيّين، من تقسيم فلسطين في ١٩٤٧ ثمّ من وحدة ١٩٥٨، رتّبا سلفًا على معتنق الشيوعيّة دَينًا ليس المقبل على السياسة مضطرًّا إلى استدانته.

ومن ناحيتها، لم تتردّد القيادة العفلقيّة في «اتّهام» المنشقّين والمطرودين بعد المؤتمر القوميّ الخامس بالماركسيّة، مركّزةً بصورة خاصّة على غالب ياغي وغسّان شرارة وعبدالوهاب شميطلّي، فضلًا عن الروائيّ اللاحق، السعوديّ ـ العراقيّ، عبدالرحمن منيف. أمّا الأخيرون الذين استدرجت بعضَهم

الجاذبيّـةُ الشـعبيّة للحورانـي، فأخـذوا علـى عفلـق مـا اعتبـروه ميـولًا تسـوويّة وانتهازيّـة، كمـا لـم يغفـروا لـه حـلّ الحـزب فـي سـوريا كرمـى للوحـدة مـع مصـر الناصريّـة.

وعلـى مستوى القواعـد، بـدأت تتـردّد تعابيـر تتّصل بـ «الصـراع الطبقيّ» ومتفرّعاتـه مُطبَّقـةً علـى البعـث نفسـه، فشـاع هجـاء «التقليديّيـن» و«الرجعيّيـن» و«الانتهازيّيـن» الذيـن لا ينـوون إلّا بلـوغ البرلمـان علـى جسـر الحـزب، أو علـى جثّتـه. وانتشـر اسـتهجان مشـوب بالسـخرية الريفيّـة والشـعبويّة حيـال بيـوت القـادة الحزبيّيـن الأغنيـاء، بـل قصـور قلّـة منهـم فـي بيـروت.

آذار والسـنوات السـود لئـن أدّى انقـلاب ٨ آذار (مـارس) ١٩٦٣ البعثـيّ فـي سـوريا، بعـد شـهر علـى انقـلاب مشـابه فـي العـراق، إلـى انفـراج نسـبيّ فـي وضـع البعـث اللبنانـيّ، فـإنّ انشـقاقات صغـرى تلاحقـت بنتيجـة الموقـف مـن الانفصـال السـوريّ، ثـمّ بسـبب تناقضـات السـلطة البعثيّـة الجديـدة فـي دمشـق. فـكان للأطروحـات اليسـاريّة التـي حملهـا المؤتمـر القومـيّ السـادس، أواخـر ١٩٦٣، والمعروفـة بـ «المنطلقـات النظريّـة»، أن اسـتقطبت شـبّانًا انحـازوا إلـى علـي صالـح السـعدي فـي بغـداد ضـدًّا علـى «اليميـن العفلقـيّ»، كمـا تأثّـروا بأفـكار ياسـين الحافـظ الـذي كتـب «المنطلقـات» وأحـلّ «الاشـتراكيّة العلميّـة» الماركسـيّة محـلّ «الاشـتراكيّة العربيّـة» لعفلـق. وبدورهـم، عقـد هـؤلاء مؤتمـرًا قُطريًّـا فـي شـباط (فبرايـر) ١٩٦٤، لكـنّ القيـادة القوميّـة التـي لـم تُقـرّ بشـرعيّة المؤتمـر المذكـور، عيّنـت، مـرّة ثانيـة فـي أقـلّ مـن عاميـن، قيـادة قطريّـة بديلـة تشـارك فـي التحضيـر للمؤتمـر القومـيّ السـابع. وإذ كُلّـف المحامـي البعثـيّ والبيروتـيّ محمّـد خيـر الدويـري أمانـة سـرّ القيـادة البديلـة، خـرج عـن الجسـم الحزبـيّ ريـاض رعـد

وهشام عبدو والمهندس والوزير اللاحق الفضل شلق، لينتهي بهم المطاف، بعد سنتين، في «حزب العمّال الثوريّ الاشتراكيّ العربيّ». والأخير، الذي لا يندرج إلّا تجاوزًا في «اليسار الجديد»، بسبب حقبة الولادة المشتركة وكونه خارج الشيوعيّة الرسميّة، كان بالغ الإيجابيّة حيال عبدالناصر الذي تحفّظ عنه، أو عاداه، معظم المتمركسين من خارج الحزب الشيوعيّ. وأغلب الظنّ أنّ العامل هذا هو ما جعله يخاطب بين البعثيّين عناصر يغلب سُنّتهم، كالكورانيّ شلق والطرابلسيّ عبدو، على شيعتهم.

بيد أنّ ضبط البعث بات مهمّة تفوق قدرات الدويري وكفاءاته. فهو، أصلًا، أحد المتَّهمين باليمينيّة وتوسّل الحزب للوصول إلى البرلمان. ثمّ إنّ المؤتمر السابع الذي أريد منه الردّ على المؤتمر السادس ويساريّته، جاء مثقلًا بالهمّ العراقيّ تبعًا لانقلاب أواخر ١٩٦٣ الذي قاده عبدالسلام عارف وبموجبه أزيح البعث عن السلطة.

وفي استغراقه العراقيّ، لم يكترث المؤتمر الذي انعقد في «المسرح العسكريّ» بدمشق لهموم التنظيم اللبنانيّ فتُرك لتصدّعاته وانشقاقاته. هكذا، غادره عدد من الشبّان الباحثين عمّا يملأ «فراغ البعث النظريّ» في هذا الطرح الماركسيّ أو ذاك. وفي عداد المغادرين، كان مدرّسون كالشاعر عصام العبدالله من الخيام، ومثقّفون كالجامعيّ والكاتب اللاحق فوّاز طرابلسي، من مشغرة، الذي ساهم بعد ذلك في تأسيس مجموعة «لبنان الاشتراكيّ»، ثمّ أكمل طريقه في قيادة «منظّمة العمل الشيوعيّ».

أبعد من هذا، أنّ الانفراج الجزئيّ الذي نجم عن انقلاب ١٩٦٣ السوريّ، لم يعمّر طويلًا، ذاك أنّ الصراع الناصريّ ـ البعثيّ ما لبث أن تجدّد بحدّة غير مسبوقة، خصوصًا مع انهيار مشروع «الاتّحاد الثلاثيّ»، المصريّ ـ السوريّ ـ العراقيّ، وتصفية البعثيّين الدمويّة

للمحاولة الانقلابيّة التي قادها الضابط الناصريّ جاسم علوان صيف ١٩٦٣. وأمام حائط التحالف الناصريّ ـ الشهابيّ، معطوفًا على عزلة البعث الجماهيريّة، استنكف الرافعي عن الترشّح لانتخابات ١٩٦٤، ووقف بعثيّو صيدا في صفّ المعارضة الشمعونيّة والسلاميّة فأيّدوا نزيه البزري بدل معروف سعد، ما بدا مستهجَنًا جدًّا في حزب عروبيّ.

جلال مرهج وجلال كعوش وانشغل البعث اللبنانيّ، بين ١٩٦٣ و١٩٦٤، بما عُرف يومذاك بـ «قضيّة جلال مرهج». ففي بيروت، أُلقِي القبض على هذا الضابط السوريّ بتهمة نقل متفجّرات للسياسيّ الشمعونيّ والشوفيّ قحطان حمادة هدفها «القيام بأعمال تخريبيّة» في لبنان. ولمّا كانت محاولة الانقلاب القوميّ السوريّ لا تزال طريّة في الأذهان، وكان السفير المصريّ عبدالحميد غالب الرجل الأقوى في بيروت، ارتسمت صورة عجيبة عن حلف يجمع النظام البعثيّ في دمشق إلى كميل شمعون و»الانعزاليّة المسيحيّة»، هدفه مقاومة النفوذ الناصريّ والعهد الشهابيّ معًا. وما زاد في صعوبات الحزب، وقد أضيف إليها استهداف الأجهزة الشهابيّة المركّز، صلاته بما أصبح لاحقًا حركة «فتح». ففي ١٩٦٥، تلاقت مصالح البعث في سوريا ومصالح الفتحاويّين الأوائل عند صدّ النفوذ الناصريّ وتحالفه مع الشهابيّة، ووجد التلاقي تعبيره في ازدواج الولاء لفتح وللبعث عند قياديّين فتحاويّين كفاروق القدّومي وعبد المحسن أبو ميزر وكمال ناصر، لكنْ خصوصًا عند خالد يشرطي، القياديّ الناشط والمقيم في بيروت. وبدورهم، قدّم البعثيّون الشابَّ الفلسطينيّ ـ اللبنانيّ جلال كعوش، الذي حاول تنفيذ إحدى

العمليّـات الفدائيّـة المبكـرة، ثـمّ قضـى مطالـع ١٩٦٦ فـي سـجن لبنانـيّ، بوصفـه مناضـلًا وشـهيدًا بعثيًّـا أردتـه «السـلطة الرجعيّـة» فـي بيـروت.

وإذ انهـار علـي جابـر فـي إحـدى جلسـات محاكمـة الضابط جـلال مرهج، وعُـدّ متخـاذلًا وانهزاميًّـا، بـدأ جيـل جديـد، أمتـن فـي جـذوره الريفيّـة، يتقـدّم إلـى الواجهـة القياديّـة للبعـث، وكان مـن رمـوزه الجنوبيّـان عبـد الأميـر عبّـاس والمـدرّس محمّـد عواضـة، والبقاعيّـان عاصـم قانصـوه، المهنـدس الـذي تخـرّج فـي رومانيـا، وسـهيل سـكّريّة، المحامـي وابـن قريـة الفاكهـة الـذي تخـرّج فـي جامعـة بيـروت العربيّـة، والطرابلسـيّ عبداللـه الشـهّال. ولئـن كان الأخيـر ابـن تاجـر أدويـة متوسّـط الحـال وصهـرًا لعبدالمجيـد الرافعـي، فسـكّريّة ابـن مختـار قريتـه، وقانصـوه نجـل مغتـرب.

وفـي تلـك الغضـون، كان البعثيّـون يعتمـدون صحيفتـي «الكفـاح» اليوميّـة و«الأحـد» الأسـبوعيّة لصاحبهمـا النقيـب ريـاض طـه، منبريـن لهـم. لكنّهـم أنشـأوا جريـدة «الأحـرار» اليوميّـة، فـي آذار (مـارس) ١٩٦٤، والتـي عاشـت حتـى أيّـار (مايـو) ١٩٦٧، بوصفهـا صوتًـا حزبيًّـا يسـتأنف مـا كانتـه «الصحافـة» الأسـبوعيّة، فتولّـى رئاسـة تحريرهـا الصحافـيّ جـان عبيـد، الموصـوف حينـذاك بالقـرب مـن البعـث، والـذي بـات لاحقًـا نائبًـا ووزيـرًا، والصحافـيّ ذو الأصـول السـوريّة والشـيوعيّة رفيـق خـوري، وكلٌّ مـن اليـاس الفرزلـي وسـليمان الفرزلـي ورغيـد الصلـح.

الحـزب حزبـان فثلاثـة فأكثـر غيـر أنّ الضربـة القاصمـة للبعـث اللبنانـيّ، كمـا للبعـث فـي كلّ مـكان، كانـت مـا حـلّ إثـر انقـلاب ٢٣ شـباط ١٩٦٦ فـي سـوريا، حيـث أقصـى «اليسـارُ» العسـكريّ للقيـادة القُطريّـة «اليميـنَ» المدنـيّ للقيـادة القوميّـة. وهنـا، أيضًـا، لـم يُعـدم

الانشـقاق دلالات اجتماعيّـة أعـرض: فأغلـب السـنّة والمسـيحيّين والـوا قيـادة عفلـق «القوميّـة»، يصـحّ هـذا فـي الرافعـي ومجدلانـي والفرزلـي والعلـي وكـرم والداعـوق، فيمـا والـى أغلـب الشـيعة، لا سـيّما الجنوبيّيـن، خـطّ صـلاح جديـد «القطـريّ»، وهـو مـا ينطبـق علـى الأميـن وقانصـوه وعواضـة وعبّـاس. ثـمّ إنّ الأكثريّـة كانـت مدينيّـة فـي جبهـة «القوميّين»، معظـم أفرادهـا مـن أوائـل البعثيّيـن، بينمـا غلبـت علـى «القُطريّيـن» أكثريّـة ريفيّـة يقـلّ متوسّـطُ أعمارهـا سـنواتٍ قليلـة عـن متوسّـط أعمـار الفئـة الأولـى. وبشـيء مـن الترميـز، يصـحّ الـكلام، عنـد المنعطـف هـذا، عـن إتمـام الطـلاق بيـن بعـث الجامعـة الأميركيّـة فـي بيـروت وبعـث المـدارس والمعلّميـن فـي الأطـراف.

وبالفعـل، نبـذ «القُطريّـون» كتابـات عفلـق وتوقّفـوا عـن اسـتظهار محفوظاتـه، معتمديـن برنامـج تثقيـف ماركسـيًّا ولينينيًّـا، ضـمّ إلـى «البيـان الشـيوعيّ» ومدرسـيّات الماديّتيـن الجدليّـة والتاريخيّـة «منطلقـات» ياسـين الحافـظ. وبـدا واضحًـا، فـي المقابـل، أنّ أجـواء التطـرّف السـوريّ، بعـد ٢٣ شـباط، لـن توفّـر أيّـة فرصـة لطمـوح طامحـي البعـث اللبنانـيّ الكثيريـن ممّـن سـارعوا إلـى إصـدار بيـان يديـن الانقـلاب «القُطـريّ».

وفـي الوضـع المسـتجدّ هـذا، مضـى الفرعـان، اللـذان صـارا حزبيـن، ينتجـان كـوادر قياديّـة جديـدة، فبـرز بيـن «القُطريّيـن» عبدالله الأميـن، قريـب مالـك، والمـدرّس المتفـرّع عـن أب متوسّـط الحال عمـل موظّفًـا فـي المحاكـم الجعفريّـة، كمـا ظهـر قياديّـون يعيـش بعضهـم فـي بيئـة الهجـرة الجنوبيّـة إلـى النبعـة وبـرج حمّـود، كالحِرفيّيـن علـي نـادي وإبراهيـم عيسـى مـن بنـت جبيـل، أو المـدرّس أميـن سـعد، وهـو أيضًـا

مـن بنـت جبيـل، تطـوّع فـي منظّمـة «الصاعقـة» وحمـل اسـم «الأخضـر العربـيّ»، وباسـمه هـذا قضـى فـي العرقـوب فـي إحـدى المواجهـات مـع إسـرائيل.

أمّـا بيـن «القوميّيـن»، فظهـرت أسـماء الباحـث والكاتـب اللاحـق رغيـد الصلـح، والناشـطين معـن بشّـور وهانـي سـليمان حيـدر، والنائـب والوزيـر فـي التسـعينيّات بشـارة مرهـج، والناشـر اللاحـق عمـاد شـبارو، ومنصـور حريـق، والشـاعر موسـى شـعيب، وأكثرهـم باشـروا الشـأن العامّ بوصفهـم قيـادات طلّابيّـة فـي الجامعـة الأميركيّـة فـي بيـروت.

لكـنّ كلًّا مـن البعثيـن راحـت تواجهـه أوضـاع شـديدة التغيّـر والدراميّـة. ففـي ١٩٧٠، انقلـب حافـظ الأسـد علـى رفاقـه «القُطريّيـن» الموصوفيـن بالتطـرّف اليسـاريّ، فانشـطر مؤيّـدو دمشـق اللبنانيّـون بيـن مـن التحقـوا بالأسـد، وعلـى رأسـهم قانصـوه والشـهّال وعبداللـه الأميـن، والذيـن تمسّـكوا بولائهـم للجنـاح الـذي أطيـح، يتقدّمهـم مالـك الأميـن وبيضـون وعواضـة، ممّـن عُرفـوا بــ «جماعـة الرايـة»، تبعًـا للمجلّـة التـي كان يصدرهـا التنظيـم ويـرأس المحامـي والصحافـيّ فضـل الأميـن تحريرهـا، والتـي اسـتمرّ اليسـاريّون يصدرونهـا إلـى حيـن.

أمّـا أنصـار «القيـادة القوميّـة» الذيـن أنعشـهم الانقـلاب البعثـيّ العفلقـيّ الثانـي فـي العـراق عـام ١٩٦٨، كاسـرًا مـن حولهـم الحصـار المـزدوج السـوريّ والناصـريّ، فرشّـحوا للانتخابـات النيابيّـة عامـذاك كلًّا مـن الرافعـي فـي طرابلـس ومحمّـد حـرب فـي بعلبـك. بيـد أنّهـم نجحـوا ابتـداءً بــ١٩٧٠ فـي أن يسـتثمروا رغبـة رئيـس الجمهوريّـة سـليمان فرنجيّـة فـي توسـيع علاقاتـه العربيّـة، ذاك أنّ الأخيـر سـعى إلـى الجمـع بيـن صداقـة حافـظ الأسـد والتمايـز النسـبيّ مـن سياسـاته العربيّـة، بالاتّـكاء علـى صـلات جيّـدة مـع بغـداد. كذلـك،

عـوّل فرنجيّـة علـى العـراق غطـاءً عربيًّـا لنهجـه المناهـض لمنظّمـة التحريـر الفلسـطينيّة فـي لبنـان، المسـتظلّة يومـذاك بتشـجيع سـوريّ. وكان للفتـرة تلـك أن سـجّلت فتـورًا فلسـطينيًّا ـ عراقيًّـا بسـبب امتنـاع القـوّات العراقيّـة فـي الأردن عـن إنجـاد المقاومـة الفلسـطينيّة فـي مواجهـات أيلـول (سـبتمبر) ١٩٧٠ مـع الجيـش الأردنـيّ. وعبـر وسـطاء كتقـيّ الديـن الصلـح وجـان عبيـد، وبالإفـادة مـن رغبـة فرنجيّـة فـي تحجيـم النفـوذ الشـماليّ لرشـيد كرامـي، اصطحـب الرافعـي علـى لائحتـه فـي انتخابـات ١٩٧٢، مرشّـحًا مسـيحيًّا مُزكّـى مـن فرنجيّـة، هـو غبريـال خـلاط، كمـا حصـد أغلبيّـة أصـوات المسـيحيّين ودخـل النـدوة النيابيّـة بأرقـام تفـوق مـا أحـرزه كرامـي. هكـذا، بـات للبعـث، أوّل مـرّة فـي لبنـان، عضـو فـي البرلمـان.

وفـي الانتخابـات نفسـها، رشّـح البعثيّـون «القوميّـون» حسـين عثمـان فـي بعلبـك، متحالفًـا مـع الشـيوعيّ زكريّـا رعـد، كمـا رشّـحوا موسـى شـعيب عـن النبطيّـة، ثـمّ أعـادوا الكـرّة فـي الانتخابـات الفرعيّـة عـام ١٩٧٤، لكنّـه جـاء ثالثًـا بعيـدًا، بعـد مرشّـح موسـى الصـدر الـذي فـاز ومرشّـحَي كامـل الأسـعد والحـزب الشـيوعيّ اللبنانـيّ.

أمّـا البعثيّـون الموالـون لدمشـق، فسـلكوا هـم أيضًـا طريقًـا مشـابهًا، فتمكّنـوا مـن ترشـيح المحامـي محمّـد زكريّـا عيتانـي علـى لائحـة عبدالله اليافـي، منافـس صائـب سـلام، فـي دائـرة بيـروت الثالثـة، داعميـن لائحـة خالـد صاغيّـة فـي عـكّار ومعركـة محمـود طبّـو فـي المنيـة ـ الضنّيّـة.

ولـم يتـردّد بعـث «الرايـة»، علـى رغـم صعوباتـه الكثيـرة، فـي ترشـيح أحـد كـوادره، المـدرّس علـي يوسـف، فـي بنـت جبيـل، حيـث حصـد مـا يفـوق الألـف صـوت.

استعدادًا للحرب في موازاة ذلك التمرين العارض على الديمقراطيّة اللبنانيّة، كان المرجل يغلي على نطاق وطنيّ، فشارك البعث بأطرافه جميعًا في مناسبات دعم المقاومة الفلسطينيّة ضدّ الجيش، لا سيّما مع وجود جبهتين بعثيّتين هما «الصاعقة»، الأكثر افتعالًا للتوتّر انطلاقًا من موقعها في العرقوب، و«جبهة التحرير العربيّة» التي نشأت في ١٩٦٩ كمقابل لـ «الصاعقة»، تأتمر بأمر «القيادة القوميّة» في بغداد. كذلك، شارك البعث في «انتفاضة مزارعي التبغ» في الجنوب، ونشط «القُطريّون»، أكانوا من أنصار الأسد أم من أنصار جديد، في دعم «ثورة فلّاحي سهل عكّار».

ولم تكن دمشق حينذاك، وفي ضوء ما بيّنت التجارب اللاحقة، تقتصد في العمل على إضعاف قبضة السلطة المركزيّة اللبنانيّة وإظهار هشاشة سيطرتها، لا سيّما على مناطق الأطراف. وفي سعيها إلى تجميع أوراق الضغط على بيروت، ألجأت الضبّاط الشهابيّين إليها إثر وصول سليمان فرنجيّة إلى الرئاسة، ثمّ ألجأت عشرات من أفراد عائلة البعريني في فنيدق بعكّار بعد تصفيات دمويّة متبادلة بينها وبين عائلة علي ديب المؤيّدة لأحد زعماء عكّار التقليديّين سليمان العلي.

لكنّ الحضور السوريّ في المنظّمات الفلسطينيّة المسلّحة، خصوصًا «الصاعقة»، هو ما وفّر الأداة التي تفوق المسائل المطلبيّة والاجتماعيّة قدرةً على اعتصار السلطة المركزيّة اللبنانيّة والضغط عليها.

غير أنّ السنوات الممهّدة لاندلاع الحرب في ١٩٧٥، جعلت تبثّ عنصر الرعب في حياة «القوميّين» الموالين للعراق، إذ شرع يُقلقهم تمدّد اليد الأمنيّة السوريّة واستطالاتها، بدلالة اغتيال المعارض

البعثـيّ السـوريّ ومؤسّـس «اللجنـة العسـكريّة» محمّـد عمـران فـي مدينـة طرابلـس عـام ١٩٧٢.

إلّا أنّ هـذا لـم يحـل دون اسـتمرار المنافسـة بيـن «بعـث العـراق» و«بعـث سـوريا» علـى اسـتقطاب المحازبيـن، وهـو مـا عرفتـه مناطـق عـدّة اسـتخدم فيهـا البعـث الأوّل المنـح الدراسـيّة فـي العـراق وبعـض البلـدان الاشـتراكيّة السـابقة، فيمـا اسـتخدم الثانـي قـرب سـوريا الجغرافـي بمـا ينطـوي عليـه مـن ترغيـب وترهيـب فـي آن واحـد.

لكـنْ، قبيـل انـدلاع تلـك الحـرب، خصوصًـا مـع انتهائهـا فـي ١٩٧٦، متّـن بعثيّـو العـراق موقعهـم فـي «الحركـة الوطنيّـة اللبنانيّـة»، مسـتفيدين مـن حاجـة ياسـر عرفـات وكمـال جنبـلاط إلـى موازنـة النفـوذ السـوريّ بعلاقـات جيّـدة مـع بغـداد. أمّـا بعثيّـو سـوريا، فـكان طبيعيًّـا أن يذهبوا فـي الاتّجـاه المعاكـس، منضويـن فـي «الجبهـة القوميّـة» التـي ضمّـت «حركـة أمـل» و«اتّحـاد قـوى الشـعب العامـل» وجنـاح «الطـوارئ» الموالـي لدمشـق فـي «الحـزب السـوريّ القومـيّ الاجتماعـيّ». وإذ حـلّ التصـادم المفتـوح بيـن سـوريا ومنظّمـة التحريـر الفلسـطينيّة المتحالفـة مـع جنبـلاط، فـرّ قـادة «الجبهـة القوميّـة»، وفـي عدادهـم قـادة البعـث السـوريّ، إلـى دمشـق. غيـر أنّهـم مـا لبثـوا أن عـادوا، بعـد فتـرة قصيـرة، عـودة المنتصـر المظفّـر، تؤازرهـم قـوّات «الـردع العربيّـة».

فـي المقابـل، انتقـل الرافعـي إلـى بغـداد عـام ١٩٧٦، فـي مـا بـات لجـوءه الأوّل، فلـم يعـد منهـا إلّا فـي ١٩٧٩، حيـن وُقّـع «ميثـاق العمـل القومـيّ» السـوريّ ـ العراقـيّ المشـترك فـي مواجهـة مصـر السـاداتيّة ومعاهـدة كامـب ديفيـد. إلّا أنّ شـهر العسـل بيـن عاصمتـي البعـث لـم

يـدم طويـلًا، مـا فتـح الطريـق لحـروب صغـرى بينهمـا، دمويّـة وتآمريّـة لا تعـرف الرحمـة، فـي غيـر بلـد وسـاحة.

أمـن وانشـقاقات وتصفيـات بعـد «حـرب السـنتين»، وبنتيجة خلافـات كثيـرة تفاقمـت بيـن جيـل المؤسّسـين وجيـل القـادة الشـبّان، مـن مواليـد أواسـط الأربعينيّـات، انشـقّت عـن البعـث «القومـيّ» مجموعـة كان فـي عدادهـا معـن بشّـور وجـلال مرهـج ورغيـد الصلـح. فهـؤلاء ممّـن بـدأوا يسـتخدمون لفظيّـة أكثـر يسـاريّة، سـبق أن تحفّظـوا عـن انقـلاب ١٩٦٨ البعثـيّ فـي بغـداد، بذريعـة أنّـه لـم يكـن «ثـورة شـعبيّة» سـبق للحـزب أن أقرّهـا، ثـمّ كـرّروا التحفّـظ عـن عـدم تدخّـل القـوّات العراقيّـة فـي الأردن عـام ١٩٧٠ لنصـرة المقاتليـن الفلسـطينيّين، ليبلـغ اعتراضهـم أشـدّه علـى إقصـاء البعثـيّ العراقـيّ المنافـس لصـدّام حسـين، عبدالخالـق السـامرّائي، واعتقالـه فـي ١٩٧٣، هـو الـذي أُعـدم بعـد سـتّة أعـوام. وفـي مـا بعـد، آثـر بشّـور ومرهـج تأسـيس مجموعـة أسـمت نفسـها «اللجـان والروابـط الشـعبيّة»، قامـت علـى توليـف خلطـة مفيـدة لهـا تضعهـا علـى مسـافة واحـدة مـن بغـداد ودمشـق ومنظّمـة التحريـر الفلسـطينيّة الناشـطة حينـذاك فـي بيـروت. وقـد أشـاع نقّـاد «اللجـان» مـن البعثيّيـن أنّ ياسـر عرفـات هـو مـن يقـف وراءهـا ويوفّـر لهـا مقوّمـات الاسـتمرار المسـتقلّ. ولئـن عُرفـت المجموعة هذه، وبشّـور محرّكهـا الأسـاس، بجرعـة ترحّـمٍ أكبـر علـى كلٍّ مـن جمـال عبدالناصـر وميشـال عفلـق، ولاحقًـا عرفـات، فإنّهـا لـم تتنكّـر لرفاقـة أيٍّ مـن حافـظ الأسـد وصـدّام حسـين.

وعلـى الضفّـة الأخـرى، ضمنـت الرعايـة السـوريّة المباشـرة، التـي لـم يكـفّ طابعهـا الأمنـيّ عـن الاسـتفحال، اسـتمرار وحـدة «القُطريّيـن» بعيـدًا مـن تأثيـرات «جماعـة الرايـة» التـي سُـحقت، ذاك أنّ مالـك الأميـن

آثر، منذ انقلاب حافظ الأسد في ١٩٧٠، العيش بعيدًا في الجزائر ثمّ فرنسا، كما هاجر محمّد عواضة، فيما خطفت المخابرات السوريّة محمود بيضون في مدينة طرابلس، وانتهى به الأمر سنوات مديدة في سجونها.

منذ أوائل السبعينيّات، كان «القُطريّون» قد عثروا في صحيفة «الشرق» التي يملكها آل الكعكي على منبر لهم، بينما أسّس «القوميّون» صحيفة «بيروت» التي تولّى محمّد طيّ رئاسة تحريرها، قبل أن تنسف القوّات السوريّة مقرّها بُعيد دخولها إلى لبنان.

ومع الحرب، كان الفرز قد اكتمل، فانتهت الوحدة الإسميّة بين الحزبين: ذاك أنّ «البعث العربيّ الاشتراكيّ» بات يدلّ إلى «جماعة العراق» وحدها، فيما أصبحت «منظّمة حزب البعث» ترمز إلى «جماعة سوريا» حصرًا.

لقد افتُتح الدخول السوريّ في ١٩٧٦ بالهجوم على الصحف المعارضة للسياسة السوريّة، وكان أشدّها تعرّضًا للأذى والقسوة صحيفة «المحرّر» القريبة من بغداد، حيث قُتل الصحافيّان اللبنانيّ ـ الفلسطينيّ نايف شبلاق والمصريّ إبراهيم عامر، ثمّ شكّل اقتلاع صحيفة «بيروت» فاتحة لاجتثاث البعث «القوميّ»، بعد اجتثاث البعث «اليساريّ» أو «جماعة الراية». وهي وجهة ما لبثت أن وجدت تعزيزها، بعد ثورة الخميني عام ١٩٧٩، في الحضور المستجدّ لإيران وشبكاتها في بيروت.

والحال أنّه منذ ما قبل الثورة الإيرانيّة، كان التنافر واضحًا بين موقفي البعثين الحاكمين. ففي ١٩٧٨، مثلًا، أُبعد آية الله الخميني من العراق الذي لجأ إليه في ١٩٦٤، مقيمًا في النجف، بعد

انتفاضتـه الأولـى فـي ١٩٦٣. وقـد جـاء قـرار إبعـاده بنتيجـة التوافـق العراقـيّ ـ الإيرانـيّ الـذي أعقـب معاهـدة شـاه إيـران وصـدّام حسـين، نائـب الرئيـس العراقـيّ حينـذاك، فـي الجزائـر عـام ١٩٧٥. أمّـا سـوريا، وعبـر وسـاطة تولّاهـا موسـى الصـدر، فقدّمـت تسـهيلات لمعارضـي الشـاه عُـرف منهـا، كمَثَـل غيـر حصـريّ، تأميـن بطاقـة لصـادق قطـب زاده، وزيـر خارجيّـة الثـورة الأوّل ثـمّ أحـد ضحاياهـا، بوصفـه مراسـلًا لجريـدة «البعـث» السـوريّة فـي باريـس.

ولـم يكـن خفيًّـا أنّ الحـرب الإيرانيّـة ـ العراقيّـة طـوال الثمانينيّـات، شـكّلت الحضـن والكنـف للمضـيّ فـي الاجتثـاث. فابتـداءً بـ١٩٨٠، تولّـت «حركـة أمـل»، لا سـيّما الجيـوب الإسـلاميّة فيهـا التـي جهـرت لاحقًـا بانتسـابها إلـى «حـزب اللـه»، محاصـرة البعـث وتصفيـة «جبهـة التحريـر العربيّـة»، ومـن ثـمّ إلغاءهمـا كقوّتيـن سياسـيّة وعسـكريّة. وفـي العـام نفسـه، اغتيـل موسـى شـعيب بعـد عودتـه مـن بغـداد، حيـث ألقـى فـي حضـرة صـدّام حسـين قصيـدة عُرفـت بعنوانهـا «أسـرج خيولـك»، كانـت مديحًـا لـه وتشـهيرًا بالخمينـي. وفـي ذلـك العـام، كمـا فـي العـام الـذي تـلاه، حصـد الاغتيـال قيـادات «قوميّـة» كان منهـا المحامـي تحسـين الأطـرش والطبيـب عدنـان سـنّو والباحـث والمـؤرّخ عبدالوهـاب كيّالـي.

أمّـا عـام ١٩٨١ تحديـدًا، فشـهد حدثًـا هيوليًّـا لا يقـلّ عـن تفجير السـفارة العراقيّـة فـي بيـروت التـي أزيلـت تمامًـا مـن الوجـود، مثلهـا مثـل «جبهـة التحريـر العربيّـة»، وقـد عُـدّ التفجيـر ذلـك واحـدًا مـن الأعمـال المنسـوبة إلـى القيـاديّ اللاحـق فـي «حـزب اللـه»، عمـاد مغنيّـة. وإذ اعتقلـت الأجهـزة السـوريّة عشـرات البعثيّيـن «القوميّيـن» ممّـن سـاقتهم إلـى أقبيتهـا، انتقـل آخـرون مـن قياديّيهـم للعيـش فـي المناطـق المسـيحيّة فـي تكـرار موسّـع للاسـتقواء بالمسـيحيّين فـي السـتّينيّات،

إبّان مواجهة الحلف الناصريّ ـ الشهابيّ. وبدوره، هاجر الرافعي، في ١٩٨٣، مرّة ثانية إلى أوروبا، ومنها إلى بغداد التي استقرّ فيها عام ١٩٩٠، ومثله فعل رفيقه العكّاريّ خالد العلي. وهناك، في بغداد، بقي القياديّ الطرابلسيّ حتى إسقاط القوّات الأميركيّة صدّام حسين عام ٢٠٠٣. أمّا الذين بقوا في لبنان من البعثيّين «القوميّين» فأقاموا، منذ الثمانينيّات، في المناطق الشرقيّة من بيروت، ضيوفًا على القوى المسيحيّة المناهضة لسوريا ونفوذها، وهمزات وصل بين عراق صدّام وكلّ من العونيّين والقوّاتيّين.

وفي الأحوال كافّة، استمرّت لسنوات وجهة القمع بأشكاله الكثيرة، فلم ينجُ منها قياديّ البعث «القوميّ» وابن العاقورة، رفيق أبي يونس، على رغم انكفائه إلى المناطق الشرقيّة، إذ اعتقلته الأجهزة اللبنانيّة في ١٩٩٤ وسلّمته إلى أجهزة الشقيق الأكبر التي لم تطلق سراحه من السجون السوريّة حتى ١٩٩٧.

لكنْ، على عكس تعامل دمشق مع بعثيّيها الذين اعتبرتهم تحصيلًا حاصلًا، كوفئ البعثيّون الموالون لبغداد بأشكال شتّى، منها المكانة المرموقة التي حظي بها الرافعي في ملجئه، وتعيينها سفراء لبنانيّين للعراق من قدامى البعثيّين، كزيد حيدر وجهاد كرم وحسن شرف الدين، ما استفزّ بعض المشاعر الوطنيّة العراقيّة.

انتفاء الحاجة وإذ أوشك البعث المؤيّد لبغداد على الاندثار، فيما مُنح الترخيص الرسميّ باسم «حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ» لمؤيّدي دمشق، واجه الأخيرون اجتثاثًا من نوع آخر، ذاك أنّ الحاجة انتفت، ما عدا في الشكليّات، إلى تنظيم هزيل كتنظيمهم في ظلّ وجود سوريّ، عسكريّ وأمنيّ، مباشر

فـي لبنـان، ناهيـك بوجـود أحـزاب مواليـة لدمشـق أكفـأ وأقـوى بـلا قيـاس مـن هـذا الحـزب. ولئـن بـات بعثيّـون يصلـون إلـى البرلمـان علـى لوائـح «حـزب اللـه» و«حركـة أمـل»، فضـلًا عـن تمثيلهـم فـي حكومـات مـا بعـد اتّفـاق الطائـف، فهـذا مـا لـم تكـن لـه أيّـة دلالـة أو أثـر علـى واقـع الحـزب نفسـه.

وأغلـب الظـنّ أنّ مـا كان يملـي أعمـال التوزيـر علاقـاتُ الموزَّريـن بالقيـادات الأمنيّـة السـوريّة، فضـلًا عـن اسـتخدام اسـم البعـث لدلالتـه الرمزيّـة ولمـا قـد تمنحـه مـن شـرعيّة مختـرَعـة فـي ظـلّ فـرض «عروبـة لبنـان» أيديولوجيّـةً رسـميّةً. أمّـا المنافـع والخدمـات المنجـرّة عـن التوزيـر، فـكان معظمهـا يعـود علـى الوسـط الأهلـيّ والعائلـيّ لأولئـك الموزَّريـن أنفسـهم.

ووراء هـذه الهشاشـة التـي حوّلتـه جاليـةً سـوريّة أو عراقيّـة فـي لبنـان، جمـع البعـث اللبنانـيّ دائمًـا بيـن صفتيـن سـالبتين لجهـة الحضـور والشـعبيّة: فهـو ليـس ناطقًـا باسـم طائفـة بعينهـا، وهـو الافتقـار الـذي ضخّمـه توجّـه الطوائـف كلّهـا إلـى امتـلاك أحزابهـا الخالصـة الصفـاء. إلّا أنّ البعـث، علـى عكـس الشـيوعيّين والقوميّيـن السـوريّين بوصفهـم أحزابًـا «غيـر طائفيّـة»، لـم يملـك أيّ برنامـج لبنانـيّ فعلـيّ ولا كان لديـه هـمٌّ لبنانـيّ جـدّيّ. ولمّـا كان النظامـان البعثيّـان فـي الجـوار، نظاميـن أمنيّيـن قبـل أيّ شـيء آخـر، فهـذا مـا حـرم البعـث اللبنانـيّ كلّ ادّعـاء اسـتقلاليّ أو زعـمٍ ذي صدقيّـة أو جـدارة.

فـوق هـذا، وعلـى امتـداد عقـود مـن تاريخهـم، لـم يحتـلّ البعثيّـون أيّ موقـع يُذكـر علـى خريطـة إنتـاج الكتـب والمعـارف أو فـي ميـدان النشـاط الثقافـيّ، فبقيـت القصائـد المنبريّـة والحماسـيّة القنـاة الأمتـن فـي تسـييس قاعدتهـم وفـي مخاطبتهـا. ولئـن حاولـت «دار الطليعـة» التـي يملكهـا بشـير الداعـوق، ومجلّـة «دراسـات عربيّـة» الصـادرة عنهـا،

أن تروّجا لفكر بعثيّ ما، فقد غلبهما على أمرهما فيضان الكتابات والترجمات الماركسيّة التي تظاهر البعثيّون باحتضانها، فيما هم يتلصّصون عليها مبهورين وحاسدين.

مصائر بائسة لقد عاد عبدالمجيد الرافعي من العراق إلى لبنان في ٢٠٠٣، ليؤسّس «حزب طليعة لبنان العربيّ الاشتراكيّ» امتدادًا للحزب «القوميّ» الذي انتُزع منه ترخيص البعث واسمه. وبالفعل، عقد الحزب القديم ـ الجديد مؤتمرًا وانتخب قيادة له، لكنّ الوجه الطرابلسيّ الذي اختير على رأس هذه القيادة، كما ترشّح لانتخابات ٢٠٠٥ النيابيّة، صار له من العمر ٨٨ عامًا، وغدا من المستغرب الربط بينه، أو بين حزبه، وأيّة طليعة كانت. وهذا فضلًا عن صعوبة العثور على رأي له، ولمن انضوى تحت مظلّته، يتعدّى الهجاء الخطابيّ لـ «العدوّين» الأميركيّ و«الفارسيّ»، وهو هجاء منفعل بما حدث في العراق في ٢٠٠٣ وبعدها.

أمّا على المقلب الثاني، فمنذ ٢٠٠٥، تحوّل التنظيم التابع لدمشق جزءًا ثانويًّا في تحالف ٨ آذار، إلّا أنّ الأخبار عنه باتت تقتصر على مناسبات إعلان الولاء للقائد والقيادة السوريّين والتشهير بخصومهما اللبنانيّين. ومع اندلاع الثورة السوريّة، تحوّل بعض بقايا البعثيّين من «جماعة سوريا»، ومعهم أفراد من «الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ» ومن المخابرات السوريّة، إلى «بلطجيّين» و«شبّيحة» يهدّدون المعتصمين اللبنانيّين والسوريّين المؤيّدين للثورة ويعتدون عليهم.

ولا يزال الغموض يشوب طبيعة الحزب هذا، خصوصًا إذا ما حملنا على محمل الجدّ قانون الأحزاب الجديد في دمشق الذي يمنع

أيّ حزب سوريّ من أن يكون له فرع خارجها، أو أن يتبع حزبًا في الخارج.

وقبيل انفجار الثورة في سوريا، كان قد انفجر خلاف بين عاصم قانصوه وفايز شكر على من يكون الأمين العامّ للقيادة القطريّة، إثر قرار للقيادة القوميّة في دمشق بإقالة شكر من الأمانة العامّة وتعيين قيادة قطريّة جديدة يرأسها معين غازي المقرّب من قانصوه. لكنّ أيًّا من المعلّقين والمراقبين اللبنانيّين لم يُبد ما ينمّ عن اكتراث بالخلاف هذا، وعمّا إذا كانت وراءه أسباب وجيهة أو لم تكن. وفي تلك الغضون، تطايرت اتّهامات لشكر تطعن بشرعيّة انتخابه وتمثيله، قابلتها اتّهامات لقانصوه مفادها أنّه يربط الحزب ربطًا كلّيًّا ومطلقًا بالأجهزة الأمنيّة السوريّة.

ولم يظهر، طوال أعوام مديدة، ما يذكّر بالبعث وتاريخه، وبأنّه كان، ذات مرّة، حزبًا واحدًا، سوى كتاب مشترك حمل عنوانًا ستّينيًّا هو «العروبة ولبنان»، صدر أخيرًا عن «شركة الشرق الأوسط لتوزيع الصحف والمطبوعات»، وضمّ مقالات لنقولا الفرزلي ورغيد الصلح وعاصم قانصوه وواصف شرارة.

وعلى العموم، فإنّه على رغم سيطرة الحزب عقودًا على بلدين عربيّين كبيرين، هما سوريا والعراق، وعلى رغم التجاور اللبنانيّ ـ السوريّ، لم يحظ البعث في لبنان باهتمام يُذكر. والمفارقة، هنا، أنّ هذا القرب من سوريا والتأثّر النسبيّ بالعراق كانا من أسباب تراجع الاكتراث به بدل أن يؤدّيا إلى العكس. فهما عملا، بالتضامن مع عناصر أخرى تمّ التطرّق إليها، على رسمه مجرّد جالية من الناطقين بلسان خارجٍ يحكمه الخوف وضعف الجاذبيّة على عموم اللبنانيّين.

وإنّما بالمعنى هذا، يبقى تناول هذا الحزب أغنى بدلالاته

المحلّيّـة السـلبيّة، مـن حيـث هامشـيّته وانعـدام تأثيـره، ممّـا بدلالاتـه البعثيّـة الإيجابيّـة التـي تطـاول مسـاهمته كجـزء فاعـل مـن تنظيـم «قومـيّ».

وفـي مسـيرتها الطويلـة تلـك، أنجبـت هـذه التجربـة البائسـة والمكلفـة فـي وقـت واحـد كثيريـن مـن الخاسـرين، بالمـوت اغتيـالًا أو بالمـوت المجّانـيّ، وبالسـجن أو النفـي أو الوقـوع فـي العـوز والفاقـة، كمـا عرفت الكثيريـن ممّـن خرّجهـم البعـث ليغـدوا كـوادر عليـا فـي مؤسّسـات سياسـيّة أو مهنيّـة، أو ممّـن أثْـروا أو صـاروا زعمـاء أو وجهـاء، إمّـا عبـر بغـداد وريوعهـا النفطيّـة أو فـي بيـروت عبـر نفـوذ دمشـق عليهـا ويدهـا الطولـى فيهـا تقريبًـا وتبعيـدًا. أمّـا البعـث فـي هـذا كلّـه، فـكان ولا زال يحـبّ المحسـنين.

مؤسسة دَار الجَديد
Dar al Jadeed

مراجـــــع الفصل

فضلًا عـن الذاكـرة، ومـوادّ مبعثـرة فـي الإنترنـت، كان أبـرز مـا اعتمـدت عليـه الأسـطر أعـلاه:

• مصطفـى دندشـلي، **حـزب البعـث العربـيّ الاشـتراكيّ ١٩٤٠-١٩٦٣ ـ الإيديولوجيـا والتاريـخ السياسـيّ، ج ١**، ١٩٧٩، لا ذكـر للـدار.
كتـاب مصطفـى دندشـلي، **قـراءات فـي الفكـر القومـيّ والماركسـيّة والسياسـة الدوليّـة**، منتـدى المعـارف.

• **نضـال البعـث، ج ١١. القطـر اللبنانـيّ ١٩٦١-١٩٦٨. النضـال مـن أجـل وضـع حزبـيّ سـليم ومـن أجـل لبنـان وطنـيّ وديمقراطـيّ**، دار الطليعـة.

• تأسيس حزب البعث في لبنان لمعن بشّور http://www.arabrenewal.info

• مجموعـة مقابـلات قصيـرة أجراهـا كاتـب هـذه الأسـطر فـي الثمانينيّـات ونشـرها فـي «الحيـاة» بيـن ١٩٩٩/٨/١٩ و١٩٩٩/٩/٢٠ تحـت عنـوان «معرفـة (بعـض) لبنـان طوائـفَ وعائـلاتٍ، مناطـق وأحزابـاً سياسـيّة».

•

معظـم سـنوات الـولادة المذكـورة لأفـراد بعثيّيـن مُسـتقى مـن جـداول قيـادات البعـث كمـا يوردهـا حنّـا بطاطـو فـي كتابـه المرجعـيّ **الطبقـات الاجتماعيّـة القديمـة والحـركات الثوريّـة فـي العـراق**.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

حدث ذات مرّة في لبنان

"لَكِنْ ما يَنْبَغِي أنْ يُقلِقَكُم أنَّ الذين تَشْتُمُونَهُم هُمُ الذين اغتِيْلُوا وقدْ يُغتالُون؛ وهذه قَرِيْنَةٌ على اتِّساعِ الرُّقْعَةِ التي تَتَقاطَعُون فِيها مَعَ القَتَلَة. ولدى بعضِ قَبائِلِ البَّدوِ عادةٌ ربّما كُنْتُم ضَحاياها، هي أنَّ شَيْخَ القَبيلَة يَبني أفْعاله على أقوالِ صَغير القَبيلة الطَّلقِ اللسان؛ والشَّيخُ كما لا بدّ أنّكُم تَعْرِفون، يُحنّي شاربَيه، كُلَّ صباحٍ بالدم."

حازم صاغيّة

مِنْ ألـمَعِ الأقلامِ اللبْنَانيّة والعربيّةِ الـمُعاصِرة. مُحلّلٌ سياسيٌّ وكاتبٌ أريحيّ وإنسان. نشـرَ وينشـرُ في كُبريــات الصُّحفِ ودور النَّشـر. مقالاتُه ودراسَاتُه تصلُ مترجمةً إلى لغاتِ العالـم.

978-9953-11-220-6